

THE BOOK WAS DRENCHED

TIGHT BINDING BOOK

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190239

UNIVERSAL
LIBRARY

Tirage à part des *Notices et extraits des manuscrits de la Bibliothèque impériale*, publiés par l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres.

مقدمة ابن خلدون

PROLÉGOMÈNES

D'EBN-KILALDOUN

TEXTE ARABE

PUBLIÉ, D'APRÈS LES MANUSCRITS DE LA BIBLIOTHÈQUE IMPÉRIALE,

PAR M. QUATREMÈRE.

TOME PREMIER — DEUXIÈME PARTIE



PARIS.

BENJAMIN DUPRAT,

LIBRAIRE DE L'INSTITUT IMPÉRIAL DE FRANCE,

RUE DU CLOître-MARTIN, 15.

M DCCC LVIII

مقدمة ابن خلدون

PROLÉGOMÈNES
D'EBN-KHALDOUN.

DEUXIÈME PARTIE.

فصل في مراتب الملك والسلطان والقائما

PROLÉGOMÈNES
D'EBN-KHALDOUN

اعلم ان السلطان في نفسه ضعيف يحمل امرا ثقيلا فلا بد له من الاستعانة بابناء جنسه واذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مؤنه فما ظنك بسياسة نوعد ومن استرعد الله في خلقه وعباده وهو محتاج الى حماية الكافة من عدوهم بالمدافعة عنهم والى كثر عدوان بعضهم عن بعض في انفسهم بامضاء الاحكام الوازنة فيهم وكثر العدوان عنهم في اموالهم حتى باصلاح سابلتهم والى حيلهم على مصالحهم وما نعمهم به البلوى في معاشهم ومعاملاتهم من نفقذ الهائيس والمكائيل

TOME I. — II^e partie.

والموازن حذرا من التطفيف وإلى النظر فى السكة لحفظ النقود التى يتعاملون بها من الغش وإلى سياستهم بما يريد من الانتقياد له والرضى بمخاصده فيهم وانفرادهم بالمجد دونهم فيتحمل من ذلك فوق الغاية من معاناة القلوب قال بعض الاسراف من الحكماء لمعاناة نقل الجبال من اسادها اهدون على من معاناة قلوب الرجال (ثم) الاستعانة اذا كانت تاول القربى من اهل النسب او التربة ولاعطاء التقديم للدولة كانت اكمل ليا يقع فى ذلك من سبحانه خلفهم لخلقهم فى الاستعانة قال تعالى اجعل لى وزيرا من اهل بيوتى احدى استدد به ارمى واشرك فى امرى وهو اما ان يستعين فى ذلك بسيفه او بقلمه او بوائده ومعارفه او سجايد عن الناس ان يزدحموا عليه فيشغلوه عن النظر فى مهيته او يدفع النظر فى الهلك كله اليد ويعول فى كفايه فى ذلك واعتلاعه به فان ذلك قد يوجد لرجل واحد وقد يذوق فى الشخص وقد يتفرع كل واحد منهما الى فروع كثيرة كالنظم شقوع الى فلم الرسائل والمخاطبات وفلم الحكومات والافطاعات وإلى قلم المحاسبة وهو صاحب السبابة والعطاء وديوان الجيش وكالسيف يتفرع الى صاحب الحرب وصاحب الشرطة وصاحب البريد وولاية الثغور (ثم) اعلم ان الوظائف السلطانية فى هذه الملة الاسلامية مندرجة تحت الخلافة

لاشتمال منصب الخلافة على الدين والدنيا كما قدّمناه
فالأحكام الشرعية متعلّقة بجميعها وموحّدة لكل واحدة منها
في سائر وجوهها لعدم تعلّق الحكم الشرعي بجميع أفعال
العباد فالفتية ينظر في مرتبة الملك والسلطان وشروط تليدها
استبدادا على الخلافة وهو معنى السلطان أو تفويضا منها وهو
معنى الوزارة عندهم كما يأنى في حدود نظره في الأحكام
والاموال وسائر السياسات مطلقا أو منقيدا وفي موجبات
العزل أن عرضت وغير ذلك من معاني الملك والسلطان
وكذا في سائر الوظائف التي تحت الملك والسلطان من
وزار أو جباية أو ولادة لا بدّ للفتية من النظر في جميع
ذلك لما قدّمناه من انسحاب حكم الخلافة الشرعية في
الملّة الإسلامية على رتبة الملك والسلطان إلا أن كلامنا في
وظائف الملك والسلطان ونريد أنما هو بمنتهى طبيعة العهوان
بوجود البشر لأنها يختصّها من أحكام الشرع فليس من غرض
كتابنا كما علمت فلا يحتاج إلى تفصيل أحكامها الشرعية
مع أنها مستوفاة في كتب الأحكام السلطانية مثل
كتاب القاضى أبى الحسن الماوردى وغيره من اعلام
الشفهاء فإن أردت استيعابها فعليك بيطايعها هنالك وأنما
نكلمها ، في الوظائف الخلافية وأوردناها لتتميز بها وبين

الوظائف السلطانية فقط لا لتحقيق (1) احكامها الشرعية فليس من غرض كتابنا فانّا انما نتكلم فى ذلك بما تقتضيه طبيعة العمران فى الوجود الانسانى والله الموفق (الوزارة) وهى اتم الخطط السلطانية والرنب الملوكية لان اسمها يدل على مطلق الاعانة فان الوزارة مأخوذة اما من الموازنة وهى المعاونة او من الوزر وهو الثقل كانه يحمل مع مفاعله اوزاره وانقاله وهو راجع الى المعاونة المطلقة وقد كُتِبَ قَدَمْنَا فى اول الفصل ان احوال السلطان وتصرفاته لاتعدو اربعة انحاء لانها اما ان تكون فى امور حياية الكافة واسبابها من النظر فى الجند والسلاح والحروب وسائر امور الحمائية والمطالبة وصاحب هذا هو الوزير المتعارف فى الدول القديمة بالمشرق ولهذا العهد بالمغرب واما ان تكون فى امور مخاطباته لمن بعد عنه فى اليكان والزمان وتنفيذه الاوامر فيمن هو محبوب عند وصاحب هذا هو الكاتب واما ان تكون فى امور حبايته لليال وانعامه وضبط ذلك من جميع وجوهه ان يكون بهيئته وصاحب هذا هو صاحب اليال والسجاية وهو المسئى بالوزير لهذا العهد بالمشرق واما ان تكون فى مدافعة الناس ذوى الحاجات عند ان يزدحموا عليه فيشغلوه عن مهته وهذا راجع لصاحب الباب الذى بحبه فلا تعدو احواله

(1) Man A et B. لتحقيق D.

هذه الاربعة بوجه وكل خطّة او رتبة من رتب الملك والسلطان فاليها ترجع الا ان الارفع منها ما كانت الاعانة فيه عامّة فيما تحت يد السلطان من ذلك الصنف الذى هو يقتضى مباشرة السلطان دايما او مشاركته فى كل صنف من احوال ملكه واما ما كان خاصا ببعض الناس او ببعض الجهات فيكون دون الرتبة الاخرى كقيادة نعر او ولاية جباية خاصّة او النظر فى امر خاص كحسبة الطعام او النظر فى السكّة فان هذه كلها نظر فى احوال خاصّة فيكون صاحبها تبعا لاهل النظر العام وتكون رتبته مرسومة لاولئك وما زال الامر فى الدول قبل الاسلام هذا حتى اذا جاء الاسلام وصار الامر خلافة فذهبت هذه الخطط كلها بذهاب رسم الملك الا ما هو طبعى من المعاونة بالراى والمفاوضة فيه فلم يمكن زواله اذ هو امر لا بد منه فكان على الله عليه وسلم يشاور اصحابه ويتواضعهم فى مهمات العامة والخاصة ويختص مع ذلك ابابكر بخصوصيات اخرى حتى كان العرب الذين عرفوا الدول واحوالها فى كسرى وقصر والنجاشى يسمون ابابكر وزيره ولم يكن لفظ الوزير بعرف بين المسلمين لذهاب رتبة الملك بسداجة الاسلام وكذا عمر مع ابى بكر وعلى وعثمان مع عمر واما حال الجباية والانفاق والحسبان فلم يكن عندهم برتبة لان القوم كانوا عربا

أَمِيَّينَ لَا يَحْسِنُونَ الْكِتَابَ وَلَا الْحِسَابَ فَكَانُوا يَسْتَعْمَلُونَ
فِي الْحِسَابِ أَهْلَ الْكِتَابِ أَوْ أَفْرَادًا مِنْ مَوَالِي الْعَجَمِ مِنْ
بَحِيدِهِ وَكَانَ قَلِيلًا فِيهِمْ وَأَمَّا أَشْرَافُهُمْ فَلَمْ يَكُونُوا يَجِيدُونَ لَأَنَّ
الْأَمِيَّةَ كَانَتْ صِفَتَهُمُ الَّتِي امْتَارُوا بِهَا وَكَذَا حَالُ الْمُخَاطَبَاتِ
وَتَنْفِيزِ الْأُمُورِ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ رَتَبَةٌ خَاصَّةٌ لِلْأَمِيَّةِ الَّتِي فِيهِمْ
وَالْأَمَانَةُ الْعَامَّةُ فِي كِتْمَانِ الْقَوْلِ وَبَادِيَتِهِ وَلَمْ تَحُوجِ السِّيَاسَةُ
إِلَى اخْتِيَارِهِ لِأَنَّ الْخِلَافَةَ أَمَّا هِيَ دِينٌ وَلَيْسَتْ مِنَ السِّيَاسَةِ
الْمَالِكِيَّةِ فِي شَيْءٍ وَإِضًا فَلَمْ تَكُنِ الْكِتَابَةُ صِنَاعَةً فَيَسْتَجَادُ
لِلْخَلِيفَةِ أَحْسَنُهَا لِأَنَّ الْكُلَّ كَانُوا يَعْبُرُونَ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ بِأَبْلَغِ
الْعِبَارَاتِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْخَطُّ فَكَانَ الْخَلِيفَةُ يَسْتَنِيْبُ فِي
كِتَابِهِ مَتَى عَنْ لَدُنْ مَنْ يَحْسُنُ وَأَمَّا مَدَافَعَةُ ذَوِي الْحَاجَاتِ
عَنْ أَيْدِيهِمْ فَكَانَ مَحْظُورًا بِالشَّرِيعَةِ فَلَمْ يَفْعَلُوهُ فَلَمَّا انْفَلَسَتْ
الْخِلَافَةُ إِلَى الْهَلَاكِ وَجَاءَتْ رُسُومُ السَّلْطَانِ وَالْقَائِدِ كَانِ أَوَّلُ
شَيْءٍ يَدْعَى بِهِ فِي الدَّوْلَةِ شَأْنُ الْبَابِ وَسَدُّهُ دُونَ الْجُمْهُورِ
لَمَّا كَانُوا يَحْشَوْنَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ اغْتِبَالِ الْخَوَارِجِ وَغَيْرِهِمْ
كَمَا وَقَعَ بِعُمَرَ وَعَلَى وَبِعَاوِنَةٍ وَغَيْرِهِمْ بَيْنَ الْعَاصِ وَغَيْرِهِمْ مَعَ
مَا فِي فَتْحِهِ مِنْ أَرْحَامِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ وَشَغْلِهِمْ بِهِمْ عَنْ
الْمِهْمَاتِ فَاتَّخَذُوا مِنْ يَقُومُ لَهُمْ بِذَلِكَ وَسُمُوهُ الْحَاجِبُ
يُودَّ جَاءَ أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ لَهَا وَلِيٌّ حَاجِبُهُ قَالَ لَدُنْ وَلِيَّتِكَ
حَاجِبَةٌ بَابِي لَا عَنْ ثَلَاثَةِ الْيَوْمِ لِلصَّلَاةِ فَإِنَّهُ دَاعَى إِلَهُ

وصاحب البريد فامر ما جاء به وصاحب الطعام لئلا يفسد
 ثم استفحل الملك بعد ذلك فظهر المشاور والمعين في امور
 القبايل والعصايب واستيلاهم واطلق عليه اسم الوزير وبقي امر
 الحسابان في الهوالى والذمتين واتخذ للسجلات كاتب مخصوص
 حوَّطه على سائر اسرار السلطان ان تشتهر فتفسد سيسته مع
 فومد ولم يكن بمثابة الوزير لانه انما احتيج له من حيث
 الخط والكتاب لا من حيث اللسان الذى هو الكلام اذ
 اللسان لذلك العهد على حاله لم يفسد فكانت الوزارة
 لذلك ارفع رتبهم يومئذ هذا سائر دولة بنى امية فكان
 النظر للوزير عاقما في احوال التفويض والمفاوضات وسائر امور
 الحمامات والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند
 وفرض العطاء بالاحالة وغير ذلك فلما جاءت دولة بنى
 العباس واستفحل الملك وعظمت مرابده وارتفعت عظم
 شان الوزير وصار اليد الثيابة فى انفاذ الحل والعقد وتعيّنت
 مرئيه فى الدولة وعنت لها الوجوه وخضعت الرقاب وجعل
 له النظر فى ديوان الحسابان لما تحتاه اليد خطته من قسم
 الاعطيات فى الجند فاحتاج الى النظر فى جمعه وتفرقه
 واضيف اليه النظر فيه نم جعل له النظر فى القلم والترسيل
 لضمون اسرار السلطان ولحفظ البلاغة لها كان اللسان قد فسد
 عند الجمهور وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من

الذئاع والشياع ودفع اليه فصار اسم الوزير جامعا لخطئى
 السيف والقلم وسائر معانى الوزارة والمعونة حتى لقد دعى
 جعفر بن يحيى بالسلطان امام الرشيد اشارة الى عموم نظره
 وقيامه بالدولة ولم يخرج عند من المراتب السلطانية كلها
 الا الحجابة التى هى القيام على الباب فلم نكن له
 لاستنكافه عن مثل ذلك ثم جاء فى الدولة العباسية شأن
 الاستبداد على الخلفاء (1) وتعاور فيها استبداد الوزراء مره
 والسلطان اخرى وصار الوزير اذا استبد محتاجا الى استنابة
 الخليفة اياه لذلك لتصح الاحكام الشرعية وتجبرى على
 حالها كما تقدم فانقسمت الوزارة حينئذ الى وزارة تنفيذ
 وهى حال ما يكون السلطان فاسا على نفسه والوزير كالوكيل
 فى تنفيذ احكامه والى وزارة تفويض وهى حال ما يكون
 الوزير مستبدا عليه وقد فوض اليه الخليفة جميع امور خلافة
 وجعلها نظره واجبهاده وحوى حينئذ الخلاف فى العفد
 لوزيرين معا بوزارة التفويض مثل ما جرى من العفد لامام
 سعا وقد تقدم فى الاحكام الخلافية ثم استمر الاستبداد
 وصار الامر لملاوك العجم ونعطل رسم الخلافة ولم يكن
 لأولئك المتغلبين ان يتحلوا القاب الخلافة واستنكفوا من
 مشاركة الوزراء فى اللقب لانهم حول لهم فسموا بالامارة

والسلطان وكان المستبد على الدولة يسمى امير الامراء
او بالسلطان الى ما يحلله بد الخليفة من العابد كما نراد في
الغايه ونوكوا اسم الوزارة الى من يتولاهم للخليفة في حاجته
ولم يزل هذا الشأن عندهم الى آخر دولتهم وفسد اللسان
حلال ذلك كله وصار صناعة ينحليها بعض الناس فامسنت
بترقع الوزراء عنها لذلك ولانهم عجم وليس تلك البلاغ
في المقصود من لسانهم فتخير لها من ساير الطبقات
واختصت بد وصارت خادمة للوزير (واختص) اسم الامير
بصاحب الحروب والسجد وما يرجع اليها ويده مع ذلك
عاليه على اهل الرتب وامره نافذ في الكل اما نسب
او استبداد واستمر الامر على هذا (نم) جاءت دولة الترك
احرا بعصر فراوا الوزارة قد ابتذلت بترقع اولئك عنها ودفعها
لهم بقوم بها لالحلفاء المحجور ونظرة مع ذلك معتب بنظر
لامير فصارت مروسه ناقصه فاستنكف اهل هذه الرتبة العاليه
في الدولة عن اسم الوزارة وصار صاحب الاحكام والظر في
الحمد يسمى عندهم بالاياب لهذا العهد واختص اسم الوزير
عندهم بالظر في الجباية (واما) دولة بني امية بالاندلس
فابقوا اسم الوزير (1) في مدلوله اول الدولة ثم قسموا خطته اصنافا
وانودوا لكل عنى وزيرا فجعلوا الحسبان المال وزيرا والشرط

(1) Man A (1B) الوزارة

وزيراً وللنظر فى حوائج المتظلمين وزيراً وللنظر فى احوال
اهل الثغور وزيراً وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش
منصدة لهم وينفذون امر السلطان هنالك كل فيما جعل له
وافرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم
بمباشرة السلطان فى كل وقت فارتفع مجلسه عن مجالسهم
وخصوه باسم الحاجب ولم يزل الشأن هذا الى آخر دولتهم
فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار
ملوك الطوائف يتحلون لقبها فأكبرهم يومئذ يسمى
الحاجب كما نذكره، ثم جاءت دولة الشيعة بافريقية والقيروان
وكان للقائمين بها رسوخ فى البداوة فاغفلوا امر هذه الخطط
اولاً وتسقيح اسمائها حتى ادركت دولتهم الحضارة فصاروا
الى تقليد الدولتين قبلهم فى وضع اسمائها كما نراه فى اخبار
دولتهم (ولما جاءت دولة الموحدين) من بعد ذلك اغفلت
الاسر اولاً للبداوة ثم صارت الى انتحال الاسماء واللقاب
وكان اسم الوزير فى مدلوله ثم انبعوا دولة الامويين وقلدوها
فى مذاهب السلطان واصاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان
فى مجلسه ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند
الحدود فى تحييتهم وخطابهم وآداب التى تلزم فى الكون
بين يديه ورفعوا خطة الحجابة عنه ما شأوا ولم يزل الشأن
ذلك الى هذا العهد (واما) فى دولة الترك بالهشقر فيسهون

هذا الذى يقف بالناس على حدود الآداب فى اللقاء والشجيرة
فى مجلس السلطان والتقدم بالوفود بين يديه يسهونه الدوا دار
ربضيغون اليه استتباع كاتب السر واصحاب البرد المتصرفين
فى حاجات السلطان بالقاصية وفى الحضرة وحالهم على ذلك
لهذا العهد والله متولى الامور (والحجابه) قد قدما ان هذا اللقب
كان مخصوصا فى الدولة الاموية والعباسية بمن يجب
السلطان عن العامة ويغلق بابه دونهم او يفتحهم لهم على
قدره وفى مواقيته وكانت هذه منزلة يومئذ عن الخطط مرسوة
لها اذ الوزير متصرف فيها بما يراه وهكذا لسائر ايام بنى
العباس والى هذا العهد فهى بهصر مرسوة لاصحاب الخططة
العليا المسمى بالنايب واما فى دولة بنى امية بالاندلس
فكانت الحجابه لمن يجب السلطان عن الخاصة والعامة
ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم فكانت فى
دولتهم رفيعة غاية كما تراه فى اخبارهم كابن حدير وغيره من
حجابهم ثم لها جاء الاستبداد على الدولة اختص المستبد
باسم الحجابه لشرفها فكان المنصور بن ابي عامر وابناءه
كذلك ولما بدوا فى مظاهر الملك واطواره جاء من بعدهم
من ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها وكان يعدونه شرفا لهم
وكان اعظمهم ملكا بعد انتحال القاب الهلك واسمائهم لا بد
له من ذكر الحاجب وذى الوزارتين يعنون به السيف والقلم

ويُدّلّون بالحجاجة على حجابة السلطان عن العامة والخاصة
وبذى الوزيرين على جمعه لخطتى السيف والقلم ثم لم يكن
فى دول المغرب وافريقية ذكر لهذا الاسم للبدواة التى كانت
فيهم وربها يوجد فى دولة العبيديين بمصر عند استغلاظها
وحضارتها الا انه قليل ولها جاءت دولة الموحدين لم نستمكن
فيها الحضارة الداعية الى انتحال الالقاب وتمييز الخطط
وبعينيها بالاسماء الا اخرها فلم يكن عندهم من الرتب
الا الوزير فكانوا اولاً يختصون بهذا الاسم الكاتب المتصرف
المشاركت للسلطان فى خاص امره كابن عطية وعبد السلام
الكوسى وكان له مع ذلك النظر فى الحساب والاشغال
المالية ثم صار بعد ذلك اسم الوزير لاهل نسب الدولة من
الموحدين كابن جامع وغيره ولم يكن اسم الحاجب معروفاً
فى دولتهم يومئذ (واما) بنو ابي حفص بافريقية فكانت الرئاسة
فى دولتهم اولاً والتقدم لوزير الراى والمشورة وكان يختص
باسم شيخ الموحدين وكان له النظر فى الولايات والعزل
وفرد العساكر والحروب واختص الحساب والديوان برتبة
اخرى سمي متوليها بصاحب الاشغال ينظر فيها النظر المطلق
فى الدخل والخرج وبحاسب ويستخلص الاموال ويعاقب
على التفریط وكان من شرطه ان يكون من الموحدين واختص
عندهم القلم ايضا بمن يجيد الترسيل ويؤمن على الاسرار

لان الكتابة لم تكن من متحل القوم ولا الترسل بلسانهم فلم يشترط فيه النسب واحتاج السلطان لاتساع ملكه وكثرة المترقبين في داره الى قهرمان خاص بداره في احواله يجريها على قدرها وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة في المطابخ والاسطبلات وغيرها وحصر الذخيرة وتنفيذ ما يحتاج اليه في ذلك على اهل الحجابة فخصّوه باسم الحاجب وربّما اضافوا له كتاب العلامة على السجلات اذا اتفق ان يحسن صناعة الكتابة وربّما جعلوه لغيره واستمرّ الامر على ذلك وحجب السلطان نفسه عن الناس فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس وبين اهل الرتب كلهم ثم جمع له آخر الدولة السيف والحرب ثم الراى والمشورة فصارت الخطّة ارفع الرتب واوعبها للخطط ثم جاء الاستبداد والحجر مدّة من بعد السلطان الثانى عشر منهم ثم استبدّ بعد ذلك حافده السلطان ابو العباس على نفسه واذهب آثار الحجر والاستبداد باذهاب خطّة الحجابة التى كانت سلّما اليه وباشر اموره كلها بنفسه من غير استعانة باحد ولا امر فى ذلك لهذا العهد (واما) دول زناينة بالمغرب واعظمها دولة بنى مرين فلا اثر لاسم الحاجب عندهم واما رياسة الحرب والعساكر فهى للوزير ورتبة القلم فى الحسبان والرسايل راجعة الى من يحسنها من اهلها وان اختصّت ببعض البيوت من

المصطنعين في دولتهم وقد تجمع عندهم وقد تفرق واما باب
السلطان وحيد عن العامة فهي رتبة عندهم يسمى صاحبها
بالمزوار ومعناه المقدم على الجنادة المتصرفين بباب
السلطان في تنفيذ اوامره وتصريف عقوباته وانزال سطواته
وحفظ المعتقلين في سجونهم والعريف عليهم في ذلك
فالبايع له واخذ الناس بالوقوف عند الحدود في دار العامة
راجع اليه فكان وزارة صغيرة واما دولة بني عبد الواد
فلا اثر عندهم لشيء من هذه الألقاب ولا تمييز الخطط لبدواة
دولتهم وقصورها وانما يخصون باسم الحاجب في بعض
الاحوال منفذ الخاص بالسلطان في داره كما كان في دولة
بني ابي حفص وقد يجمعون له الحساب والسجلات كما
كان فيها حملهم على ذلك تقليد الدولة كما كانوا في
بيعتها وقابضين بدعوتها منذ اول امرهم واما اهل الاندلس
لهذا العهد فالمخصوص عندهم بالحساب وتنفيذ حال السلطان
وساير الامور المالية يسهون بالوكيل واما الوزير فكلوزير الا انه
قد يجمع له الترسل والسلطان عندهم يضع خطه على
السجلات كلها فليس هناك خطة للعلامة كما لغيرهم من
الدول واما دولة الترك بمصر فاسم الحاجب عندهم
موضوع لحاكم من اهل الشوكة وهم الترك ينفذ الاحكام
بين الناس في المدينة وهم متعددون وهذه الوظيفة عندهم

تحت وظيفة النيابة التي لها الحكم فى اهل الدولة وفى العامة على الاطلاق وللنايب التولية والعزل فى بعض الوظائف على الاحيان ويقطع القليل من الارزاق ويشتتها وينفذ اموره ومراسمه كما بنفذ الهراسم السلطانية وكان له النيابة المطلقة عن السلطان والحجاب الحكم فقط فى طبقات العامة والجند عند الترافع اليهم واجبار من لا ينقاد للحكم وطورهم تحت طور النيابة والوزير فى دولة الترك هو صاحب جباية الاموال فى الدولة على اختلاف اصنافها من خراج او مكس او جزية ثم تصريفها فى الانفاقات السلطانية او الجبريات المقدرة وله مع ذلك التولية والعزل فى سائر العمال المباشرين لهذه الجباية والتنفيذ على اختلاف مراتبهم وتباين اصنافهم ومن عوايدهم ان يكون هذا الوزير من صنف القبط القابضين على ديوان الحسبان والجباية لاختصاصهم بذلك فى مصر منذ عصور قديمة وقد يوليها السلطان بعض الاحيان لاهل الشوكة من رجالات الترك او ابنائهم على حسب الداعية لذلك والله مدبر الامور ومصرفها بحكمته لا اله الا هو

ديوان الاعمال والجبايات

هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهى القيام على

اعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة فى الدخل والخرج واحصاء العساكر باسمائهم وتقدير ارزاقهم وصرف اعطياتهم فى اibanاتها والرجوع فى ذلك الى القوانين التى يرتبها قومة تلك الاعمال وقهارة الدولة وهى كلها مسطورة فى كتاب شاهد بتفاصيل ذلك فى الدخل والخرج مبنى على جزء كبير من الحسبان لا يقوم به الا المهرة من اهل تلك الاعمال ويسمى ذلك الكتاب بالديوان وكذلك مكان جلوس العمال والمباشرين لها ويقال ان اصل هذه التسمية ان كسرى نظريوما الى كتاب ديوانه وهم يحسبون مع انفسهم كانهم يحادثون فقال ديوانه اى مجانين بلغة الفرس فسمى موضعهم بذلك وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفا ف قيل ديوان ثم نقل هذا الاسم الى كتاب هذه الاعمال المتضمن للقوانين والحسابات وقيل انه اسم للشيطان بالفارسية وسمى الكتاب بذلك لسرعة نفوذهم فى فهم الامور ووقوفهم على الجلى منها والخفى وجمعهم لما شذ وتفرق ثم نقل الى مكان جلوسهم لتلك الاعمال وعلى هذا فيتناول اسم الديوان كتاب الرسائل ومكان جلوسهم بباب السلطان على ما ياتى بعده وقد تفرد هذه الوظيفة بناظر واحد ينظر فى ساير هذه الاعمال وقد يفرد كل صنف منها بناظر كما يفرد فى بعض الدول النظر فى العساكر واقطاعاتهم

وحسبان اعطياتهم او غير ذلك على حسب مصطاح الدولة وما قرره اولوها واعلم ان هذه الوظيفة انما تحدث في الدول عند تمكن الغلب والاستيلاء والنظر في اعطاف الهلك وفنون التمهيد واول من وضع الديوان في الدولة الاسلامية عمر رضى الله عنه يقال بسبب مال اتى به ابو هريرة من البحرين استكثروه وتعبوا في قسمه فسوها الى احصاء الاموال وضبط العطاء والحقوق فاشار خالد بن الوليد بالديوان وقال رايت ملوك الشام يدونون فقبل منه عمر وقيل بل اشار عليه به الهرمزان لما راه يبعث البعوث بغير ديوان فقال له ومن يعلم بغيبة من يغيب منهم فان من تخلف منهم اخل (1) بمكانه وانما يضبط ذلك الكتاب فائث لهم ديوانا وسال عمر عن اسم الديوان ففسر له ولما اجمع على ذلك امر عقيل بن ابى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من كتاب قريش فكتبوا ديوان العساكر الاسلامية على ترتيب الانساب مبتديا من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما بعدها الاقرب فالاقرب هكذا كان ابتداء ديوان الجيش وروى الزهرى عن سعيد ابن المسيب ان ذلك كان في المحرم سنة عشرين (واما ديوان الخراج والجايات) فبقى بعد الاسلام على ما كان عليه من قبل

(1) Man. C. et D. اخل.

ديوان العراق بالفارسية وديوان الشام بالرومية وكتاب
الدواوين من اهل العهد من الفريقين فلما جاء عبد الملك
بن مروان واستحال الامر ملكا وانتقل القوم من غصاصة
البداءة الى رونق الحضارة ومن سذاجة الامية الى حذق
الكتابة وظهر في العرب ومواليهم مهرة في الكتاب
والحساب فامر عبد الملك سليمان بن سعد والى الاردن
لعنده ان ينقل ديوان الشام الى العربية فاكمله لسنة من
يوم ابتداءه ووقف عليه سرحون كاتب عبد الملك فقال
لكتاب الروم اطلبوا العيش في غير هذه الصناعة فقد قطعها
الله عنكم واما ديوان العراق فامر الحجاج كاتبه صالح بن
عبد الرحمن وكان يكتب بالعربية والفارسية ولحق ذلك عن
زادان فروخ كاتب الحجاج قبله ولما قتل زادان في حرب
عبد الرحمن بن الاشعث استخلف الحجاج صالحا هذا مكانه
وامره ان ينقل الديوان من الفارسية الى العربية ففعل ورغم
لذلك كتاب الفرس وكان عبد الحميد بن يحيى يقول
لله در صالح ما اعظم منته على الكتاب ثم جعلت هذه
الوظيفة في دولة بنى العباس مضافة الى ما كان له النظر
فيه كما كان شان بنى برمك وبنى سهل بن نوبخت
وغيرهم من وزراء تلك الدولة فاما ما يتعلق بهذه الوظيفة من
الاحكام الشرعية مما يختص بالجيش او بيت المال في الدخل

والخرج او نميز النواحي بالصالح والغوة وفي تقليد هذه الوظيفة مهن يكون وشروط الناظر فيها والكاتب وقوانين الحسابات فامر راجع الى كتب الاحكام السلطانية وهى مسطورة هنالك وليست من غرض كتابنا وانما نتكلم فيها من حيث طبيعة الملك الذى نحن بصدد الكلام فيه وهذه الوظيفة جزء عظيم من الملك بل هى ثلاثة اركانه لان الملك لا بد له من الجند والمال والمخاطبة لهن غاب عنه فاحتاج صاحب الملك الى الاعوان فى امر السيف وامر القلم وامر المال فينفرد صاحبها لذلك بجزء من رياسة الملك وكذلك كان الامر فى دولة بنى امية بالاندلس والطوائف بعدهم واما فى دولة الموحدين فكان صاحبها اما يكون من الموحدين مستقل بالنظر فى استخراج الاموال وجميعها وضبطها ونعقب نظر الولاة والعمال فيها ثم تنفيذها على قدرها وفى موافقتها وكان يعرف بصاحب الاشغال وكان ربما يليها فى الجهات غير الموحدين مهن يحسنها ولها استبد بنو ابي حفص بافريقية وكان شأن الجالية من الاندلس فقدم عليهم اهل البيوتات وفيهم من كان يستعمل فى ذلك بالاندلس مثل بنى سعيد اصحاب القلعة جوار غرناطة المعروفين ببني ابي الحسين فاستكفوا بهم فى ذلك وجعلوا النظر لهم فى الاشغال كما كان لهم بالاندلس وداولوا

فيها بينهم وبين الموحدين ثم استقل بها اهل الحساب والكتاب وخرجت عن الموحدين ثم لما استغلظ امر الحاجب ونفذ امره في كل شأن من شؤون الدولة تعطل هذا الرسم وصار صاحبه مرؤسا للحاجب واصبح من جملة الجبابة وذهبت تلك الرياسة التي كانت له في الدولة واما في دولة بنى مرين لهذا العهد فحسابان الخرج والعطاء مجموع لواحد وصاحب هذه الرتبة هو الذى يصحح الحسابات كلها ويرجع الى ديوانه ونظرة معقب بنظر السلطان او الوزير وخطه معتبر في صحة الحسابان في العطاء والخراج هذه اصول الرتب والخطط السلطانية وهى الرتب العالية التى هى عامة النظر ومباشرة للسلطان واما هذه الرتبة فى دولة الترك فمتنوعة وصاحب ديوان العطاء يعرف بناظر الجيش وصاحب المال مخصوص باسم الوزير وهو الناظر فى ديوان الجباية العامة للدولة وهو اعلى رتب الناظرين فى الاموال لان النظر فى الاموال عندهم يتنوع الى رتب كثيرة لانفساح دولتهم وعظيم سلطانهم واتساع الاموال والجبايات عن ان يستقل بصبطها الواحد من الرجال ولو بلغ فى الكفاية (1) مبالغة فتعين للنظر العام منها هذا المخصوص باسم الوزير وهو مع ذلك رديف لمولى من موالى السلطان واهل عصبيته

(1) Man A. الكتاب. B. الكتابة.

وارباب السيوف في الدولة يرجع نظر الوزير الى نظره ويجهده في متابعتها ويسمى عندهم استاذ الدار وهو احد الامراء الكابر في الدولة من الجند وارباب السيوف وتتبع هذه الخطة عندهم خطط اخرى كلها راجعة الى الاموال والحسبان مقصورة النظر على امور خاصة مثل ناظر الخاص وهو المباشر لاموال السلطان الخاص به من اقطاعه او سهمانه من اموال الخراج وبلاد الجباية مما ليس من اموال المسلمين العامة التي لنظره وهو تحت يد الامير استاذ الدار وان كان الوزير من الجند فلا يكون لاستاذ الدار نظر عليه وناظر الخاص ايضا تحت يد الخازن لاموال السلطان من ممالكه المسمى خازن دار لاختصاص وظيفته بمال السلطان الخاص به هذا مسمى هذه الخطة في دولة الترك بالمشرق بعد ما قدما من امرها بالمغرب والله مصرف الامور لا رب غيره

ديوان الرسايل والكتابة

هذه الوظيفة غير ضرورية في الملك بطبيعته لاستغناء كثير من الدول عنها رأسا كما في الدول العريقة في البدو التي لم يأخذها تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنائع وإنما أكد الحاجة إليها في الدولة الإسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد فصار الكتاب يودى كنه

الحاجة بابلغ من العبارة اللسانية في الأكثر وكان الكاتب للامير يكون من اهل نسبه ومن عظماء قبيله كما كان للخلفاء وامراء الصحابة بالشام والعراق لعظيم امانتهم وخلص اسرارهم فلما فسد اللسان وصار صناعة اختص بمن يحسنه وكانت عند بنى العباس ربيعة وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقة ويكتب في آخرها اسمه ويختتم عليها بخاتم السلطان وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان او شارته يغمس في طين احمر مذاق بالماء ويسمى طين الختم ويطبع به على طرفى السجل عند طيه والصاقه ثم صارت السجلات من بعدهم تصدر باسم السلطان ويضع الكاتب فيها علامته اولا واخرا على حسب الاختيار في محلها وفي لفظها ثم قد تنزل هذه الخطة بارتفاع المكان عند السلطان لغير صاحبها من اهل المراتب في الدولة او استبداد وزير عليه فتصير علامة هذا الكاتب ملغاة بالحكم بعلامة الرئيس عليه يستدل بها فيكتب صورة علامته المعهودة والحكم لعلامة ذلك الرئيس كما وقع في آخر الدولة الحفصية لما ارتفع شأن الحجابة وصار امرها الى التفويض ثم الاستبداد صار حكم العلامة التى للكاتب ملغى وصورتها ثابتة اتباعا لها سلفى من امرها فصار الحاجب يرسم للكاتب امضاء كتابته ذلك بخط يضعه ويختير له من صيغ الانفاذ ما شاء فياتهر الكاتب له ويضع

العلامة المعتادة وقد يختص السلطان بنفسه بوضع ذلك اذا كان مستبدا بامر قائما على نفسه فيرسم الامر للكاتب ليضع علامته (ومن خطط الكتابة التوقيع) وهو ان يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة اليه احكاما والفصل فيها متلقاة من السلطان باوجز لفظ وابلغه فاما ان يصدر كذلك واما ان يحذوا الكتاب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة ويحتاج الموقع الى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه (وقد) كان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين بدي الرشيد ويرمي القصة الى صاحبها فكانت توقيعاته بتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على اساليب البلاغة وفنونها حتى قيل انها كانت تباع كل قصة منها بدينار وهكذا كان شأن الدول واعلم ان صاحب هذه الخطة لا بد وان يتخير من ارفع طبقات الناس واهل الهروة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة فانه معرض للنظر في اصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاعد احكامهم من امثال ذلك مع ما تدعو اليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل ومع ما يضطر اليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة واسرارها وقد تكون الرتبة في بعض الدول مستندة الى ارباب السيوف

لما يقتضيه طبع الدولة من البعد عن معاناة العلوم لاجل
سذاجة العصبية فيختص السلطان اهل عصبية بخط دولته
وساير رتب فيقلد المال والسيوف والكتابة منهم فاما رتبة
السيوف فتستغنى عن معاناة العلم واما المال والكتابة فيضطر
الى ذلك للبلاغة في هذه والحسبان في الاخرى فيختارون
لها من هذه الطبقة لما دعت اليه الضرورة ويقلدونه لا ان
يكون يد احر من اهل العصبية عالية على يده ويكون نظره
منصرفا عن نظره كما هو في دولة الترك لهذا العهد بالمشرق
فان رياسة الكتابة عندهم وان كانت لصاحب الانشاء الا انه
تحت يد امير من اهل عصبية السلطان يعرف بالدويدار
تعويل السلطان ووثوقه به واستنامته في غالب احواله اليه
وتعويله على الاخر في احوال البلاغة وتطبيق المقاصد وغير
ذلك من توابعها (واما) الشروط المعتبرة في صاحب هذه
الرتبة التي يلاحظها السلطان في اختياره وانتقائه من اصناف
الناس فهي كثيرة واحسن من استوعبها عبد الحميد الكاتب
في رسالته الى الكتاب وهي هذه اما بعد حفظكم الله يا
اهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وارشدكم فان الله
عز وجل جعل الناس بعد الانبياء والمرسلين صلوات الله
عليهم اجمعين ومن بعد الملوك المكرمين اخيافا (1) وان كانوا

في الحقيقة سواء وصرفهم في صنوف الصناعات وضروب
المحاولات الى اسباب معاشهم وابواب ارزاقهم فجعلكم
معشر الكتاب في اشرف الجهات اهل الادب والمرؤة
والعلم والرواية بكم تستنظم للخلافة محاسنها وتستقيم امورها
وبنصايحكم يصالح الله للخلق سلطانهم ويعمر بلدانهم
لا يستغنى الملك عنكم ولا يوجد كافٍ الا منكم فموقعكم من
الملوك موقع اسماعهم التي بها يسمعون وابصارهم التي بها
يبصرون والسنتهم التي بها ينطقون وايديهم التي بها
يبتطشون فامتكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ولا تنزع
عنكم ما اصفاه من النعمة عليكم وليس احد من اهل الصناعات
كلها احوج الى اجتباع خلال الخير المحمودة وخصال الفضل
المذكورة المعدودة منكم ايها الكتاب اذا كنتم على ما ياني في
هذا الكتاب من صفتكم فان الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج
منه صاحبه الذي يثق به في مهمات اموره ان يكون حليما
في موضع الحلم فهما في موضع الحكم ومقداما في موضع
الاقدام ومحمجا في موضع الاحجام مؤثرا للعفاف والعدل والانصاف
كتوما للاسرار وفيما عند الشدايد عالما بما ياني من النوازل
يضع الامور مواضعها والطوارق اماكنها قد نظر في كل فن
من فنون العلم فاحكمه فان لم يحكمه اخذ منه بمقدار ما
يكتفي به يعرف بعزيمة عقله وحسن ادبه وفضل تجربته ما

يرد عليه قبل وروده وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدره فيعدّ لكل امر عدته وعناده وبهوى لكل وجه هيئته وعادته فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب وتفقّهوا في السدين وابدؤا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية فانها ثقف السنتكم ثم اجدوا الخط فانه حلية كتبكم وارووا الاشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وايام العرب والعجم واحاديثها وسيرها فان ذلك معين لكم على ما تسوموا اليه هممكم ولا تضيعوا النظر في الحساب فانه قوام كتاب الخراج وارغبوا بانفسكم عن المطالع سنيها وادنيها وسفساف الامور وسحاقرها فانها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب ونزّهوا صناعتمكم عن الدنائات واربؤا بانفسكم عن السعاية والتمهية (1) وما فيه اهل الجبهالات واياكم والكبر والسخف والعظومة فانها عداوة مجتلبة من غير احنة وتحابوا في الله عز وجل في صناعتمكم وتواصوا عليها بالذي هو اليق باهل الفضل والعدل والنبيل من سلفكم وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى ترجع اليه حاله وبثوب اليه امره وان اقعد احدكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه احوط

منه على ولده واخيه فان عرضت في الشغل محمّدة فلا يصفها
 الا الى صاحبه وان عرضت مذمة فيحملها هو من دونه
 ويحذر السقطلة والزلة والملل عند تغير الحال فان العيب
 اليكم معشر الكتاب اسرع منه الى القراء وهو لكم افسد منه
 لها فقد علمتم ان الرجل منكم اذا صحبه من يبذل له من
 نفسه ما يجب له عليه من حقّه فواجب عليه ان يعتقد له
 من وفائه وشكره واحتماله وصبره ونصيحته وكتمان سرّه
 وتدبير امره ما هو جزاء لحقّه ويقصد ذلك بفعاله عند
 الحاجة اليه ولا يضطرار الى ما لديه فاستشعروا ذلك
 وققم الله من انفسكم في حالة الرخاء والشدة والحرمان
 والمواساة والاحسان والسرّاء والضراء فنعمت الشيمة هذه لمن
 وسم بها من اهل هذه الصناعة الشريفة واذا ولى الرجل منكم
 او صير اليه من امر خلق الله وعياله امرا فليراقب ربه عز وجل
 وليؤثر طاعته وليكن على الضعيف رفيقا وللمظلوم منصفاً
 فان الخلق عيال الله واحبهم اليه ارفقهم بعياله ثم ليكن
 بالعدل حاكماً وللارشاف مكرماً وللنفى موفراً وللبلاد
 عامراً وللرعية مثالفاً وعن اذاهم متخلفاً وليكن في مجلسه
 متواضعاً حليماً وفي سجلات خراجده واستقصاء حقوقه رفيقاً
 واذا صحب احدكم رجلاً فليختبر خلائقه فاذا عرف
 حسنها وقبيحها اعانه على ما يوافق من الحسن واحتال

لصرفه عيّا يهواه من القبيح بالطف حيلة واجمل وسيلة
وقد علمتم ان سايس البهيمية اذا كان بصيرا بسياستها
التبس معرفة اخلاقها فان كانت رموحا لم يهجمها اذا ركبها
وان كانت شوبيا اتقاها من قبل يديها وان خاف منها
شرودا توقاها من ناحية راسها وان كانت حرونا قمع برفق
هواها في طرقها وان استمرت عطفها يسيرا فيسلس له قيادها
وفى هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس
وعاملهم وخدمهم وداخلهم والكاتب بفصل اذبه وشريف
صنعتة ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره من الناس وينظر
ويفهم عنه او يخاف سطوته اولى بالرفق لصاحبه ومداراته
وتقويم اوده من سايس البهيمية التى لا نحير جوابا ولا تعرف
صوابا ولا تفهم خطابا الا بقدر ما يصيرها اليه صاحبها الراكب
عليها فارفقوا رحمكم الله فى النظر واعملوا فيه ما امكنكم من
الروية والفكر تامنوا باذن الله ممن صحبتهوه النبوة ولاستشغال
والجفوة وبصير منكم الى الموافقة وتصيروا منه الى المواجهة
والشفقة ان شاء الله تعالى ولا يجاوزن الرجل منكم فى هنة
مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه (1) وخدمه وغير
ذلك من فنون امره قدر حقه فانكم مع ما فضلكم الله به
من شرف صنعتكم خدمة لا تحملون فى خدمتكم على التقصير

(1) Man. D. نيباه.

وحفظة لا تحتل منكم افعال التصييع والتبذير واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم واحذروا متالف السرف وسوء عاقبة الترف فانهما يعقبان الفقر ويذلان الرقاب ويفضحان اهلها ولا سيما الكتاب وارباب الآداب والامور اشباه وبعضها دليل على بعض فاستدلوا على موتنى اعمالكم بما سبقت اليه تجربتكم ثم اسلكوا من مسالك التدبير اوضحها منحة واصدقها حجة واحمدها عاقبة واعلموا ان للتبذير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل لصاحبه عن انفاذ علمه ورويته فليقصد الرجل منكم فى مجلسه قصد الكافى من منطقه وليوجز فى ابتدائه وجوابه ولياجز بمجامع حججه فان ذلك مصاحبة لفعله ومدفعة للتشاغل عن اكثاره وليضرع الى الله فى صلة توفيقه وامداده بتسديده مخافة وقوعه فى الغلط المضّر ببدنه وعقله وادبه فانه ان ظن منكم ظان او قال قائل ان الذى برز من جميل صنعته وقوة حركته انما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره فقد تعرض بظنه او مقالته الى ان يكله الله عز وجل الى نفسه فيصير منها الى غير كاف وذلك على من نامله غير خاف ولا يقل احد منكم انه ابصر بالامور واحمل لعب⁽¹⁾ التدبير من مرافقه فى صناعته ومصاحبه فى خدمته

(1) لعبت Man A. et B.

فان اعقل الرجلين عند ذوى الالباب من رعى بالعجب
وراء ظهره ورأى ان صاحبه اعقل منه واحمد فى طريقته
وعلى كل واحد من الفريقين ان يعرف فضل نعم الله جلّ
سناوه من غير اغترار برايه ولا تزكية لنفسه ولا تكائر على اخيه
او نظيره وصاحبه وعشيرته وحمد الله واجب على الجميع
وذلك بالتواضع لعظمته والتذلل لعزته والتحدث بنعمته وانا
اقول فى كتابى هذا ما سبق به المثل من تلزمه النصيحة
يلزمه العمل وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه بعد الذى فيه
من ذكر الله عزّ وجلّ فذلك جعلته آخره وتمته به تولانا
الله واياكم يا معشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق
علمه فى اسعاده وارشاده فان ذلك اليه ويده والسلام
عليكم ورحمة الله وبركاته (الشرطة) ويسمى صاحبها لهذا
العهد بافريقية الحاكم وفى دولة اهل الاندلس صاحب
الهدينة وفى دولة الترت الوالى وهى وظيفة مروسة لصاحب
السيوف فى الدولة وحكمه نافذ فى صاحبها بعض الاحيان
وكان اصل وضعها فى الدولة العباسية لمن يقيم احكام
الجرائم فى حال استبرائها اولائم الحدود بعد استيفائها فان
التهم التى تعرض فى الجرائم لانظر للشرع الا فى استيفاء
حدودها وللسياسة النظر فى استبراء موجباتها باقرار يكرهه
عليه الحاكم اذا اختفت به القرائن لما توجه المصلحة

العامة في ذلك فكان الذى يقوم بهذا الاستبراء وباستيفاء الحدود بعده اذا تنزه عنه القاضى يسمى صاحب الشرطة وربما جعلوا اليه النظر فى الدماء والحدود باطلاق وافردوها من نظر القاضى ونهوا بهذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليتهم ولم تكن عامة التنفيذ فى طبقات الناس انما كان حكمه فى الدهماء واهل الريب والضرب على يد الدعار والفجرة ثم عظمت نبايتها فى دولة بنى امية بالاندلس ونوعت الى شرطة كبرى وشرطة صغرى وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء وجعل له الحكم على ذوى المراتب السلطانية والضرب على ايديهم فى الظلمات وعلى ايدي اقاربهم ومن اليهم من اهل الجاه وجعل صاحب الصغرى مخصوصا بالعامة ونصب لصاحب الكبرى كرسي بباب دار السلطان ورجل يتبؤون المقاعد بين يديه فلا يبرحون عنها الا فى تصريفه وكانت ولايتها للاكابر من رجالات الدولة حتى كانت ترشيحا للوزارة والحجابة واما فى دولة الموحدين بالمغرب فكان لها حظ من التنويه وان لم يجعلوها عامة وكان لا يليها الا رجالات الموحدين وكبرائهم ولم يكن لهم التحكّم على اهل المراتب السلطانية ثم فسد اليوم منصبها وخرجت عن ولاية رجال الموحدين وصارت ولايتها لمن قام بها من المصطنعين واما فى

دولة بنى مرين لهذا العهد بالمغرب فوليتها فى بيوت من
مواليهم واهل اصطناعهم وفى دولة الترتك بالمشرق
فى رجالات الترتك واعقاب اهلا الدولة قبلهم من الكرد
يتخيرونهم لها فى القطرين بما يظهر منهم من الصلابة
والمضاء فى الاحكام لقطع مواد الفساد وحسم اسباب الدعارة
ونحريب مواطن الفسوق وتفريق مجامعه مع اقامة الحدود
الشرعية والسياسة كما تقتضيه رعاية الهصالح العامة فى
المدينة والله مقلب الليل والنهار لا اله الا هو

قيادة الاساطيل

وهى من مراتب الدولة وخططها فى ملك المغرب
وافريقية ومروسة لصاحب السيف وتحت حكمه فى كثير من
الاحوال ويسمى صاحبها فى عرفهم باسم الملند بتفخيم اللام
منقولا من لغة الافرنجة فاند اسمها فى اصطلاح لغتهم واتما
اختصت هذه الرتبة بملك افريقية والمغرب لانها جميعها
على ضفة البحر الرومى من جهة الجنوب وعلى عدوته
الجنوبية بلاد البربر كلهم من سبتة الى اسكندرية الى الشام
وعلى عدوته الشمالية بلاد الاندلس والافرنجة والصقالبة والروم
الى بلاد الشام ايضا ويسمى البحر الرومى والبحر الشامى
نسبة الى اهل عدوته والساكنون بسيف هذا البحر وسواحل

من عدوتيه يعانون من احواله ما لا تعانیه امة من اسم البحار
وقد كانت الروم والافرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من هذا
البحر الرومي وكانت اكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن
فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في اساطيله ولما اسف
من اسف منهم الى ملك العدوة الجنوبية مثل الروم الى
افريقية والقوط الى المغرب اجازوا في الاساطيل وملكوها
وتغلبوا على البربر بها وانتزعوا من ايديهم امرها وكان لهم
بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسيبطة وجلولا وممرناق
وشرshal وطنجة وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب
صاحب رومة ويبعث الاساطيل لحربه مشحونة بالعساكر
والعدد فكانت هذه عادة لاهل هذا البحر الساكنين حفايه
معروفة في القديم والحديث (ولما) ملك المسلمون
مصر كتب عمر ابن الخطاب الى عمرو بن العاص ان
صف لي البحر فكتب اليه ان البحر خلق عظيم يركبه
خلق ضعيف دود على عود فاوعز حينئذ يهتج المسلمين من
ركوبه ولم يركبه احد من العرب الا من افتات على عمر
في ركوبه ونال من عقابه كما فعل بعرفة بن هزيمة الازدي
سيد بحيلة لما اغراه عمان فبلغه فانكر عليه وعنفه انه ركب
البحر للغزو ولم يزل الشأن ذلك حتى اذا كان لعهد معاوية
اذن للمسلمين في ركوبه والجهاد على اعواده والسبب في

ذلك ان العرب لبدأوتهم لم يكونوا اول الامر مهرة فى ثقافته وركوبه والروم والفرنجة لمهارستهم احواله ومرباهم فى الثقلب على اعادة مرنوا عليه واحكموا الدربة بثقافته فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت امم العجم حولا لهم وتحت ايديهم وتقرب كل ذى صنعة اليهم ببلغ صناعته واستخدموا من النواتية فى حاجاتهم البحرية اما وتكررت (1) ممارستهم للبحر وثقافته استحدثوا بصرا بها فشرهوا الى الجهاد فيه وانشؤا السفن والشوانى وشحنوا الاساطيل بالرجال والسلاح وامطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من امم الكفر واختصوا بذلك من ممالكهم وغورهم ما كان اقرب الى هذا البحر وعلى ضفته مثل الشام وافريقية والمغرب ولاندلس واوعز الخليفة عبد الهلك الى حسان بن النعمان عامل افريقية باتخاذ دار صناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية حرصا على مراسم الجهاد ومنها كان فتح صقلية ايام زيادة الله الاول بن ابراهيم بن الاغلب على يد اسد بن الفرات شيخ الفتيا وفتح قوصرة ايضا فى ايامه بعد ان كان معاوية ابن خديج اغزى صقلية ابام معاوية بن ابى سفيان فلم يفتح الله على يده وفتحت على يد ابن الاغلب وفايده اسد بن الفرات وكانت من بعد ذلك

اساطيل افريقية ولاندلس فى دولة العبيديين والامويين تتعاقب الى بلادهما فى سبيل الفتنة فتجوس خلال السواحل بالافساد والتخريب وانتهى اسطول الاندلس الى ايام عبد الرحمن الناصر الى مايتى مركب او نحوها واسطول افريقية كذلك نحوه او قريبا منه (وكان) قائد الاساطيل بالاندلس ابن رماحس ومرفاها للحطّ والاقلاع بجاية والمريّة وكانت اساطيلها مجتمعة من سائر الممالك من كل بلد تتخذ فيه السفن اسطول يرجع نظره الى قائد من النواتية يدبّر امر حربه وسلاحه ومقاتلته ورأس يدبّر امر جريته بالريح او بالمجاذف وامر ارسايه فى مرفائه فاذا اجتمعت الاساطيل لغزو محتفل او غرض سلطاني مهم عسكرت بمرفاءها المعلوم وشحنها السلطان برجاله وانجاد عساكره ومواليه وجعلهم لنظر امير واحد من اعلا طبقات اهل مملكته يرجعون كلهم اليه ثم يسرحهم لوجهتهم وينتظر اياهم بالفتح والغنيمة وكان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن للامم النصرانية قبل باساطيلهم فى شئ من جوانبه وامتطوا ظهرة للفتح سائر ايامهم فكانت لهم المقامات المعلومّة من الفتح والغنائم وملكو سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنرقة ويابسة وسردانية وصقلية

وقوصرة ومالطة واقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والفرنج
 وكان ابو القاسم الشيعي وابناؤه يغزون اساطيلهم من المهديّة
 جزيرة جنوة فتنتقلب بالظفر والغنيمّة (واففتح) مجاهد العامري
 صاحب دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردانية في
 اساطيله سنة خمس واربعماية وارتجعها النصارى لوقتها
 والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على الاكثر
 من لجة هذا البحر وسارت اساطيلهم فيه
 جائية وذاهبة والعساكر الاسلاميّة تجيز البحر في الاساطيل
 من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدوّة الشماليّة
 فتوقع يهلوك الفرنج وتشنخ في ممالكهم كما وقع في
 ايام بنى ابي الحسين ملوك صقلية القائلين فيها بدعوا
 العبيديّين وانحازت امم النصرانية باساطيلهم الى الجانب
 الشمالى الشرقى منه من سواحل الافرنجة والصقالبة وجزائر
 الرومانية لا يعدونها واساطيل المسلمين قد ضربت عليهم
 ضراء الاسد بفريسته وقد ملأت الاكثر من بسيط هذا البحر
 عدّة وعديدا واختلفت في طرقه سلما وحربا فلم تسبح للنصرانية
 فيه الواح حتى اذا ادركت الدولة العبيديّة والاموية الفشل
 والوهن وطرقها الاعتلال مدّ النصارى ايديهم الى جزائر البحر
 الشرقية مثل صقلية واقريطش ومالطة فملكوها ثم الحوا على
 سواحل الشام في تلك الفترة وملكوا طرابلس وعسقلار

PROLÉGOMÈNES
d'Ébn-Khaldoun.

وصور وعكا واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام وغلبوا على بيت المقدس ونوا عليها كنيسة لظهر دينهم وعبادتهم وغلبوا بنى خزرون على طرابلس ثم على قابس وصفاقس ووضعوا عليهم الجزى ثم ملكوا المهدية مقر ملك العبيديين من يد اعقاب بلكين بن زيرى وكانت لهم فى الماية الخامسة الكرّة بهذا البحر وضعف شأن الاساطيل فى دولة مصر والشام الى ان انقطع ولم يغنوا بشئ من امره لهذا العهد بعد ان كان لهم به فى الدولة العبيدية عناية تجاوزت الحد كما هو معروف فى اخبارهم فبطل رسم هذه الوظيفة هنالك وبقيت بافريقية والمغرب فصارت مختصة بها وكان الجانب الغربى من هذا البحر لذلك العهد موفور الاساطيل ثابت القوة لم يتحيفه عدو ولا كانت لهم به كرّة فكان قايد الاسطول لعهد لمتونة بنو ميمون روساء جزيرة قادس ومن ايديهم اخذها عبد الهومن بتسليمهم وطاعتهم وانتهى عدد اساطيلهم الى الماية من بلاد العدوتين جميعا ولما استفحلت دولة الموحدين فى الماية السادسة وملكوا العدوتين اقاموا خطة هذا الاسطول على اتم ما عرف واعظم ما عهد وكان قايد اساطيلهم احمد الصقلى اصله من صديغان الموطنين (1) بجزيرة جربة من سدوبكش (2) اسره النصارى من

(1) Man. D. الموطنين.

(2) Man. C. سدوبكش. D. سدوبكش.

سواحلها وربي عندهم واستخلصه صاحب صقلية واستكفاه
ثم هلك وولى ابنه فاسخطه ببعض النزعات وخشى على
نفسه فالحق بتونس ونزل على السيد بها من بنى عبد
المومن واجاز الى مراكش فلقاه الخليفة يوسف القسرى بن
عبد المومن بالهجرة والكرامة واجزل له الصلة وقلده امراسا طيله
فجلى فى جهاد امم النصرانية وكانت له آثار ومقامات
مذكورة فى دولة الموحدين وانتهت اساطيل المسلمين على
عهده فى الكثرة والاستجادة ما لم تبلغه من قبل ولا من بعد
فيما عهدناه (ولما) قام صلاح الدين يوسف بن ايوب ملك
مصر والشام لعهدده باسترجاع ثغور الشام من يد الامم النصرانية
وتطهير بيت المقدس من رجس الكفر وبنائه تتابعست
اساطيلهم الكفرية بالمدد لتلك الثغور من كل ناحية قرية
لبيت المقدس الذى كانوا قد استولوا عليه فامدوهم بالعدد
والاقوات ولم تقاومهم اساطيل الاسكندرية لاستمرار الغلب لهم
فى ذلك الجانب الشرقى من البحر وتعدد اساطيلهم
فيه وضعف المسلمين منذ زمان طويل عن ممانعتهم هنالك
كما اشرنا اليه قبل فاوفد صلاح الدين على يعقوب المنصور
سلطان المغرب لعهدده من الموحدين رسوله عبد الكريم بن
منقذ من بيت بنى منقذ ملوك شيزر وكان ملكها من
ايديهم وابقى عليهم فى دولته فبعث عبد الكريم هذا منهم

الى ملك المغرب طالبا مدد الاساطيل لتحول فى البحر بين اساطيل الكفرة وبين مرادهم من امداد النصرانية بثغور الشام واصحبه كتابه اليه فى ذلك من انشاء الفاضل البيسانى يقول فى افتتاحه فتح الله لحضرة سيدنا ابواب المناجح والميامن حسبما نقله العماد الاصبهانى فى كتاب الفتح القدسى فنقم عليهم المنصور تجافيهن عن خطابه بامير المومنين واسرها فى نفسه وحملهم على مناهج البرّ والكرامة وردّهم الى مرسلهم ولم يجبه الى حاجته من ذلك وفى هذا اختصاص ملك المغرب بالاساطيل وما حصل للنصرانية فى الجانب الشرقى من هذا البحر من الاستطالة وعدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد وما بعده بشأن الاساطيل البحرية والاستعداد منها للدول ولما هلك يعقوب المنصور واعتلت دولة الموحدين واستولت امم الجلائقة على الاكثر من بلاد الاندلس والجو المسلمين الى سيف البحر وملكوا الجزائر التى بالجانب الغربى من البحر الرومى فويت ويحكم فى بسيط هذا البحر واشتدت شوكتهم وكثرت فيه اساطيلهم وتراجعت قوة المسلمين فيه الى المساواة معهم كما وقع لعهد السلطان ابنى الحسن ملك زناتة بالمغرب فان اساطيله كانت عند مرآه الجهاد فى مثل عدّة النصرانية وعديدهم ثم تراجعت عن ذلك قوة

المسلمين في الاساطيل لضعف الدول ونسيان عوائد البحر
بكثرة العوايد البدوئة بالمغرب وانقطاع العوائد الاندلسية ورجع
النصارى فيه الى دينهم المعروف من الدربة فيه والهمران
عليه والبصر باحواله وغلب الاسم في لجه وعلى اعواده وصار
المسلمون فيه كالاجانب الا قليلا من اهل البلاد الساحلية
لهم الممان عليه لو وجدوا كثرة من الانصار والاعوان او قوة
من الدول تستجيش لهم اعوانا وتوضح لهم في هذا الغرض
مسلكا وبقيت الرتبة لهذا العهد في الدول المغربية محفوظة
والرسم في معانة الاساطيل بالانشاء والركوب معهودا لما
عساه تدعو اليه الحاجة من الاغراض السلطانية في البلاد
البحرية والمسلمون يستهينون الريج على الكفر واهله فمن
المشتهر بين اهل المغرب عن كتب الحدثنان انه لا بد
للمسلمين من الكثرة على النصرانية وافتتاح ما وراء البحر
من بلاد الافرنجة وان ذلك يكون في الاساطيل والله ولي
المؤمنين

فصل في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول

اعلم ان السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين
بها على امره الا ان الحاجة الى السيف في اول الدولة ما

دام اهلها في تمهيد امرهم اشد من الحاجة الى القلم اذ القلم في تلك الحال خادم فقط منفذ للحكم السلطاني والسيوف شريك في المعونة وكذلك في آخر الدولة حيث تضعف عصبيتها كما ذكرناه ويقل اهلها بها ينالهم من الهم الذي قدمناه فحتاج الدولة الى الاستظهار بارباب السيوف ويقوى الحاجة اليهم في حماية الدولة والمدافعة عنها كما كان الشأن اول الامر في تمهيدها فتكون للسيوف مزية في الحاليتين على القلم ويكون ارباب السيوف حينئذ اوسع جاها واكثر نعمة واسنى اقتطاعا واما في وسط الدولة فيستغنى صاحبها بعض الشيء عن السيوف لانه قد تمهد امره ولم يبق هم الا في تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط ومباهاة الدول وتنفيذ الاحكام والقلم هو الهين له في ذلك فتعظم الحاجة الى تصريحه وتكون السيوف مهمة في مضاجع غيودها الا اذا نابت نائبة او دعييت الى سد فرجة وما سوى ذلك فلا حاجة اليها فيكون ارباب الاقلام في هذه الحالة اوسع جاها واعلى رتبة واعظم نعمة وثروة واقرب من السلطان مجلسا واكثر اليه ترددا وفي خلواته نجيا لانه حينئذ آلة التي بها يستظهر على تحصيل ثمرات ملكه والنظر في اعطافه وتنقيف اطرافه والهباهة باحواله ويكون الوزراء حينئذ واهل السيوف مستغنى عنهم مبعدين عن ناظر السلطان

حذرين على انفسهم من بؤادره وفي معنى ذلك ما كتب
به ابو مسلم للمنصور حين امره بالقدوم اما بعد فانه مما
حفظناه من وصايا الفرس اخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت
الدهماء سئة الله في عباده

فصل في شارات الهلك والسلطان الخاصة به

اعلم ان للسلطان شارات واحوالا تقتضيها الآبهة والبذخ
فينتخص بها ويتييز بانتحالها عن الرعية والبطانة وسائر
الروساء في دولة فنذكر ما هو مشتهر منها بمبلغ المعرفة
وفوق كل ذي علم عليم (آلة) فمن شارات الهلك اتخاذ
آلة من نشر الآلوية والرايات وقرع الطبول والنشج في الابواق
والقرون وقد ذكرنا ارسطو في الكتاب المنسوب اليه في
السياسة ان السر في ذلك ارهاب العدو في الحرب فان
الاصوات الهائلة لها تأثير في النفوس بالروعة ولعمري انه امر
وجداني في مواطن الحروب يجده كل احد من نفسه
وهذا السبب الذي ذكره ارسطو ان كان ذكره فهو صحيح
ببعض الاعتبارات واما الحق في ذلك فهو ان النفس عند
سماع النغم او الاصوات يدركها الفرج والطرب بلا شك
فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب ويستमित
في ذلك الوجه الذي هو فيه وهذا موجود حتى في

PROLÉGOMÈNES
d'Ebn Khaldoun.

الحيوانات العجم فانفعال الابل بالحداء والخيل بالصفير والصريخ كما علمت ويزيد ذلك تأكيداً اذا كانت الاصوات متناسبة كما فى الغناء وانت تعلم ما يحدث لسامعه من مثل هذا المعنى ولاجل ذلك يتخذ العجم فى مواطن حروبهم الآلات الموسيقارية لا طبلًا ولا بوقًا فيحرق الهغتون بالسلطان فى موكبه بالأنهم ويغنون فيحركون نفوس الشجعان بطربهم الى الاستماتة ولقد رأينا فى حروب العرب المنشد يتغنى امام الموكب بالشعر ويطرب فتجيش همم الابطال بما فيها ويسارعون الى محال الحروب وينبعث كل قرن الى قرنه وكذلك زنانه من اسم المغرب يتقدم الشاعر عندهم امام الصفوف ويتغنى فيحرك بغنائه الجبال الرواسى وينبعث على الاستماتة من لا يظن بها ويسمون ذلك الغناء تازصواكايت (1) واصله كده فرح يحدث فى النفس فتنبعث عند الشجاعة كما تنبعث عن نشوة الخمر بما حدث عنها من الفرح والله اعلم (واما تكثير الرايات) وتلوينها واطالتها فالقصد به التسهيل لا اكثر وربما يحدث فى النفوس من التسهيل زيادة فى الاقدام واحوال النفوس وتلوناتها غريبة والله الخلاق العليم (ثم) ان الهلوك والدول يختلفون فى اتخاذ هذه الشارات فمن اكثر ومقلل بحسب اتساع الدولة

(1) Man. C فارصواكايت

وعظمها (فاما) الرايات فانها شعار الحروب مذ عهد الخليفة
ولم تنزل الاسم تعقدها في مواطن الحروب والغزوات ولعهد
النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الخلفاء (واما قرع
الطبول) والنفخ في الابواق فكان المسلمون لاول الملة
متجايفين عنه تنزهوا عن غلظة الهلك ورفضوا لاحواله واحتقاروا
لابهته التي ليست من الحق في شئ حتى اذا انقلبت
الخلافة ملكا وتبحجوا زهرة الدنيا ونعيمها ولايسهم الموالي
من الفرس والروم اهل الدول السالفة واروهم ما كان اولئك
ينتحلونه من مذاهب البذخ والترف فكان مما استحسنوه
اتخاذ الآلة فاتخذوها واذنوا لعمالهم في اتخاذها تنويها
بالملك واهله فكثيرا ما كان العامل صاحب الثغراو قائد
الجيش يعقد له الخليفة من العباسيين او العبيديين لواء
ويخرج الى بعته او عمله من دار الخليفة او داره في موكب
من اصحاب الرايات والآلة فلا تميز بين موكب العامل
والخليفة الا بكثرة الالوية او قلتها او بما اختص به الخليفة
من الالوان لرايته كالسواد في رايات بنى العباس فان
راياتهم كانت سودا حزنا على شهدائهم من بنى هاشم ونعيا
على بنى امية في قتلهم ولذلك سموا المسودة (ولما)
افترق امر الهاشميين وخرج الطالبيون على العباسيين في
كل جهة وعصر ذهبوا الى مخالفتهم في ذلك فاتخذوا

الرايات بيضا وسموا المبيضة لذلك سائر ايام العبيديين ومن خرج من الطالبين في ذلك العهد بالمشرق كالداغى بطبرستان وداعى صعدة او من دعى الى بدعة الرافضة من غيرهم كالقرامطة (ولها) نزع المامون عن لبس السواد وشعاره في دولته عدل الى لون الخضرة فجعل راياته خضرا واما الاستكثار منها فلا ينتهى الى حد وقد كانت آلة العبيديين لما خرج العزيز نزار الى فتح الشام خمسمائة من البنود وخمسمائة من الابواق (واما) ملوك البربر بالمغرب من صنهاجة وغيرهم فلم يختصوا بلون واحد بل وشعوا بالذهب واتخذوها من الحرير الخالص ملونة واستيروا على الاذن فيها لعمالهم حتى اذا جاءت دولة الموحدين ومن بعدهم من زناتة فقصروا الآلة من الطبول والبنود على السلطان وحظروها على من سواه من عماله وجعلوها موكبا خاصا يتبع ائمة السلطان في مسيره يسمى الساقة وهم فيه بين مكثر ومقلل باختلاف مذاهب الدول في ذلك فمنهم من يقتصر على سبع من العدد تبركا بالسبعة كما هو في دولة الموحدين وبني الاحمر بالاندلس ومنهم من يبلغ العشرة والعشرين كما هو عند زناتة وقد بلغت ايام السلطان ابي الحسن فيما ادركناه مائة من الطبول ومائة من البنود ملونة بالحرير منسوجة بالذهب ما بين كبير وصغير وياذنون للولاة والعمال

والقوَاد في اتّخاذ راية واحدة صغيرة من الكتان بيضاء وطبل صغير ايام الحرب لا يتجاوزون ذلك (واما) دولة التُرك لهذا العهد بالمشرق فيتخذون اولا راية واحدة عظيمة وفي راسها خصلة كبيرة من الشعر ويسمونها الجاليس (١) والجتر ومع العسكر على عيونه ثم على راس السلطان راية اخرى تسمى العصاة والشطفة وهي شعار السلطان عندهم ثم تتعدّد الرايات ويسونها السناحق واحدا سنحجق وهو الراية بلسانهم واما الطبول فيبالغون في الاستكثار منها ويسونها الكوسات ويسبحون لكل امير او قائد عسكر ان يتخذ من ذلك ما شاء الا العصاة فانه خاص بالسلطان (واما) الجلالقة لهذا العهد من امم الافرنجة بالاندلس فاكثر شأنهم اتّخاذ الالوية القليلة ذاهبة في الجوّ صُعدا ومعها قرع الاوتار من الطنابير ونفخ الغيطات يذهبون فيها مذهب الغناء وطريقه في مواطن حروبهم هكذا بلغنا عنهم وعن ورائهم من ملوك العجم وفي خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ايات للعالمين (السرين) واما السرير والمنبر والتخت والكرسى وهو اعواد منصوبة او ارائك منصدة لجلوس السلطان عليها مرتفعا عن اهل مجلسه ان يساويهم في الصعيد (٢) ولم يزل ذلك من سنن الهلك قبل الاسلام وفي دول العجم

(١) Man. C. et D. الشالش. Man. B. الجاليس (٢) Man. A. et B. الصعد.

وقد كانوا يجلسون على اسرة الذهب (وكان) لسليمان بن داود صلوات الله وسلامه عليه سرير من عاج مغشى بالذهب الا انه لا تاخذ به الدول الا بعد الاستفحال والترف شأن الابهة كلها كما قلناه واما في اول الدولة عند البداوة فلا يتشفون اليه (واول) من اتخذه في الاسلام معاوية واستاذن الناس فيه وقال لهم انى قد بدنت فاذنوا له فاتخذه واتبعه الملوك الاسلاميون فيه وصار من منازع الابهة ولقد كان عمرو بن العاص بمصر يجلس في قصره على الارض مع العرب ويأتيه الموقس الى قصره ومعه سرير من الذهب محمول على الايدي لجلوسه شأن الملوك فيجلس عليه وهم امامه ولا يغيرون عليه وفاء له بها اعتقد معهم من الذمة واطراحا لابهة الملك (ثم) كان بعد ذلك لبنى العباس والعبديين وسائر ملوك الاسلام شرقا وغربا من الاسرة والمنابر والتخوت ما عفا عن الاكاسرة والقياصرة والله مقلب الليل والنهار (السكة) وهى الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد تنقش فيه صور او كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدنانير او الدراهم فيخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة بعد ان يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس فى خلوصه بالسبك مرة بعد اخرى وبعد تقدير اشخاص الدنانير والدراهم بوزن معين

يصطاح عليه فيكون التعامل بها عددا وان تقدر اشخاصها يكون التعامل بها وزنا ولفظ السّكة كان اسما للطابع وهى الحديدية المتخذة لذلك ثم نقل الى اثرها وهى النقوش المائلة على الدنانير والدرهم ثم نقل الى القيام على ذلك والنظر فى استيفاء حاجاته وشروطه وهى الوظيفة فصارعلما عليها فى عرف الدول وهى وظيفة ضرورية للملك اذ بها يتميز الخالص من البهرج بين الناس فى النقود عند المعاملات ويثقون فى سلامتها من الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة (وكان) ملوك العجم يتخذونها وينقشون فيها تماثيل تكون مخصوصة بها مثل تمثال السلطان لعهدا او تمثال حصن او حيوان او مصنوع او غير ذلك ولم يزل هذا الشأن عند العجم الى آخر امرهم (ولها جاء الاسلام اغفل ذلك لسذاجة الدين وبدادة العرب وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزنا وكانت دنانير الفرس ودراهمهم بين ايديهم يردونها فى معاملتهم الى الوزن ويتصارفون بها بينهم الى ان تفاحش الغش فى الدنانير والدرهم لغفلة الدولة عن ذلك وامر عبد الملك الحجاج على ما نقل سعيد بن المسيّب وابو الزناد ف ضرب الدراهم وميز المغشوش من الخالص وذلك سنة اربع وسبعين وقال المدائنى سنة خمس وسبعين ثم امر بضربها فى سائر

النواحي سنة ست وسبعين وكتب عليها الله احد الله الصمد
(ثم) ولى ابن هبيرة العراق ايام يزيد بن عبد الملك
فجود السكة ثم بالغ خالد القسرى فى نجويدها ثم يوسف
بن عمر بعده وقيل اول من ضرب الدنانير والدرهم مصعب
بن الزبير فى العراق سنة سبعين باسم اخيه عبد الله لما
ولى بالحجاز وكتب عليها فى احد الوجهين بركة وفى
الاخر اسم الله ثم غيرها الحجاج بعد ذلك بسنة وكتب عليها
باسم الله الحجاج وقدرها وزنها على ما كانت استقرت ايام
عمر وذلك ان الدرهم كان وزنه فى اول الاسلام ستة دوانيق
والمثقال وزنه درهم وثلاثة اسباع الدرهم فيكون عشرة دراهم
بسبعة مثاقيل وكان السبب فى ذلك ان اوزان الدراهم
ايام الفرس كانت مختلفة وكان منها على وزن الميثقال
عشرون قيراطا ومنها اثنا عشر ومنها عشرة فلما احتيج الى
تقديره فى الزكاة اخذ الوسط من الثلاثة وذلك اربعة
عشر قيراطا فكان الميثقال درهما وثلاثة اسباع درهم وقيل ان
الدراهم كان منها البغلى بثمانية دوانق والطبرى اربعة دوانق
والمغربى ثلاثة دوانق واليمنى دائق فامر عمر رضى الله عنه
ان ينظر الاغلب فى التعامل فكان البغلى والطبرى وهما
اثنا عشر دائقا فكان الدرهم ستة دوانق وان زدت ثلاثة
اسباعه كان مثقالا واذا نقصت ثلاثة اعشار الميثقال كان درهما

فلما رأى عبد الملك اتخاذ السكة لصيانة النقدين
 الجاريين في معاملة المسلمين عن الغش فعين مقدارها
 على هذا الذى استقر لعهد عمر رضى الله عنه واتخذ طابع
 الحديد ونقش فيه كلمات لا صوراً لأن العرب كان الكلام
 والبلاغة اقرب مناحيهم واطهرها مع أن الشرع ينهى عن
 الصور فلما فعل ذلك استمر بين الناس الى أيام الملة كلها
 وكان الدينار والدرهم على شكلين مدورين والكتابة عليهما في
 دوائر متوازية يكتب فيها من احد الوجهين اسماء الله تهللاً
 وتحميداً وصلاة على النبي وآله صلى الله عليه وسلم وفى
 الوجه الثانى التاريخ واسم الخليفة هكذا أيام العباسيين
 والعبيديين والامويين واما صنهاجة فلم يتخذوا سكة
 الا آخر الامر اتخذها المنصور صاحب بجاية ذكر ذلك ابن
 حماد فى تاريخه ولما جاءت دولة الموحدين كان مما سن
 لهم المهدى اتخاذ سكة الدراهم مربع الشكل وان يرسم
 فى دائرة الدينار شكل مربع فى وسطه ويملاء من احد
 الجانبين نهليلاً وتحميداً ومن الجانب الاخر كتباً فى
 السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده ففعل ذلك الموحدون
 وكانت سكتهم على هذا الشكل لهذا العهد وقد كان المهدى
 فيما نقل ينعت قبل ظهوره بصاحب الدرهم المرتفع نعته
 بذلك المتكلمون بالحدثان من قبله المخبرون فى ملاحظهم

عن دولته (واما) اهل المشرق لهذا العهد فسكتهم غير مقدرة
وانما يتعاملون بالدنانير والدرهم وزنا بالصنجات المقدرة بعدة
منها ويطبعون عليها بالسكة نقوش الكلمات بالتهليل والصلاة
واسم السلطان كما يفعله اهل المغرب ذلك تقدير العزيز
العليم (تنبيه) ولنختم الكلام في السكة بذكر حقيقة الدرهم
والدينار الشرعيين وبيان مقدارهما وذلك ان الدرهم والدينار
مختلفا السكة في المقادير والوزن بالآفاق والامصار وسائر
الاعمال والشرع قد تعرض لذكرهما وعلق كثيرا من الاحكام
بهما في الزكاة والانكحة والحدود وغيرها فلا بد لها عنده
من حقيقة ومقدار يتعين في تقديره وارادته ونجى عليهما
احكام دون غير الشرعى منهما فاعلم ان الاجماع منعقد
منذ صدر الاسلام وعهد الصحابة والتابعين ان الدرهم الشرعى
هو الذى يزن العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب والاقوية
منه اربعين درهما وهو على هذا سبعة اعشار الدينار ووزن
المثقال من الذهب الخالص ثنتان وسبعون حبة من الشعير
الوسط فالدرهم الذى هو سبعة اعشار خمسون حبة وخمسا
حبة وهذه المقادير كلها ثابتة بالاجماع فان الدرهم الجاهلى
كان بينهم على انواع اجودها الطبرى وهو ثمانية دنانق
والبغلى وهو اربعة دنانق فجعلوا الشرعى بينهما ستة دنانق
وكانوا بها يوجبون الزكاة فى مائة درهم بغلية ومائة طبرية

خمسة دراهم وسطا وقد اختلف الناس هل كان ذلك من وضع عبد الملك واجماع الناس بعده عليه كما نقلناه ذكر ذلك الخطابي في كتاب معالم السنن والماوردي في كتاب الاحكام السلطانية وانكره المحققون من المتأخرين لما يلزم منه ان يكون الدرهم والدينار الشرعيان مجهولين في عصر الصحابة ومن بعدهم مع تعلق الحقوق الشرعية بهما في الزكاة والانكحة والحدود وغيرها كما ذكرناه والحق انهما كانا معلومى المقدار في ذلك العصر يجريان الاحكام يومئذ بها بتعلق بهما من الحقوق وكان مقدارهما غير مشخص في الخارج وان كان متعارفا بينهم بالحكم الشرعى المتقرر في مقدارهما ووزنهما حتى استفحلت الدولة الاسلامية وعظمت احوالها ودعى الحال الى تشخيصهما فى المقدار والوزن كما هو عند الشرع ليستريحوا من كلفة التقدين وقارن ذلك ايام عبد الملك فشرح مقدارهما وعينهما فى الخارج كما هو فى الذهن ونقش عليها السكة باسمه وتاريخه اثر الشهادتين الايمانيتين وطرح النقود الجاهلية رأسا حتى خلصت ونقشت عليها سكتته وتلاشى وجودها وهذا هو الحق الذى لا محيد عنه ثم بعد ذلك وقع اختيار اهل السكة فى الدولة على مخالفة المقدار الشرعى فى الدينار والدرهم واختلفت فى ذلك الاقطار والآفاق ورجع الناس الى تصور مقاديرهما

الشرعية ذهنا كما كان في الصدر الاول وصار اهل كل افق يستخرجون الحقوق الشرعية من سكتهم بعرفة النسبة التي بينها وبين مقاديرها الشرعية (واما وزن الدينار بشتين وسبعين حبة من الشعير الوسط فهو الذي نقله المحققون وعليه الاجماع الا ابن حزم خالف ذلك وزعم انه اربعة وثمانون حبة نقل ذلك عنه القاضي عبد الحق ورده المحققون وعدوه وهما او غلط وهو الصحيح والله يحق الحق بكلمانه وكذلك تعلم ان الاوقية الشرعية ليست هي المتعارفة بين الناس لان المتعارفة مختلفة باختلاف الاقطار والشرعية متحدة ذهنا لا خلاف فيها والله خلق كل شئ فقدره تقديرا (الخاتم) واما الخاتم فهو من الخطط السلطانية والوظائف الملوكية والختم على الرسائل والصكوك معروف للملوك قبل الاسلام وبعده وقد ثبت في الصحيحين ان النبي صلى الله عليه وسلم اراد ان يكتب الى قيصر ف قيل له ان العجم لا يقبلون كتابا الا ان يكون مختوما فاتخذ خاتما من فضة ونقش فيه محمد رسول الله قال البخاري جعل الثلاث كلمات في ثلاثة اسطر وختم به وقال لا ينقش احد مثله وقال وتختم به ابو بكر وعمر وعثمان ثم سقط من يد عثمان في بئر اريس وكانت كثيرة الماء فلم يدرك قعرها بعد واغتم لذلك عثمان وتطير منه وضع

أخر على مثاله وفي كيفية نقش ذلك الخاتم والختم به وجوه وذلك أن الخانم يطلق على الآلة التي تجعل في الأصبع ومنه تختم إذا لبسه ويطلق على النهاية والتمام ومنه ختمت الأمر بلغت آخره وختمت القرآن كذلك ومنه خاتم النبيين وخاتمة الأمر ويطلق على السداد الذي تسد به الأواني والدنان ويقال فيه ختام ومنه قوله تعالى ختامه مسك وقد غلط من فسر هذا بالنهاية والتمام قال لأن آخر ما يجدونه في شرابهم ريح المسك وليس المعنى عليه وإنما هو من الختام الذي هو السداد لأن الخمر يجعل لها في الدن سداد الطين أو القار يحفظها ويطيب عرفها وذوقها فبولغ في وصف خمر الجثة بأن سدادها من المسك وهو أطيب عرفا وذوقا من الطين والقار المعهودين في الدنيا فاذا صح إطلاق الخاتم على هذه كلها صح إطلاقه على أثرها الناشئ عنها وذلك أن الخانم إذا نقشت فيه كلمات أو أشكال ثم غمس في مذاق من طين أو مداد ووضع على صفح القرطاس بقي أثر الكلمات في ذلك الصفح وكذلك إذا طبع به على جسم لئين كالشع فإنه يبقى نقش ذلك الهيكل مرتسبا فيه وإذا كانت كلمات وارتسمت فقد نقرا من الجهة اليسرى أن كان النقش على الاستقامة من اليمنى وقد تقرا من الجهة اليمنى أن كان النقش من

الجهة اليسرى لان الختم بقلب جهة الخط في الصفح عما كان في النقش من يمين او يسار فيحتمل ان يكون الختم بهذا الخاتم بغمسه في المداد والطين ووضعه على الصفح فتنتقش الكلمات فيه ويكون هذا في معنى النهاية والتمام بمعنى صحة ذلك المكتوب ونفوذه كان الكتاب انما يتم العمل به بهذه العلامة وهو من دونها ملغى ليس بتام وقد يكون هذا الختم بالخط آخر الكتاب او اوله بكلمات منتظمة من تحميد او تسبيح باسم السلطان او الامير او صاحب الكتاب من كان او شئ من نعوته يكون ذلك الخط علامة على صحة الكتاب ونفوذه ويسمى ذلك في المتعارف علامة ويسمى خانما تشبيها له بائر الخاتم الاصبعي في النقش ومن هذا خاتم القاضي الذي يبعث به للخصوم اى علامته وخطه التي ينفذ بها احكامه ومنه خاتم السلطان او الخليفة اى علامته قال الرشيد ليحيى بن خالد لما اراد ان يستوزر جعفر او يستبدل به من الفضل اخيه فقال لابيها يحيى يا ابت اتى اردت ان احوّل الخاتم من يمينى الى شالى فكنى له بالخاتم عن الوزارة لما كانت العلامة على الرسائل والصكوك من وظائف الوزارة لعهدهم وبشهد بصحة هذا الاطلاق ما نقله الطبرى ان معاوية ارسل الى الحسن عند مراوضته اياه فى الصالح

صحيفة بيضاء ختم على اسفلها وكتب اليه ان اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت اسفلها ما شئت فهو لك ومعنى الختم هنا علامة في آخر الصحيفة بخط او غيره ويحتمل ان يختم به في جسم لئين فتنتقش فيه حروفه ويجعل على موضع الخزم من الكتاب اذا خزم وعلى المودعات وهو من السداد كما مروى في الوجهين آثار للخاتم فيطلق عليه خاتم واول من احدث الختم على الكتب اى العلامة معاوية لانه امر لعمر بن الزبير عند زياد في الكوفة بياية الش ففتح الكتاب وصيرت الماية مائتين ورفع زياد حسابه فانكرها معاوية وطلب بها عمرا وحبسها حتى قضاه عنده اخوه عبد الله واتخذ معاوية عند ذلك ديوان الخاتم ذكره الطبرى وقال اخره وخزم الكتب ولم تكن تخزم اى جعل لها السداد وديوان الخاتم عبارة عن الكتاب القائمين على انفاذ كتب السلطان والختم عليها اما بالعلامة او بالخزم وقد يطلق الديوان على مكان جلوس هؤلاء الكتاب كما ذكرناه في ديوان الاعمال والخزم للكتب يكون اما بدسر الورق كما في عرف كتاب المغرب واما بلصق رأس الصحيفة على ما تنطوى عليه من الكتاب كما في عرف اهل المشرق وقد يجعل مكان الدسر او اللصاق علامة يؤمن معها من فتحه والاطلاع على ما فيه

فاهل المغرب يجعلون على الدسر قطعة من الشمع يختتمون عليها بخاتم نقش فيه علامة لذلك فيرتسم النقش في الشمع وكان في المشرق في الدولة القديمة يختتم على مكان اللصق بخاتم منقوش ايضا قد غمس في مذاق من الطين معد لذلك صبغه احمر فيرتسم ذلك النقش عليه وكان هذا الطين معروفا في الدولة العباسية بطين الختم وكان بجلب من سيراى فيظهر انه مخصوص بها فهذا الخاتم الذى هو العلامة المكتوبة او النقش للسداد او الخزم على الكتب خاص بديوان الرسائل وكان ذلك للوزير فى الدولة العباسية ثم اختلف العرف وصار لمن اليه الترسل وديوان الكتاب فى الدول ثم صاروا فى دول المغرب يعدون من علامات الملك وشارانه الخاتم للاصبع فيستجيدون صوغه من الذهب ويرصعونه بالفصوص من الياقوت والفيروزج والزرد ويلبسه السلطان شارة فى عرفهم كما كانت البردة والقضيب فى الدولة العباسية والهظة فى الدولة العبيدية والله مصترف الامور بحكمته (الطراز) ومن اتبهه الملك والسلطان ومذاهب الدول ان ترسم اسماءهم او علامات تحتس بهم فى طرز انوابهم المعدة للباسهم من الحرير او الديباج او الابرسم يعتبر كتابة خطها فى نسج الثوب الحاما وسدوا بخيط الذهب او يخالف لون الثوب من

الخيوط الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصنّاع في تقدير ذلك ووضعه في صناعة نسجهم فتصير الثياب الملوكية معلّمة بذلك الطراز قصدا للتشويه بلا بسبها من السلطان فمن دونه او التشويه بمن يختصه السلطان بملبوسه اذا قصد تشريفه بذلك او ولائنه لوظيفة من وظائف دولته وكان ملوك العجم قبل الاسلام يجعلون ذلك الطراز بصور الملوك واشكالهم او اشكال وصور معيّنة لذلك ثم اعتاض ملوك الاسلام عن ذلك بكتب اسمائهم مع كلمات اخرى تجرى مجرى الفأل او السجحات وكان ذلك في الدولتين من انبه الامور وافخم الاحوال وكانت الدور المعدّة لنسج انوابهم في قصورهم تسمى دور الطراز ينظر في امور القائم على النظر فيها يسمى صاحب الطراز ينظر في امور الصنّاع والآلة والحاكمة فيها واجراء ارزاقهم ونسجهم ومشافرة اعمالهم وكانوا يقلدون ذلك لخواص دولتهم وثقات مواليهم وكذلك كان الحال في دولة بنى امية بالاندلس والطوائف من بعدهم وفي دولة العبيديّين بمصر ومن كان على عهدهم من ملوك العجم بالشرق (ثم لما ضاق نطاق الدول عن الترف والتفنن فيه بضيق نطاقها في الاستيلاء وتعدّدت الدول بطلت هذه الوظيفة والولاية عليها من اكثر الدول بالجملة (ولها) حاءت دولة الموحيدين

بالمغرب بعد بنى امية اول الماية السادسة فلم ياخذوا بذلك اول دولتهم لما كانوا عليه من منازع الديانة والسذاجة التى لقتوها عن امامهم محمد بن تومرت المهدي وكانوا يتورعون عن لبس الحرير والذهب فسقطت هذه الوظيفة من دولتهم واستدرك منها اعقابهم آخر الدولة طرفا لم يكن بتلك النباهة (واما) لهذا العهد فادركنا بالمغرب فى الدولة المرينية لعنفوانها وشموخها رسما جليلا لقتوه من دولة ابن الاحمر معاصريهم بالاندلس وانبع هو فى ذلك دول الطوائف فانى منه بلمحة شاهدة بالآثر (واما) دولة الترك بمصر والشام لهذا العهد ففيه من الطراز بحرز اخر على مقدار ملكهم وعمران بلادهم الا ان ذلك لا يصنع فى دورهم وقصورهم وليست من وظائف دولتهم وانما ينسج ما نطلبه الدولة من ذلك عند صنائه من الحرير ومن الذهب الخالص ويسمونه الزركش لفظة اعجبية ويرسم اسم السلطان او الامير عليه وبعده الصانع لهم فيما بعدونه للدولة من طرف الصناعة اللابقة بها والله مقدر الليل والنهار وهو خير الوارئين لا اله غيره (الفساطيط والسياج) اعلم ان من شارات الملك وترفه اتخاذ الاحبية والفساطيط والغازات من ثياب الكتان والصوف والقطن يجدل الكتان والقطن يباهى بها فى الاسفار وتنوع منها الالوان ما بين كبير

وصغير على نسبة الدولة فى الثروة واليسار وانما يكون الامر فى اول الدولة فى بيوتهم التى جرت عاداتهم باتخاذها قبيل الملك وكان العرب لعهد الخلفاء الاولين من بنى امية انما يسكنون بيوتهم التى كانت لهم خياما من الوبر والصوف ولم تنزل العرب لذلك العهد باديين الا الاقل منهم فكانت اسفارهم لغزوانهم وحروبهم بظعونهم وساء حللهم واحياتهم من الابل والولدان كما هو شأن العرب لهذا العهد فكانت عساكرهم لذلك كثيرة الحلل بعيدة ما بين المنازل متفرقة الاحياء يغيب كل واحد منها عن نظر صاحبه من الاخرى كشأن العرب (ولذلك) ما كان عبد الملك يحتاج الى ساقفة لحشر الناس على اثره ان يقيموا اذا طعن (ونقل) انه استعمل فى ذلك الحجاج حين اشار به روح بن زبياع وقصته فى احراق فساطيط روح وخيامه لاول ولايته حين وجدهم مقيمين فى يوم رحيل عبد الملك قصه مشهورة ومن هذه الولاية تعرف رتبة الحجاج بين العرب فانه لا يتولى اراذلهم على الظعن الا من يامن بوادر السفهاء من احيائهم بما له من العصبية الحائلة دون ذلك ولهذا اختصه عبد الملك بمثل هذه الرتبة ثقة بغنائها فيها بعصبية وصرامته (فلما) نفنت الدولة العربية فى مذاهب الحضارة والبدع ونزلوا المدن والامصار وانتقلوا من سكنى الخيام

الى سكنى القصور ومن ظهر الخوف الى ظهر الحافر اتخذوا
 للسكنى فى اسفارهم نياح الكتان يستعملون منها بيوتا
 مختلفة الاشكال مقدرة الامثال من القور والمستطيلة والمربعة
 ويختلفون فيها بابلغ مذاهب الاحتفال والزينة ويدير الامير او
 القائد للعساكر على فساطيطه وفازانه من بينهم سياجا من
 الكتان يسمى فى المغرب باللسان البربرى الذى هو لسان
 اهله افراكت بالكاف التى بين القاف والكاف
 ويختص به السلطان بذلك القطر لا يكون لغيره واما فى
 المشرق فيتخذ كل امير وان كان دون السلطان ثم جنحت
 الدعة بالنساء والولدان الى المقام بقصورهم ومنازلهم فخف
 لذلك ظهريهم ونفارب السياج بين منازل العسكر
 واجتمع الجيش والسلطان فى معسكر واحد يحصره البصر
 فى سيطه زهرا انيقا لاختلاف الوانه واستمر الحال على
 ذلك فى مذاهب الدول فى بذخها ونرفها وكذا كانت
 دولة الموحدين وزنانة التى اطلتنا كان سفرهم اول امرهم
 فى بيوت سكناهم قبل الهلك من الخيام والقياطن
 حتى اذا اخذت الدولة فى مذاهب الترف وسكنى القصور
 عادوا الى اتخاذ الاخبية والفساطيط وبلغوا من ذلك فوق
 ما ارادوه وهو من الترف بمكان الا ان العساكر به نصير
 عرضة للبيات لاجتماعهم فى مكان واحد شملهم فيه

الصيحة ولحقهم من الاهل والولد الذى تكون الاستماتة
دونهم فيحتاج فى ذلك الى تحفظ اخر كما نذكره والله
القوى العزيز

الهقصورة للصلاة والدعاء فى الخطبة

وهما من الامور الخلافية ومن شارأت الملك الاسلامى ولم
تعرف فى غير دول الاسلام فاما البيت الهقصورة لصلاة
السلطان تتخذ سياجا على المحراب فتحوزه وما يليه فاول
من اتخذها معاوية بن ابى سفيان حين طعن الخارجرى
والقصة معروفة وقيل اول من اتخذها مروان بن الحكم
حين طعن اليهاني ثم اتخذها الخلفاء من بعدهما وصارت
سنة فى تمييز السلطان عن الناس فى الصلوة وهى انما
يحدث عند حصول الترف فى الدولة والاستفحال شأن
احوال الابهة كلها وما زال الشأن ذلك فى الدول الاسلامية
كلها وعند افتراق الدولة العباسية وبعدد الدول بالشرق وكذا
بالاندلس عند انقراض الدولة الاموية وبعدد ملوك الطوائف
(واما المغرب) فكان بنو الاغلب يتخذونها بالقيروان ثم
خلفاء العبيديين ثم ولانهم على المغرب من صنهاجة بنو
باديس بالقيروان وبنو حهاد بالقاعة (ثم) ملك الموحدون
سائر المغرب والاندلس ومحو ذلك الرسم على طريقة

البداءة التي كانت شعارهم ولما استفحلت الدولة واخذت بحظها من الترف وجاء يعقوب المنصور ثالث ملوكهم فاتخذ هذه المقصورة وبقيت من بعده سنة لملوك المغرب ولاندلس وهكذا الشأن في سائر الدول سنة الله في عباده (واما الدعاء) على المنابر في الخطبة فكان الشأن اولا عند الخلفاء ولاية الصلاة بانفسهم فكانوا يدعون لذلك بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والرضاء عن اصحابه واول من اتخذ المنبر عمرو بن العاص لما بنى جامعہ ببصر وكتب اليه عمر رضى الله عنه اما بعد انك اتخذت منبرا ترقى به على رقاب المسلمين او ما يكفيك ان تقوم قائما والمسلمون تحت عقبيك فعزمت عليك لها كسرته فلما حدثت الالبته وحدث في الخلفاء المانع من الخطبة والصلاة واستنابوا فيهما فكان الخطيب يشيد بذكر الخليفة على المنبر تنويها باسمه ودعاء له بها جعل الله مصالحة العالم فيد ولان تلك الساعة مظنة للاجابة ولما ثبت عن السلف في قولهم من كانت له دعوة صالحة فليضعها في السلطان واول من دعا للخليفة في الخطبة ابن عباس دعا لعلى رضى الله عنهما في خطبته وهو بالبصرة عامل له عليها فقال اللهم انصر عليا الحق وانصل العمل على ذلك فيها بعد وكان الخليفة يفرد بذلك فلما جاء

الحجر والاستبداد صار المتغلبون على الدول كثيرا ما يشاركون الخليفة في ذلك ويشاد باسمهم عقب اسمه وذهب ذلك بذهاب تلك الدول وصار الامر الى اختصاص السلطان بالدعاء له على المنبر دون من سواه وحظر ان يشاركه فيه احد او يسمو اليه وكثرا ما يغفل الاهدون من اهل الدول هذا الرسم عند ما نكون في اسلوب الغضاينة ومناحي البداوة في التغافل والخشونة وبقعون بالدعاء على الالهام والاجيال لمن ولي امور المسلمين ويسمون مثل هذه الخطبة اذا كانت على هذا المنحى عباسية بعنوان بذلك ان الدعاء على الاجمال انما يتناول العباسية بقليدا في ذلك لما سلف من الامر ولا يحفلون بها وراء ذلك من تعيينه والتصريح باسمه بحكى ان يغمراسن بن رمان ماهد دولة بنى عبد الواد لها غلبه الامير ابو زكريا يحكى بن ابي حفص على بلسمان ثم بدا له في اعادة الامر اليه على شروط شرطها كان فيها ذكر اسمه على منابر عمله فقال يغمراسن ذكر اعداءهم بذكرون عليها من شاوا وكذلك يعقوب بن عبد الحق ماهد دولة بنى مرين حضرة رسول المستنصر الخليفة بتونس من بنى ابي حفص ونالت ملوكهم ونخلف بعض ابام عن الجمعة فقيل له لم لم يحضر هذا الرسول لخلو الخطبة من ذكر سلطان فاذن في

PROLÉGOMÈNES
Fbn-Khaldoun.

الدعاء له وكان ذلك سببا لاحذهم بدعوته وهكذا شأن
الدول في بدايتها وتمكنها في الغضاضة والبدواة فاذا
انتهت عيون سياستهم ونظروا في اعطاف ملكهم
واستتموا شياة الحضارة ومعاني البذخ والابته انتحلوا جميع
هذه السمات وتفطنوا فيها وتجاوزوا الى غايتها وانفوا من
البشاركة فيها وجزعوا من افتقادها وخلو دولتهم من آناها
والعالم بستان والله على كل شئ رقيب

فصل في الحروب ومذاهب الامم في ترتيبها

اعلم ان الحروب وانواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة
منذ برأها الله واصلها ارادة انتقام بعض البشر من بعض
وبتعصب لكل منهما اهل عصبية فاذا تدامروا لذلك
وبواقفت الطائفتان احديهما تطلب الانتقام والاخرى ندافع
كانت الحرب وهو امر طبيعي في البشر لا تخلو عنه امة
ولا جيل وسبب هذا الانتقام في الاكثر اما غيرة ومنافسة
واما عدوان واما غضبا لله ولدينه واما غضبا للملك
سعى في وتمهيده فالاول اكثر ما يجري بين القبائل
المتجاورة والعشائر المتناظرة والثاني وهو العدوان اكثر ما يكون
من الامم الوحشية الساكنين بالفقر كالعرب والترك
والتركيان والاكراد واشباههم لانهم جعلوا ارزاقهم في

رباحهم ومعاشهم فيها بايدي غيرهم ومن دافعهم عن متاعه
 اذنوه بالحرب ولا بغية لهم فيها وراء ذلك من رتبة
 ولا ملك وانها همهم ونصب اعينهم غلب الناس على ما
 في ايديهم والثالث هو الهسنى في الشريعة بالجهاد والرابع
 هي حروب الدول مع الخارجيين عليها والممانعين لطاعتها
 فهذه اربعة اصناف من الحروب الصنفان الاولان منها
 حروب بغى وفتنة والصنفان الاخران حروب جهاد وعدل
 (وصفة) الحروب الواقعة بين اهل الخليقة منذ اول وجودهم
 على نوعين نوع بالزحف صفوا ونوع بالكر والفر (واما) الذى
 بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب اجيالهم واما
 الذى بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من اهل المغرب
 وقتال الزحف اوثق واشد من قتال الكر والفر وذلك ان
 قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح
 او صفوف الصلاة ويهشون بصفوفهم الى العدو قدما فذلك
 انبت عند المصاع واصدق فى القتال وارهب للعدو لانه
 كالحايطة المتهدة والقصر المشيد لا يطمع فى ازالته وفى التنزيل
 ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كانهم بنيان
 مرصوص اى يشد بعضهم بعضا بالثبات وفى الحديث المؤمن
 للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ومن هناك يظهر لك
 حكمة ايجاب الثبات وتحريم التولى فى الزحف فان

المقصود بالصق في القتال حفظ النظام كما قلناه فمن ولي العدو ظهره فقد اخل بالوصاف وباء بانهم الهزيمة كانه جرّها على المسلمين وامكن منهم عدوهم فعظم الذنب لعموم المفسدة وتعيّدها الى الدين بخرق سياجه فعد من الكبائر وبظهر من هذه الادلة ان قتال الزحف ائر عند الشارء واما قتال الكر والفر فليس فيه من الشدة والامن من الهزيمة ما في قتال الزحف الا انهم قد يتخذون وراءهم في القتال مصافا ثابتا ياحجؤون اليه في الكر والفر ويقوم لهم مقام قتال الزحف كما نذكره بعد (نم) ان الدول القديمة الكثيرة الجنود المتسعة الممالك كانوا يقسمون الجيوش والعساكر اقساما لانه لها كثرت جنودهم الكثرة البالغة وحشروا من قاصية النواحي استدعى ذلك ان بجهل بعضهم بعضا اذا اختلطوا في مجال الحرب واعتوروا مع عدوهم الطعن والضرب فبخشى من توقعهم فيما بينهم لاجل الكراء والجهل بعضهم ببعض فلذلك كانوا يقسمون العساكر جموعا ويضمّون المتعارفين بعضهم الى بعض ويرتبونها قريبا من الترتيب الطبيعي في الجهات الاربع ورئيس العساكر كلها من سلطان او قائد في القلب ويسمّون هذا الترتيب النعبية وهو مذكور في اخبار فارس والروم والدولتين صدر الاسلام فيجعلون بين يدي الملك عسكرا منفردا بصغوفه متيّزا بفائده ورايته

يسمونه المقدمة ثم عسكر اخر من ناحية اليمين عن موقف الملك بسمونه الميمنة ثم عسكر اخر من ناحية الشمال بسمونه الميسرة ثم اخر من وراء العسكر بسمونه الساقة ويقف الملك واصحابه في الوسط بين هذه الاربع ويسمون موقف القلب فاذا تم لهم هذا الترتيب المحكم اما في مدأ واحد للبصر او على مسافة بعيدة اكشرها اليوم واليومان بين كل عسكرين منها او كيف ما اعطاه حال العساكر في القلعة والكثرة فحينئذ يكون الزحف من بعد هذه التعبئة وانظر ذلك في اخبار الفتوحات واخبار الدولتين وكيف كانت العساكر لعهد عبد الملك يستخائن عن رحيله لبعده المدى في التعبئة فاحتجج الى من يسوقها من خلفه وعين لذلك الحجاج بن يوسف كما اشرونا اليد وكما هو معروف في اخباره وكان في الدولة الاموية بالاندلس ايضا كثير منه وهو مجهول فيها لدنبا لانا انما ادركنا دولا قليلة العساكر لا تنتهي في محال الحرب الى التناكر بل اكثر الجيوش من الطائفتين معا نجتمعهم لدنبا حلة او مدينة وبعرف كل منهم قرنه وبناديد في حومة الحرب باسمه ولقبه فاستغنى عن تلك التعبئة (فصل) ومن مذاهب اهل الكر والفر في الحروب ضرب المصاف وراء عساكرهم من الجيادات والحيوانات العجم فبحذونها ملجاء لاختيالة في كرمهم وفرهم يطلبون به ثبات

المقاتلة ليكون ادموم للحرب واقرب الى الغلب وقد يفعله
اهل الزحف ايضا ليزيدهم ثباتا وشدة فقد كان الفرس وهم
اهل الزحف يتخذون الفيلة فى الحروب ويحملون عليها
ابراجا من الخشب امثال الصروح مشحونة بالمقاتلة والسلاح
والرايات ويصفونها وراءهم فى حومة الحرب كانها الحصون
فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقهم وانظر ما وقع من
ذلك فى القادسية وان فارس فى اليوم الثالث اشتدوا بهم
على المسلمين حتى اشتدت رجالات من العرب فخالطوها
ونفحوها بالسيوف على خراطيمها فنفرت ونكصت على
اعقابها الى مرابطها بالمداين فحق معسكر فارس لذلك
وانهزموا فى اليوم الرابع (واما) الروم وملوك القوط بالاندلس
بل واكثر العجم فكانوا يتخذون لذلك الاسرة وينصبون
للملك سريره فى حومة الحرب ويحق به من خدمه وحاشيته
وجنوده من هو زعيم بالاستمانة دونه وترفع الرايات فى
اركان السرب ويحق به سياج اخر من الرماة والرجالة فيعظم
هيكل السرب ويصير فية للمقاتلة وملاجئ للكرّ والفرّ وفعل
ذلك الفرس ايام القادسية وكان رستم جالسا فيها على سرير
نصبه لجلوسه حتى اختلت صفوف فارس وخالطه العرب
فى سريره ذلك فتحول عنه الى الفرّاة وقتل (واما) اهل
الكرّ والفرّ من العرب واكثر الامم البدوية الرحالة فيصفون

لذلك ابلهم والظهر الذي يحمل طعائهم فيكون فئة لهم
ويستونه المجبودة (١) وليس أمة من الأمم الا وهي تفعل ذلك
فى حروبها وتراه اوثق من الجولة وامن من الغرة والهزيمة وهو
امر مشاهد وقد اغفلته الدول لعهدنا بالجملة واعتاضوا عنه
بالظهر الحامل للانتقال والفساطيط يجعلونها ساقية من خلفهم
ولا تغنى غناء الفيلة ولا بل فصارت العساكر بذلك عرضة
للهزائم مستشعرة للفرار فى المواقف وكان الحرب اول
الاسلام كذا زحفا وان كان العرب انما يعرفون الكر والفر
لكن حملهم على ذلك اول الاسلام امران احدهما ان
عدوهم كانوا يقاتلون زحفا فيضطرون الى مقاتلتهم بهتل قتالهم
الثانى انهم كانوا مستميتين فى جهادهم لما رغبوا فيه من
الصبر ولما رسخ فيهم من الايمان والزحف الى الاستماسة
اقرب واول من ابطال الصف فى الحرب وصار الى
التعبية كراديس مروان بن الحكم فى قتال الضحاك
الخارجى والخيبى بعده قال الطبرى لما ذكر قتل
الخيبى فولى الخوارج عليهم شيبان بن عبد العزيز
اليشكرى وبلقب ابا الدلفا وقاتلهم مروان بعد ذلك
بالكراديس وابطل الصف من يومئذ انتهى فتنوسى قتال
الزحف بابطال الصف ثم تنوسى الصف وراء المقاتلة بما

داخل الدولة من الترف وذلك انها حين ما كانت بدوية وسكناهم الخيام كانوا يستكثرون من الابل وسكنى النساء والولدان معهم فى الاحياء فلما حصلوا على ترف الملك والقوا سكنى القصور والحوضر وتركوا شأن البادية والقفرة نسوا لذلك عهد الابل والطعائن وصعب عليهم اتخاذها فخلفوا النساء فى الاسفار وحملهم الملك والتشرف دلى اتخاذ الفساطيط والاختبية فاقصروا على الظاهر الحامل للانتقال والآنية وكان ذلك صفهم فى الحرب ولا يغنى كل الغناء لانه لا يدعو الى الاستمانة كما يدعو اليها الامل والمال فينحى الصبر من اجل ذلك ويفرقهم الهيئات وتخرم صفوفهم (فصل) ولما ذكرناه من ضرب المصاف وراء العسكر وتأكدته فى قتال الكثر والقر صار ملوك المغرب يستخدمون طوائف من الفرنج فى جندهم واختصوا بذلك لان قتال اهل وطنهم كله بالكتر والقر والسلطان يتأكد فى حقه ضرب المصاف ليكون رداً للمقابلة امامه فلا بد وان يكون اهل ذلك الصف من قوم متعودين للثبات فى الزحف والا اجفلوا على طريقة اهل الكتر والقر فانهزم السلطان والعسكر بانجفاليهم فاحتاج الملوك بالمغرب ان يتخذوا جندا من هذه الامة المعوده الثبات فى الزحف وهم الافرنج ويرتبون مصافهم المحدث بهم منها هذا على ما فيه من الاستعانة

باهل الكفر وانما استخفوا ذلك للضرورة التي اربناكها من
 نخوف الانجفال على مصاف السلطان والفرنج لا يعرفون غير
 الثبات في ذلك لان عادتهم في القتال الزحف فكانوا
 اقوم بذلك من غيرهم مع ان الملوك في المغرب انما
 يفعلون ذلك عند الحرب مع امم العرب والبربر وقتالهم
 قبائلهم على الطاعة واما في الجهاد فلا يستعينون بهم حذرا
 من ممالاتهم على المسلمين هذا هو الواقع بالمغرب لهذا
 العهد وقد ابدينا سببه والله بكل شيء عليم (فصل) وبلغنا
 عن اسم الترتك لهذا العهد قتالهم مناضلة بالسهم وان
 تعبئة الحرب عندهم بالهصاف وانهم يقسمون عسكرهم ثلاثة
 صفوف يضربون صفا وراء صق ويترجلون عن خيولهم
 يفرغون سهامهم (1) بين ايديهم ثم يتناضلون جلوسا وكل صق
 ردء للذي امامه ان يكسهم العدو الى ان يتهيا النصر لاحدى
 الطائفتين على الاخرى وهى تعبئة محكمة غريبة (فصل)
 وكان من مذاهب الاول في حروبهم حفر الخنادق على
 معسكرهم عند ما يتقاربون للزحف حذرا من معرفة البيات
 والهجوم على المعسكر بالليل لما فى ظلمته ووحشته من
 مضاعفة الخوف فتلوز الجيوش بالفرار وتجذ النفوس فى
 الظلمة ستر من عاره فاذا تساوا فى ذلك ازحف المعسكر

(1) Man. A. ينشون كنائهم. B. ينشلون كنائهم.

ووقعت الهزيمة فكانوا لذلك يحتفرون الخنادق على
معسكرهم اذا نزلوا وضربوا ابنتهم ويديرون الحفائر نطاقا
عليهم من جميع جهاتهم حصنا ان يخالطهم العدو بالبيات
فيتخاذلوا وكانت للدول في امثال هذا قوة وعليه اقتدار
باحتماد الرجل وجمع الايدي عليه في كل منزل من منازلهم
بما كانوا عليه من وفور العمران وضخامة الملك فلما خرب
العمران وتبعه ضعف الدول وقلة الجنود وعدم الفعلة نسي الشأن
جملة كانه لم يكن والله خير القادرين (وانظر) في وصية على
رضي الله عنه وتحريضه لاصحابه يوم صفين تجد كثيرا من
علم الحرب ولم يكن احد ابصر بها منه قال في كلام له
فسوّا عفوكم كالبنيان المرصوص وقدموا الذراع واتخروا
المحاسر (1) وعضوا على الاضراس فانه انبا للسيوف عن الهام
والثوا في اطراف الرماح فانه اصول (2) للاسنة وغصوا الابصار
فانه اربط للجاش واسكن للقلوب واميتوا الاصوات فانه
اطرد للفشل واولى بالوقار ورايانكم فلا تميّلوها ولا تزبلوها
ولا تجعلوها لا بايدي شجعانكم واستعينوا بالصدق والصبر
فانه بعد الصبر ينزل النصر (وقال) الاشتر يومئذ يحرض الازد
عضوا على النواجذ من الاضراس واستقبلوا القوم بهأمكم
وشدوا شدة قوم موتورين يثارون بابائهم واخوانهم حنقا على

(1) Man. A. et B. المحاسر.

(2) Man. A. et B. اصول.

عدّوهم قد وطنوا على الموت انفسهم كيلا يسبقوا بوتر
ولا يلحقهم فى الدنيا عار وقد اشار الى كثير من ذلك ابو
بكر الصيرفى شاعر لمتونة واهل الاندلس فى كلمة
يمدح فيها ناشفين بن على بن يوسف ووصف ثباته فى
حرب شهدا ويذكره بامور الحرب فى وصايا وتحذيرات
تنبهك على معرفة الكثير من سياسة الحرب يقول فيها

با اتها الملاء الذى يشتت من سكم الملك الهمام الاروع
ومن الذى غدر العدو به دجى فنفس كل وجو لا يتصعصع
نصى الفؤارس والطعان يصدها عنه وهدمها الوفا فسرّج
والليل من وصح الرانك انه صبح على هام الحوش ملهع
ابى فرعصم بابنى صنهاجة والبكم فى السروع كان المهنز
وصددنم عن ناشفين وانه لعقابه لو شاء فبكم موضع
انسان عين لم يصند (1) منكم جش وقلب اسامته الاصلع
ما انتم الا اسود خفسد كل بكل كبرية مسد طلع (2)
با تاسعين اقم لجيشك عذره بلابل والقدر الذى لا يدفع (3)

(ومنها فى سياسة الحروب)

احديك من ادب السياسة ما بد كانت ماوت الفرس فلك نولع
لا انسى ادرى بها لكتيب ذكرى تخص الهمس وتنفع
الس من الحلق البصاعة الى وصى بها صنع الصنائع تسع
والهندوانى الرقيق فانه امضى على حد الدلائل وافطع
واركب من الخيل السوابق عذة حصنا حصنا ليس فيه مدفع
حنديق عليك اذا ضربت محلة سيمان تسبع طافرا او تسبع
والواد لا تعبره وانزل عنده بس العدو ويبس جسده يقطع

(1) Man. A. B. يصيد

(2) Man. A. B. مستنقع

(3) Man. A. et B. يتفج

واجعل منازل العدو (١) عشية ووراءك الصدق الذى هو امنع
واذا تضايقت الجيوش بمعرك سنك فاطراف الرماح توسع
واصدمه اول وهلة لا تكتسرت شيا فاطهار النكول تضعضع
واجعل من الطلاع اهل شهامة الصدق فيهم شيمة لا مخدع
لا تسع الكذاب جاءك مرجفا لا راي للمكذوب فيهما يصنع

وقوله واصدمه من اول وهلة البيت مخالف لها عليه الناس
من امر الحرب فقد قال عمر لابى عبيد بن مسعود الثقفى لما
ولاه حرب فارس والعراق فقال له اسمع من اصحاب
النبي صلى الله عليه وسلم واشركهم فى الامر ولا تجيبين
مسرعا حتى يتبين فانها الحرب ولا يصاح لها الا الرجل
المكيث الذى يعرف الفرصة والكف وقال له فى اخرى انه لم
تمنعنى ان اوامر سليطا الا سرعته فى الحرب وفى التسرع
فى الحرب الا عن بيان ضياع والله لولا ذلك لا مرته لكن
الحرب لا يصاحبها الا المكيث هذا كلام عمر وهو شاهد بان
التشاغل فى الحرب اولى من الخوف حتى يتبين حال
بلدت الحروب وذلك عكس ما قاله الصيرفى الا ان
يريد ان الصدم بعد البيان فله وجه والله اعلم (فصل ولا وثوق
فى الحرب بالظفر وان حصلت اسبابه من العدة والعديد وآما
الظفر فيها والغلب من قبيل البخت والاتفاق وبيان ذلك ان
اسباب الغلب فى الاكثر مجتمعة من امور ظاهرة وهى

(١) Man C D مناجرة الجيوش

الجيوش ووفورها وكمال الاسلحة واستجاداتها وكثرة الشجعان وترتيب المصافى وصدق القتال وما جرى مجرى ذلك ومن امور خفية وهى اما من حيل البشر وخدعهم فى الارجاف والتشائيع التى يقع بها التخذيل وفى التقدم الى الاماكن المرتفعة ليكون الحرب من على فيتوهم المنخفض لذلك ويتخاذل وفى الكمون فى الغياض ومطمئن الارض والتوارى بالكدا عن العدو حتى تبدو لهم العساكر دفعة وفد تورطوا فيتلقون الى النجاة وامثال ذلك واما ان تكون الاسباب الخفية امور مساوية لا قدرة للبشر على اكتسابها تلقى فى القلوب فيستولى الرعب عليهم من اجلها فتختل مراكزهم وتقع الهزيمة واكثر ما تقع الهزائم عن هذه الاسباب الخفية لكثرة ما يعتمد كل واحد من الفريقين فيها حرصا على الغلب فلا بد من وقوع التأثير فى ذلك لاحدهما ضرورة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة ومن امثال العرب رب حيلة انفع من قبيلة فقد تبين ان وقوع الغلب فى الحروب غالبا عن اسباب خفية غير ظاهرة ووقع الاشياء عن الاسباب الخفية هو معنى البخت كما تقرّر فى موضعه فاعتبره فتفهم من وقوع الغلب عن الامور السهوية كما شرحناه معنى قوله صلى الله عليه وسلم نصرت بالرعب مسيرة شهر وما وقع من غلبه للمشركين

فى حياهه بالعدد القليل وغلب المسلمين ايتاهم بعده كذلك
فى الفتوحات فان الله سبحانه وتعالى تكفل لنبيه بالقضاء
الرب فى قلوب الكافرين حتى يستولى على قلوبهم
فينهزموا معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكان الرب
فى القلوب سببا للهزائم فى الفتوحات الاسلاميّة كلها الا انه
خفى عن العيون (وقد ذكر الطرطوشى ان من اسباب الغلب
فى الحرب ان تفضل عدّة الفرسان المشاهير من الشجعان
فى احد الجانبين على عدّتهم فى الجانب الاخر مثل ان
يكون احد الجانبين فيه عشرة او عشرين من الشجعان
المشاهير وفى الجانب الاخر ثمانية او ستة عشر فالجانب
الزائد ولو بواحد يكون له الغلب واعاد فى ذلك وابدا
وهو راجع الى الاسباب الظاهرة التى قدمنا وليس بصحيح وانما
الصحيح المعتبر فى الغلب حال العصبيّة ان تكون فى
احدى الجانبين عصبيّة واحدة جامعة لكلهم وفى الجانب
الاخر عصاب متعدّدة والجانبان معا متقاربان فى العدّة فان
الجانب الذى عصبيّته واحدة اقوى واغلب من الجانب
الذى هو عصاب متعدّدة لان العصاب اذا كانت متعدّدة يقع
بينها من التخاذل مع يقع فى الوجدان المفرقين الفاقدين
للعصبيّة اذ تنتزل كل عصابة منهم منزلة الواحد ويكون
الجانب الذى عصابه متعدّده لا يقاوم الجانب الذى

عصبية واحدة لاجل ذلك فتفهمه واعلم انه اصح في الاعتبار ما ذهب اليه الطروشى ولم يحمله على ذلك الا نسيان شأن العصبية في جيله وبلده وانهم انما يريدون الدفاع والحماية والمطالبة الى الوجدان والجماعة الناشئة عنهم ولا يعتبرون في ذلك عصبية ولا نسبا وقد بينا ذلك في اول الكتاب مع ان هذا وامثاله على تقدير صحته انما هو من الاسباب الطاهرة مثل اتفاق الجيشين في العدة وصدق القتال وكثرة الاسلحة وما اشبهها فكيف يجعل ذلك سببا كفيلا بالغلب ونحن قد قدرنا الآن ان شئنا منها لا يعارض الاسباب الخفية مثل الحيل والخدع ولا الامور الساوية من الرعب والخذلان الالهى فاعلمه وتفهم احوال الكون فانه مقدّر الليل والنهار (فصل) ويالحق بمعنى الغلب في الحروب وان اسبابه خفية وغير طبيعية حال الشهرة والصيت فقل ان تصادف موضعها في احد من طبقات الناس من الملوك او العلماء او الصالحين او المنتحلين للفضائل على العموم فكثير ممن اشتهر وبعد صيته وليس هناك وكثير ممن اشتهر بالشر وهو بخلافه وكثير ممن تجاوزت عند الشهرة وهو احق بها واهلها وقد تصادف موضعها وتكون طبقا على صاحبها والسبب في ذلك ان الشهرة والصيت انما هي بالانخبار والانخبار يدخلها الذهول

عن المقاصد عند التناقل ويدخلها النصب والتشيع
ويدخلها الاوهام ويدخلها الجهل بمطابقة الحكايات للاحوال
لخفائها بالتلبيس والتصنع اولجهل الناقل ويدخلها التقرب
لاصحاب التجلة والمراتب الدنيوية بالشاء والهدح وتحسين
الاحوال واشاعة الذكر بذلك والنفوس مولعة بحب الشاء
والناس متطاولون الى الدنيا واسبابها من جاه او ثروة وليسوا
فى الاكثر براغبين فى الفضائل ولا منافسين اهلها واين
مطابقة الحق من هذه كلها فتحصل الشهرة عن اسباب
خفية من هذه وتكون غير مطابقة وكل ما حصل بسبب
خفى فهو الذى يعتبر عنه بالبحث كما تقرر

فصل فى الجباية وسبب نقصها ووفورها

اعلم ان الجباية اول الدولة تكون قليلة الزائع كثيرة الجملة
واخر الدولة تكون كثيرة الزائع قليلة الجملة والسبب فى
ذلك ان الدولة ان كانت على سنن الدين فليس
الا المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية وهى
قليلة الزائع لان مقدار الزكاة من المال قليل كما علمت
وكذا زكاة الحبوب والماشية وكذا الجزى والخراج وجميع
المغارم الشرعية وهى حدود لا تتعدى وان كانت على سنن
العبيية والتغلب فلا بد من البداوة فى اولها كما تقدم

والبدواة تقتضى المسامحة والمكارمة وخفض الجناح والتجافى
عن امور الناس والغفلة عن تحصيل ذلك الآ فى النادر
فيقل لذلك مقدار الوظيفة الواحدة والوزيرة التى تجتمع
الاموال من مجموعها واذا قلت الوزائع والوظائف على
الرعايا نشطوا للعمل ورغبوا فيه فيكثر الاعتمار ويتزايد لحصول
الاغتياب بقلّة المعرم واذا كثر الاعتمار كثرت اعداد تلك
الوظائف والوزائع فكثرت الحباية التى هى حملتها فاذا
استمرت الدولة واتصلت وتعاقب ملوكها واحدا بعد
واحد واتصفوا بالكيس وذهب سر البدواة والسذاجة وخلقها
من الاعضاء والتجافى وجاء الملك الغضوض (1) والحضارة
الداعية الى الكيس وتخلق اهل الدولة بتخلق التحذلق
وتكثرت عوائدهم وحاجاتهم بسبب ما انغمسوا فيه من
النعيم والشرف فيكثرون الوظائف والوزائع حينئذ على الرعايا
والاكرة والفلاحين وسائر اهل المغارم وبزيدون فى كل
وظيفة ووزيرة مقدارا عظيما لتكثرت لهم الحباية ويضعون
المكوس على البياعات وفى ابواب المدينة كما نذكر بعد
ثم تتدرج الزيادات فيها مقدارا بعد مقدار لتدرج عوائد
الدولة فى الشرف وكثرة الحاجات والانفاق بسببه حتى تثقل
المغارم على الرعايا وتبهضهم وتصير عادة مفروضة لان تلك

(1) Man. C. et D. الغضوض

الزيادة تدرجت قليلا قليلا ولم يشعر احد بمن زادها على
التعيين ولا من هو واضعها انما تثبت على الرعايا كأنها
عادة مفروضة ثم تزيد الى الخروج عن حد الاعتدال فتذهب
غبطة الرعايا في الاعتبار لذهاب الامل من نفوسهم بقلّة
النفع اذا قابل بين نفقته ومغارمه وبين ثمرته وفائدته
فينقبض كثير من الايدي عن الاعتبار جملة فتنقص جملة
الجباية حينئذ بنقصان تلك الوزائع منها وربما يزدون في
مقدار الوظائف اذا راوا ذلك النقص في الجباية ويحسبون
حبرا لما نقص حتى ينتهي كل وظيفة ووزيعة الى غاية ليس
وراءها نفع ولا فائدة لكثرة الانفاق حينئذ في الاعتبار وكثرة
المغارم وعدم وفاء الفائدة المرجوة به فلا تزال الجبلة في
نقص ومقدار الوزائع والوظائف في زيادة لما يعتقدون من
جبر الجبلة بها الى ان ينتقص (1) العمران بذهاب الآمال من
الاعتبار ويعود وبال ذلك على الدولة لان فائدة الاعتبار عائدة
اليها واذا فهمت ذلك علمت ان اقوى الاسباب في
الاعتبار تقليل مقدار الوظائف على المعتمدين ما امكن
فبذلك تنشط النفوس ليقينها بادراك المنفعة فيه والد
مالك الامور

ينقص. B. يدنقص. A. مان ١.

فصل فى ضرب الكوس آخر الدول

اعلم ان الدول تكون فى اولها بدوية كما قلنا فتكون لذلك قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده فيكون خرجها وانفاقها قليلا فيكون فى الجباية حينئذ وفاء بازيد منها بل يفضل منها كثير عن حاجاتها ثم لا يلبث ان تاخذ بدين الحاضرة والترف وعوائدها وتجرى على نهج الدول السالفة قبلها فيكثر لذلك خرج الدولة ويكثر خرج السلطان خصوصا كثرة بالغة بنفقته على خاصته وكثرة عطائه ولا تفى بذلك الجباية تحتاج الدولة الى الزيادة فى الجباية لما تحتاج اليه الحامية من العطاء والسلطان من النفقة فتزيد فى مقدار الوظائف والوزائع اولا كما فلناه ثم يزيد الخرج والحاجات بالتدريج فى عوائد الترف وفى العطاء للحامية وبدرت الدولة الهرم وتضعف عصابتها عن جباية الاموال من الاعمال والقاصية فتقل الجباية وتكثر العوائد وتكثر بكثرتها ارزاق الجند وعطاؤهم فيستحدث صاحب الدولة انواعا من الجباية يضربها على البياعات ويفرض لها قدرا معلوما على الاثمان فى الاسواق وعلى اعيان السلع فى ابواب المدينة وهو مع هذا مضطر لذلك بما دعاه اليه ترف الناس من كثرة العطاء مع زيادة الجيوش والحامية وربما يزيد ذلك فى آخر الدول زيادة بالغة فتكسد

الاسواق بفساد الآمال ويؤذن ذلك باختلال العمران ويعود على الدولة ولا يزال ذلك يتزايد الى ان يضمحل وقد كان وقع منه بامصار المشرق فى اخريات الدولة العباسية والعبيدية كثير وفرضت المغارم حتى على الحاج فى الموسم واسقط صلاح الدين بن ايوب رحمه الله تلك الرسوم جملة واعاضها باثار الخير وكذلك وقع بالاندلس لعهد الطوائف حتى محى رسمه يوسف بن تاشفين امير المرابطين وكذلك وقع بامصار الجريد بافريقية لهذا العهد حتى استبد بها رؤساؤها والله سبحانه لطيف بعباده

فصل فى ان التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية

اعلم ان الدولة اذا ضاقت جبايتها بما قدمناه من الترف وكثرة العوائد والنفقات وقصر الحاصل من جبايتها عن الوفاء بحاجاتها ونفقاتها واحتاجت الى مزيد المال والجباية فتارة بوضع المكوس على بيعات الرعايا واسواقهم كما قدمنا ذلك فى الفصل قبله وتارة بالزيادة فى القاب المكوس ان كانت قد استحدثت قبل وتارة بمقاسحة العمال والجباة وامشاك عظامهم لما يرون انهم قد حصلوا على طائل من اموال الجباية لا يظهره الحساب وتارة

باستحداث التجارة والفلاح للسلطان حرصا على تنمية
 الجباية لما يرون التجار والفلاحين يحصلون على الفوائد
 والغلات مع يسارة اموالهم وان الارباح تكون على نسبة رؤس
 الاموال فيأخذون في اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله
 وفي شراء البضائع والتعرض بها لحوالة الاسواق يحسبون ذلك
 من ادرار الجباية وتكثير الفوائد وهو غلط عظيم وادخال للضرر
 على الرعايا من وجوه متعددة فاولا مضايقة الفلاحين والتجار
 في شراء الحيوان والبضائع وتيسير اسباب ذلك فان
 الرعايا متكافئون في اليسار او متقاربون ومزاحمة بعضهم
 بعضا ينتهى الى غاية موجودهم او تقرب واذا رافقهم السلطان
 في ذلك وماله اعظم كثيرا منهم فلا يكاد احد منهم يحصل
 على غرضه في شئ من حاجاته ويدخل على النفوس من
 ذلك غم او نكد ثم ان السلطان قد ينتزع الكثير من ذلك
 اذا تعرض له غصبا وبإيسر ثمن اذ لا يجد من ينافسه فيبخس
 ثمنه على بائعه ثم اذا حصلت فوائد الفلاحة ومغلبها كله من
 زرع او حرير او عسل او سكر او غير ذلك من انواع
 الغلات وحصلت بضائع التجار من سائر الانواع فلا ينتظرون
 به حوالة الاسواق ولا نفاق البياعات لما ندعوهم اليه تكاليف
 الدولة فيكلفون اهل تلك الاصناف من تاجر او فلاح بشرا
 تلك البضائع ولا يرضون في ائتمانها الا القيم واريد فيستوعبوا

فى ذلك ناض اموالهم وتبقى تلك البضائع بايديهم عروضا جامدة ويمكثون عطلا من الادارة التى فيها كسبهم ومعاشهم ورتبما تدعوهم الضرورة الى شئ من المال فيبيعون تلك السلع على كساد من الاسواق بابنخس ثمن ورتبما يتكرر ذلك على الناجر او الفلاح منهم بما يذهب برأس ماله فيقعده عن سوقه ويتعدّد ذلك ويتكرر ويدخل به على الرعايا من الغت والمضايقة وفساد الارباح ما يفيض آمالهم عن السعى فى ذلك جملة ويؤدى الى فساد الجباية فان معظم الجباية انما هى من الفلاحين والتجار لا سيما بعد وضع المكوس ونمو الجباية بها فاذا انقبض الفلاحون عن الفلاحة وقعد التجار عن التجارة ذهبت الجباية جملة او دخلها النقص المتفاحش واذا قايس السلطان بين ما يحصل له من الجباية وبين هذه الارباح القليلة وجدها بالنسبة اقل من القليل ثم انه ولو كان مفيدا فيذهب له بحظ عظيم من الجباية فيما يعانيه من شراء وبيع فانه من البعيد ان يؤخذ منه فيه مكس ولو كان غيره فى تلك الصفقات لكان مكسها كلها حاصلا من جملة الجباية ثم فيه التعرض لفساد عمرانه واختلال الدولة بفساده ونقصه فان الرعايا اذا قعدوا عن تسمير اموالهم بالفلاحة والتجارة نقصت وتلاشت بالنفقات وكان فيها تلافى احوالهم فافهم ذلك

(ولقد) كان الفرس لا يملكون عليهم الا من اهل بيت المملكة ثم يختارونه من اهل الدين والفصل والادب والسخاء والشجاعة والكرم ثم يشترطون عليه مع ذلك العدل وان لا يتخذ ضيعة فيضتر بجيرانه ولا يتاجر فيحبّ غلاء الاسعار فى البضائع ولا يستخدم العبيد فانهم لا يشيرون بخير ولا مصلحة واعلم ان السلطان لا يثمر ماله ويدّر موجوده الا الحباية وادارها انما يكون بالعدل فى اهل الاموال والنظر لهم فبذلك تنبسط آمالهم وتشرح صدورهم للاخذ فى تشيّر الاموال ونميتها فتعظم منها حباية السلطان واما غير ذلك للسلطان من تجارة او فاح فانما هو مضرة عاجلة للرعايا وفساد للحباية ونقص للعمارة ولقد ينتهى الحال بهؤلاء المتحليين للتجارة والفلاحة من الامراء والمتغلبين فى البلدان انهم نتعرضون لشراء الغلات والسلع من اربابها الواردين الى بلدهم ويفرضون لذلك من الثمن ما يشاؤون ويبيعونها فى وقتها لمن تحت ايديهم من الرعايا بما يفرضونه من الثمن وهذه اشد من الاولى واقرب الى فساد الرعية واختلال احوالهم ورتما يحمل السلطان على ذلك من يداخله فى هذه الاصناف اعنى التجار والفلاحين بما هى صناعته التى نشاء عليها فيحمل السلطان على ذلك ويضرب معه بسهم نفسه فيحصل على غرضه من جمع المال سريعا سيما مع

ما يحصل له من التجارة بلا مغرم ولا مكس فانها اجدر
بنمو الاموال واسرع فى تثيرها ولا يفهم مع ذلك ما
يدخل على السلطان من الضرر بنقص جبايته فينبغى
للسلطان ان يحذر من هولاء ويعرض عن سعاتهم المضرة
بجبايته وسلطانه والله سبحانه وتعالى يلهنا رشد انفسنا
وينفعنا بصالح اعمالنا لا رب غيره

فصل فى ان ثروة السلطان وحاشيته انما تكون
فى وسط الدولة

والسبب فى ذلك ان الجباية فى اول الدولة تتوزع على
القبيل واهل العصبية بهقدار غنائمهم وعصبيتهم ولان الحاجة
اليهم فى تمهيد الدولة كما قلناه من قبل فرئيسهم فى ذلك
متجانس لهم عما يسمون اليه من الجباية معترض عن ذلك
بها هو يروم من الاستبداد عليهم فلهم عليه عزة وله اليهم
حاجة فلا يطير فى سهمانه من الجباية الا الاقل من حاجته
فتجد حاشيته لذلك واذا ياله من الوزراء والكتاب والموالى
مبليقين فى الغالب وجاههم متقلص لانه من حاه مخدومهم
ونطاقه قد ضاق بين يزاحمه فيه من اهل عصبية فاذا
استفحلت طبيعة الهلك وحصل لصاحب الدولة الاستبداد
على قومه قبض ايديهم عن الجبايات الا ما يطير لهم بين

الناس فى سهانهم وتقل حظوظهم اذ ذاك لقلة غنائهم
فى الدولة بما انكبح من اعتنتهم وصار الموالى والصنائع
مساهمين لهم فى القيام بالدولة وتمهيد الامر فينفرد صاحب
الدولة حينئذ بالجباية او معظمها ويحتوى على الاموال
ويحتجها للنفقة فى مهيات الاحوال فتكثر ثروته وتمتلى
خزائنه ويتسع نطاق جاهه ويعتز على سائر قومه فيعظم حال
حاشيته وذويه من وزير وكاتب وحاجب ومولى وشرطى
ويتسع جاههم ويقتنون الاموال ويتآلفونها ثم اذا اخذت
الدولة فى الهرم بتلاشى العصبية وفناء القبيل الماهدين
للدولة احتاج صاحب الامر حينئذ الى الاعوان والانصار لكثرة
الخوارج والمنازعين والثوار ويوهم الانتفاص فصار خراجيه
اظهرائه واعوانه وهم ارباب السيوف واهل العصبية
وانفق خزائنه وحاصله فى مهمات جبر الدولة وقلت مع
ذلك الجباية لما قدماه من كثرة العطاء والانفاق فيقل
الخراج وتشتد حاجة الدولة الى المال فيتقاص ظل النعمة
والترف عن الخواص والحجاب والكتاب بتقاص الجاه
عنهم وضيق نطاقه على صاحب الدولة ثم تشتد حاجة
صاحب الدولة الى المال وينفق ابناء البطانة والحاشية ما
تأفل اباؤهم من الاموال فى غير سبيلها من اعانة صاحب
الدولة ويقبلون على غير ما كان عليه اباؤهم وسلفهم من

المناصحة ويرى صاحب الدولة انه احق بتلك الاموال التي اكتسبت في دولة سلفه وبجاههم فيصطلمها وينتزعها منهم لنفسه شئاً فشيئاً واحداً بعد واحد على نسبة رتبهم وتتنگر (1) الدولة لهم ويعود وبال ذلك على الدولة بفناء حاشيتها ورجالاتها واهل الثروة والنعمة من بطانتها ويتفوّض بذلك كثير من مبانى المجد بعد ان يدعمه اهله ويرفعوه وانظر ما وقع من ذلك لوزراء الدولة العباسية في بنى قحطبة وبنى برمك وبنى سهل وبنى طاهر وامثالهم ثم في الدولة الاموية بالاندلس عند انحلالهم ايام الطوائف في بنى شهيد وبنى ابي عبدة وبنى حدير وبنى برد وامثالهم وكذا في الدولة التي ادرناها لعهدنا ستة الله ولن تجد لستة الله تبديلاً (فصل) ولما يتوقعه اهل الدولة من امثال هذه المعاطب صار الكثير منهم ينزعون الى الفرار عن الرتب والتخلص عن ربة السلطان بها حصل بايديهم من مال الدولة الى قطر اخر وبرون انه اهانهم واسلم في انفاقه وحصول ثمرته وهو من الاغلاط الفاحشة والاورهام المفسدة لاحوالهم وديارهم واعلم ان الخلاص من ذلك بعد الحصول فيه عسير ممتنع فان صاحب هذا الغرض ان كان هو الملك نفسه فلا تمكنه الرعية من ذلك طرفة عين ولا اهل العصبية

(1) مان A et B. تنكى.

المزاحمون له بل فى ظهور ذلك منه هدم ملكه وتلافى نفسه لمجارى العادة بذلك لان رتبة الملك يعسر الخلاص منها سيما عند استفحال الدولة وضيق نطاقها وما يعرض فيها من البعد عن المجد والخلال والتخلق بالشر وأما ان كان صاحب هذا الغرض من بطانة السلطان وحاشيته واهل الرتب فى دولته فقل ان يخلى بينه وبين ذلك اما أولا فلما يراه الملوك ان ذويهم وحاشيتهم بل وسائر رعاياهم مهاليك لهم مطاعون على ذات صدورهم فلا يسمحون بحل ربقته من الخدمة ضنانة بأسرارهم واحوالهم ان يطالع عليها احد وغيره من خدمته لسواهم ولقد كان بنو امية بالاندلس يمنعون اهل دولتهم من السفر لفريضة الحج لها يتوهمونه من وقوعهم بايدى بنى العباس فلم يحج سائر ايامهم من اهل دولتهم وما ابيح الحج لاهل الدول من الاندلس الا بعد فراغ شان الاموية ورجوعها الى الطوائف وأما ثانيا فانهم وان سمحوا بحل ربقته فلا يسمحون بالتجافى عن ذلك المال لها يرون انه جزء من مالهم كما كان ربه جزءا من دولتهم اذ لم يكتسب الا بها وفى ظل جاهها فتحوم نفوسهم على انتزاع ذلك المال وابقائه كما هو جزءا من الدولة ينتفعون به ثم اذا توهمنا انه خاص بذلك المال الى قطر اخر وهو فى النادر الاقل

فتمتدّ اليه اعيان الملوك بذلك القطر وينتزعونه بالارهاب والتخويف تعريضا او بالقهر ظاهرا لما يرون انه مال الجباية والدول وانه مستحقّ للانفاق فى المصالح فاذا كانت عيونهم تمتدّ الى اهل الثروة واليسار المكتسبين من وجوه المعاش كما ذكرنا فاحرى بها ان تمتدّ الى مال الجباية والدول التى تجد السبيل اليه بالشرع والعادة وانظر ما وقع لقاضى جبلة الشاير بها على ابن عمار صاحب طرابلس لما غلبه الفرنج عليها ونجا الى دمشق ثم الى بغداد وفيها السلطان بركياروق بن ملكشاه وذلك آخر الماية الخامسة فجاءه وزير السلطان واستقرض منه غالب ماله ثم استصفوه جميعا وكان لا يعتر عنه كثرة ولقد حاول السلطان ابو يحيى زكريا بن احمد اللحيانى تاسع او عاشر ملوك الحفصيين بافريقية الخروج عن عهدة الهلك واللاحق بمصر فرارا من طلب صاحب الثغور الغربيّة لما استجمع لغزو تونس فاستعمل اللحيانى الرحلة الى ثغر طرابلس يورى بتهييده وركب السفن من هناك وخلص الى الاسكندرية بعد ان حمل جميع ما وجد ببيت المال من الصامت والذخيرة وباع كلها كان بخزائنها من المتاع والعقار والجوهر حتى الكتب واحتمل ذلك كله الى مصر ونزل على الهلك الناصر محمد بن قلاوون سنة تسع عشرة من الهاية الثامنة فاكرم نزله ورفع

مجلسه ولم يزل يستخلص ذخيرته شأ فشيأ بالتعريض الى ان حصل عليها ولم يبق معاش ابن اللحيانى الا فى جرابته التى فرض له الى ان هلك ستة ثمان وعشرين حسبما نذكره فى اخباره فهذا وامثاله من جهلة الوسواس الذى يعترى اهل الدول لما يتوقعونه من ملوكهم من الهعاطب واتما يخلصون ان آنفق لهم الخلاص بانفسهم وما يتوقعونه من الحاجة فغلط ووهم والذى حصل لهم من الشهرة بخدمة الدول كاف فى وجدان المعاش لهم بالجرايات السلطانية او بالجاء فى انتحال طرق الكسب من التجارة والفلاحة والدول انساب لكن النفس راغبة اذا رغبتهها واذا ترد الى قليل تقنع والله الرزاق ذو القوة المبين

فصل فى ان نقص العطاء من السلطان نقص فى الجباية

والسبب فى ذلك ان الدولة والسلطان هى السوق الاعظم للعالم ومنه مادة العمران فاذا احتج السلطان الاموال والجبايات او فقدت فلم يصرفها قل حينئذ ما بايدى الحاشية وانقطع ايضا ما كان يصل منهم لحاشيتهم وذويهم وقلت نفقاتهم جملة وهم معظم السواد ونفقاتهم اكثر مادة للاسواق من سواهم فيقع الكساد حينئذ فى الاسواق وتضعف الارباح فى المتاجر لثقل الاموال فيقل الخراج لذلك لان

الخارج والجبابة انها يكون من الاعتمار والمعاملات ونفاق
الاسواق وطلب الناس للفوائد والارباح ووبال ذلك عائد
على الدولة بالنقص لقلة اموال السلطان حينئذ بقلة الخارج
فان الدولة كما قلناه هي السوق الاعظم ام الاسواق كلها
واصلها ومادتها في الدخل والخرج فاذا كسدت وقل
مصارفها فاجدر بما بعدها من الاسواق ان يالحقها مثل
ذلك واشد منه وايضا فالمال انما هو متردد بين الرعيّة
والسلطان منهم اليه ومنه اليهم فاذا حبسه السلطان عنده
فقدته الرعيّة سنة الله في عباده

فصل في ان الظلم مؤذن بخراب العمران

اعلم ان العدوان على الناس في اموالهم ذاهب بآمالهم في
تحصيلها واكتسابها لما يرونها حينئذ من ان غايتها ومصيرها
انتهابها من ايديهم واذا ذهبت آمالهم في اكتسابها
وتحصيلها انقبضت ايديهم عن السعى في ذلك وعلى
قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعى في
الاكتساب فان كان الاعتداء كثيرا وعاما في جميع ابواب
المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة
بدخوله من جميع ابوابها وان كان الاعتداء يسيرا كان الانقباض
عن الكسب على نسبه والعمران ووفوره ونفاق اسواقه انما

هو بالاعمال وسعى الناس فى المصالح والمكاسب ذاهبين
وجائين فاذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت ايديهم عن
المكاسب كسدت اسواق العمران وانتقضت الاحوال واندعر
الناس فى آفاق من غير تلك الايالة وفى طلب الرزق
فيما خرج عن نطاقها فحق ساكن القطر وخلت دياره
وخربت امصاره واختل باختلاله حال الدولة والسلطان
لما اتىها صورة للعمران تفسد بفساد ما دنىها ضرورة وانظر فى
ذلك ما حكاه المسعودى فى اخبار الفرس عن الهوبذان
صاحب الدين عندهم ايام بهرام بن بهرام وما عرض به
للملك فى انكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته
فى الدولة بضرب المثال فى ذلك على لسان اليوم حين
سمع الملك اصواتها وسأله عن فهم كلامها فقال ان يوما
ذكرنا يروم نكاح يوم انشئ وانها شرطت عليه عشرين قرية
من الخراب فى ايام بهرام لتزوج فيها فقبل شرطها وقال
لها ان دامت ايام الملك اقطعتك الف قرية وهذا اسهل
مرام فتنبه الملك من غفلته وخلا بالموبذان وسأله عن
مراده فقال ايتها الملك ان الملك لا يتم عزه الا بالشريعة
والقيام لله بطاعته والتصرف تحت امره ونهييه ولا قوام
للمشريعة الا بالملك ولا عز للملك الا بالرجال ولا قوام للرجال
الا بالمال ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ولا سبيل للعمارة

آلا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليفة نصبه الرب
وجعل له قِيَمًا وهو الملك وأتت اليها الملك عمدت
الى الضياع فانتزعتها من اربابها وعمّارها وهم ارباب الخراج
ومن تؤخذ منهم الاموال واقطعتها الحاشية والخدم وارباب
البطالة فتركوا العمارة والنظر فى العواقب وما يصلح الضياع
وسومحوا فى الخراج لقربهم من الملك ووقع الحيف
على من بقى من ارباب الخراج وعمّار الضياع فانجلوا عن
ضياعهم وخلوا ديارهم واووا الى ما بعد او انعذروا من الضياع
فسكنوها فقلت العمارة وخربت الضياع وقلت الاموال
وهلكت الجنود والرعية وطمع فى ملك فارس من
جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع المواد التى لا تستقيم
دعائم الملك آلا بها فلما سمع الملك ذلك اقبل على النظر
فى ملكه وانتزعت الضياع من ايدي الخاصة وردت الى
اربابها وحملوا على رسومهم السالفة واخذوا بالعمارة وقوى
من ضعف منهم فعمرت الارض واخصبت البلاد وكثرت
الاموال عند جباية الخراج وقويت الجنود وقطعت مواد
الاعداء وشحنت الثغور واقبل الملك على مباشرة اموره
بنفسه فحسنت ايامه وانتظم ملكه فتفهم من هذه
الحكاية ان الظلم مخرب لل عمران وان عائد الخراب فى
ال عمران على الدولة بالفساد والانتقاض ولا ننظر فى ذلك

آلا (1) ان الاعتداء قد يوجد بالامصار العظيمة من الدول التي بها ولم يقع فيها خراب واعلم ان ذلك انما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء واحوال اهل المصر فلما كان المصر كبيرا وعمرانه كثيرا واحواله متسعة بها لا ينحصر كان وقوع النقص فيه بالاعتداء والظلم يسيرا اذ النقص انما يقع بالتدريج فاذا خفي بكثرة الاحوال واتساع الاعمال فى المصر لم يظهر اثره الا بعد حين وقد تذهب تلك الدولة المعتدية من اصلها قبل خراب المصر وتجيئ الدولة الاخرى فترقع (2) بجديتها وينجبر النقص الذى كان خفيا فيه فلا يكاد يشعر به الا ان ذلك فى الاقل والمراد من هذا ان حصول النقص فى العمران عن الظلم والعدوان امر واقع لا بد منه لها قدمناه ووباله عائد على الدول ولا تحسبن الظلم انما هو اخذ المال او الملك من يد مالكة من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور بل الظلم اعم من ذلك وكل من اخذ ملك احد او غصبه فى عمله او طالبه بغير حق او فرض عليه حقا لم يفرضه الشرع فقد ظلمه فجباة الاموال بغير حقها ظلمة والمعتدون عليها ظلمة والمنتهبون لها ظلمة والمانعون لحقوق الناس ظلمة وغصاب الاملاك على العموم ظلمة ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذى هو مادتها لذهاب

1) Man. A. et B. الى.

(2) Man. A. et B.. فترقع.

PROLÉGOMÈNES
I'Éba-Khaloud.

لأموال من أهله وأعلم ان هذه هي الحكمة المقصودة للشارع
في تحريم الظلم وما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه
وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشرى وهي الحكمة العامة
المرعاة للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة (1) من حفظ
الدين والعقل والنفس والنسل والمال فلما كان الظلم كما
رايت مؤذنا بانقطاع النوع لها ادى اليه من تخريب العمران
كانت حكمة الحظر فيه موجودة فكان تحريمه مهما وادلته
من القران والسنة كثيرة اكثر من ان ياخذها قانون الضبط
والحصر ولو كان كل احد قادرا عليه لوضع بازائه من العقوبات
الزاجرة ما وضع بازاء غيره من المفسدات للنوع التي يقدر
كل احد على اقترابها من الزناء والقتل والسكر الا ان الظلم لا يقدر
عليه الا من لا يقدر عليه لانه انما يقع من اهل القدرة والسلطان
فبولغ في ذمه وتكثير الوعيد فيه عسى ان يكون الوازع فيه للقادر
عليه من نفسه وما ركب بظلام للعبيد ولا تقول ان العقوبة قد
وضعت بازاء الحرابة في الشرع وهي من ظلم القادرات لان
المحارب زمن حرابته قادر فان الجواب عن ذلك من
طريقين احدهما ان تقول العقوبة التي وضعت في ذلك
انما هي بازاء ما يقترفه من الجنايات في نفس او مال على
ما ذهب اليه كثير وذلك انما يكون بعد القدرة عليه والمطالبة

(1) الحسنة. Man. A. et B.

بجنايته وأما نفس الحاربة فهي خلو من العقوبة الطريق
 الثاني أن نقول المحارب لا يوصف بالقدرة لأنّ أتمّا نفى
 بقدرة الظالم اليد المبسوطة التي لا تعارضها قدرة فهي
 المؤذنة بالخراب وأتمّا قدرة المحارب فإنّما هي أخافة
 يجعلها ذريعة لأخذ الأموال والمدافعة عنها بيد الكل موجودة
 شرعا وسياسة فليست من القدرة المؤذنة بالخراب والله
 قادر على ما يشاء (فصل) ومن أشدّ الظلمات وأعظمها
 أفسادا لل عمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق
 وذلك أن الأعمال من قبيل التمولّات لما سنبيّن في
 باب الرزق أن الكسب والرزق أتمّا هو قيمّ أعمال أهل
 العمران فإذا مساعبهم وأعمالهم كلّها متمولّات ومكاسب لهم
 بل لا مكاسب لهم سواها فإن الرعيّة المعتملين في العمارّة
 أتمّا معاشهم ومكاسبهم من اعتمادهم ذلك فإذا كلّفوا العمل
 في غير شأنهم وأنّخذوا سُخْرِيّا في غير معاشهم بطل كسبهم
 واعتصبوا قيمة عليهم ذلك وهو متمولّهم فدخل عليه الضرر
 وذهب لهم حظ كبير من معاشهم بل هو معاشهم بالجملة
 وإن تكرر ذلك عليهم أفسد آمالهم في العمارّة وقعدوا عن
 السعي فيها جملة فادى ذلك الى انتقاض العمران وتخريبه
 والله يرزق من يشاء بغير حساب (فصل) وأعظم من ذلك
 في الظلم وأفسد لل عمران والدولة التسلّط على الناس في

شراء ما بأيديهم بابخس الاثمان ثم فرض البضائع عليهم
 بارفع الاثمان على وجه الغصب والاكراه فى الشراء والبيع
 وربما يفرض عليهم تلك الاثمان على التراخى والتأجيل
 فيتعللون فى الخسارة التى تلاحقهم بما تحدثهم به الهطامع
 من جبر ذلك بحالة الاسواق فى تلك البضائع التى
 فرضت عليهم بالغلاء ثم يطالبون بتلك الاثما معجلة
 فيضطرون الى بيعها بابخس الثمن وتعود خسارة ما بين
 الصفتين على رؤس اموالهم وقد يعم ذلك اصناف
 التجار المقيمين بالمدينة والواردين من الآفاق فى البضائع وسائر
 السوق واهل الدكاكين فى المأكّل والفواكه واهل
 الصنائع فيما يتخذ من الآلات والمواعين فتشمل الخسارة
 سائر الاصناف والطبقات وتتوالى على البياعات وتجنّف
 برؤس الاموال ولا يجدون عنها وليجة الا القعود عن الاسواق
 لذهاب رؤس الاموال فى جبرها بالارباح ويتشاغل الواردون
 من الآفاق لشراء البضائع وبيعها من اجل ذلك فتكسد
 الاسواق ويبطل معاش الرعايا لانّ عامته من البيع والشراء
 واذا كانت الاسواق عطّلا منها بطل معاشهم وتنقص جباية
 السلطان او تقسد لان معظمها من اواسط الدولة وما بعدها
 انما هو من المكوس على البياعات كما قدمناه ويؤل ذلك
 الى تلاشى الدولة وفساد عمران الهدينة ويتطرق هذا الخلل

على التدريج ولا يشعر به هذا فيما كان بامثال هذه الذرائع
والاسباب الى اخذ الاموال واما اخذها مجانا والعدوان على
الناس فى اموالهم وحرمتهم ودمائهم وابشارهم واعراضهم فهو
يفضى الى الخلل والفساد دفعة وتنتقض الدولة سريعا لما
ينشأ عنه من الهرج المفضى الى الانتفاض ومن اجل هذه
المفاسد حظر الشرع ذلك كله وشرع المكايسة فى البيع
والشراء وحظر اكل اموال الناس بالباطل سدا لابواب المفاسد
المفضية الى انتفاض العمران بالهرج او بطلان المعاش واعلم
ان الداعى لذلك كله انما هو حاجة الدولة والسلطان الى
الاكثار من الاموال بها يعرض لهم من الترف فى الاحوال
فتكثر نفقاتهم ويعظم الخرج ولا يفى به الدخل على
القوانين المعتادة فيستحدثون القابا ووجوها يوسعون بها
الحباية لىفى لهم الدخل بالخرج ثم لا يزال الترف يزيد
والخرج بسببه يكثر والحاجة الى اموال الناس تشتد ونطاق
الدولة يضيق الى ان تمحى دائرتها ويذهب رسمها ويغلبها
طالبها والله مقدر الامور لا رب غيره

فصل فى الحجاب كيف يقع فى الدولة وانه يعظم
عند الهرم

اعلم ان الدولة فى اول امرها تكون بعيدة عن منازع

PROLÉGOMÈNES
l'Ebn-Khaldoun.

الملك كما قدّمناه لأنها لا بدّ لها من العصبية التي بها يتمّ امرها ويحصل استيلاؤها والبداءة هي شعار العصبية فالدولة ان كان قيامها بالدين فانه بعيد عن منازع الملك وان كان قيامها بعزّ الغلب فقط فالبداءة التي بها يحصل الغلب بعيدة ايضا عن منازع الملك ومذاهبه فاذا كانت الدولة في امرها بدويّة كان صاحبها على حال الغضاضة والبداءة والقرب من الناس وسهولة الاذن فاذا رسخ عزّه وصار الى الانفراد بالمجد واحتاج الى الانفراد بنفسه عن الناس للحديث مع اوليائه في خواصّ شؤنه لما يكثر حينئذ من غاشيته فيطلب الانفراد من العامّة ما استطاع ويتخذ الاذن ببابه على من لا بدّ منه من اوليائه واهل دولته فيكون حاجبا له عن الناس ويقيمه ببابه لهذه الوظيفة ثم اذا استفحل الملك وجاءت مذاهبه ومنازعه استحالت خلق صاحب الدولة الى خلق الملك وهي خلق غريبة مخصوصة يحتاج مباشرها الى مداراتها ومعاملتها بها يجب لها وربّما جهل تلك الخلق منهم بعض من يباشرهم فوقع فيها لا يرضيهم فسخطوه وصاروا الى حالة الانتقام منه فانفرد بمعرفة هذه الآداب معهم الخواصّ من اوليائهم وحجبوا غير اولئك الخاصّة عن لقائهم في كل وقت حفظا على انفسهم من معاينة ما يسخطهم وعلى الناس من التعرّض لعقابهم فصار

لهم حجاب اخر اخص من الحجاب الاول يفضى اليهم منه خواصهم من الاولياء ويحجب دونه من سواهم والحجاب الثانى يفضى الى مجالس الاولياء ويحجب دونه من سواهم من العامة فالحجاب الاول يكون فى اول الدولة كما ذكرنا كما حدث ايام معاوية وعبد الملك وخلفاء بنى امية وكان القائم على ذلك الحجاب يسمى عندهم الحاجب حربا على مذهب الاشتقاق الصحيح ثم لما جاءت دولة بنى العباس وحدث للدولة من الترف والعز ما هو معروف وكملت خلق الهلك على ما يجب فيها فدعى ذلك الى الحجاب الثانى وصار اسم الحاجب اخص به وصار بباب الخلفاء داران للغاشية دار للخاصة ودار للعامة كما هو مسطور فى اخبارهم ثم حدث فى الدول حجاب ثالث اخص من الاولين وهو عند محاولة الحجز على صاحب الدولة وذلك ان اهل الدولة وخواص الملك اذا نصبوا الابناء من الاعقاب وحاولوا الاستبداد عليهم فاول ما يبداء به ذلك المستبد ان يحجب عنه بطانة ابيه وخواص اوليائه توهه (1) ان فى مباشرتهم اياه خرق حجاب الهيبة وفساد قانون الادب ليقطع بذلك عنه لقاء الغير ويعوده ملابسة اخلاقه هو حتى لا يتبدل به سواه الى ان يستحكم الاستيلاء عليه

(1) Man. A. B. et D. يوهه.

فيكون هذا الحجاب من دواعيه وهذا الحجاب لا يقع في الغالب الا اواخر الدول كما قدّمناه في الحجر ويكون دليلا على هرم الدولة ونفاد قوتها وهو مما يخشاه اهل الدول على انفسهم لانّ القائمين بالدولة يحاولون على ذلك بطباعهم عند هرم الدولة. وذهب الاستبداد من اعقاب ملوكها لما ركب في النفوس من محبة الاستبداد بالملك وخصوصا مع الترشح لذلك وحصول دواعيه ومباذيه والله غالب على امره

فصل في انقسام الدولة الواحدة الى دولتين

اعلم ان اول ما يقع من آثار الهرم في الدولة انقسامها وذلك ان الملك عند ما يستفحل ويبلغ احوال الترف والنعيم الى غايتها ويستبدّ صاحب الدولة بالمجد وينفرد به يأنف حينئذ عن المشاركة وبصير الى قطع اسبابها ما استطاع باهلاك من استراب به من ذوى قرابته المرشحين لمنصبه فربما ارتاب المساهمون له في ذلك بانفسهم ونزعوا الى القاصية واجتمع اليهم من يلحق بهم في مثل حالهم من الاسترابة والاعتزاز ويكون نطاق الدولة قد اخذ في التضائق ورجع عن القاصية فيستبدّ ذلك النازع من القرابة فيها ولا يزال امره يعظم بتراجع نطاق الدولة حتى

يقاسم الدولة او يكاد وانظر ذلك فى الدولة الاسلامية العربية حين كان امرها عزيزا مجتمعا ونطاقها مهتدا فى الاتساع وعصبية بنى عبد مناف واحدة غالبية على سائر مضر فلم ينبض عرق من الخلاف سائر ايامهم الا ما كان من نزعة الخوارج المستميتين فى شأن بدعتهم لم يكن ذلك لنزعة ملك ولا رياسة ولم يتم امرهم لمزاحمتهم العصبية القوية ثم لما خرج الامر من بنى امية واستقل بنو العباس بالامر وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية من الغلب والترف واذنت بالتقلص عن القاصية نزع عبد الرحمن الداخل الى الاندلس قاصية دولة الاسلام فاستحدث بها ملكا واقتطعها عن دعوتهم وصير الدولة دولتين ثم نزع ادريس الى المغرب وخرج به وقام بامره وامر ابنه من بعده البربرية من اوربة ومغيلة وزناتة واستولى على ناحية المغربين ثم ازدادت الدولة تقلصا فاضطربت الاغالبية على الامتناع عليهم ثم خرج الشيعة وقام بامرهم كتامة وصنهاجة واستولوا على افريقية والمغرب ثم مصر والشام والحجاز وغلبوا على الادارسة وقسموا الدولة دولتين احريين وصارت الدولة العربية ثلاث دول دولة بنى العباس بمركز العرب واصلهم ومادة الاسلام ودولة بنى امية المجددين بالاندلس ملكهم القديم وخلافتهم بالمشرق ودولة العبيديين بافريقية ومصر والشام والحجاز ولم

تزل هذه الدول الى ان كان انقراضها متقارباً او جميعاً وكذلك انقسمت دولة بنى العباس بدول اخرى فكان بالجزيرة والموصل بنو حمدان وبنو عقيل بعدهم وبمصر والشام بنو طولون وبنو طنجج بعدهم وكان بالقاصية بنو سامان في ما وراء النهر وخراسان والعلوية في الديلم وطبرستان وآل ذلك الى استيلاء الديلم على فارس والعراقين وعلى بغداد والخلفاء ثم جاء الساجونية فملكوا جميع ذلك ثم انقسمت دولتهم ايضا بعد الاستفحال كما هو معروف في اخبارهم وكذلك اعتبره في دولة صنهاجة بالمغرب وافريقية لها بلغت الى غايتها ايام باديس بن المنصور وخرج عليه عمه حماد واقتطع ممالك المغرب لنفسه ما بين جبل اوراس الى تلمسان وملوية واختط القلعة بجبل كتامة (1) حيال الهسيلة ونزلها واستولى على مركزهم اشير بجبل تيطري واستحدث ملكا اخر قسيما (2) لملك آل باديس وبقي آل باديس بالقيروان وما اليها ولم يزل ذلك الى انقراض امرهما جميعاً وكذلك دولة الموحدين لما تقلص ظلها ثار بافريقية بنو ابي حفص فاستقلوا بها واستحدثوا ملكا لاعتقابهم بنواحيها ثم لها استفحل امرهم واستولى على الغاية خرج بالممالك الغربية من اعقابهم الامير ابو زكريا يحيى بن

(1) Man. A. et B. كباتة.

(2) Man. A. فيها. C. et D. قسيما.

السلطان ابنى اسحق ابراهيم رابع خلفائهم واستحدث ملكا بجاية وقسنطينة وما اليها اورثه بنيه وقسموا به الدولة قسمين ثم استولوا على كرسى الحضرة بتونس ثم انقسم الملك ما بين اعقابهم ثم عاد الاستيلاء فيهم وقد ينتهى الانقسام الى اكثر من دولتين وثلاثة فى غير اعياص الملك من قومه كما وقع فى ملك الطوائف بالاندلس وملوك العجم بالمشرق وفى ملك صنهاجة بافريقية فقد كان لآخر دولتهم فى كل حصن من حصون افريقية ثائر مستقل بامرهم كما نذكره وكذا حال الجريد والزاب من افريقية قبيل هذا العهد كما نذكره ايضا وهكذا شأن كل دولة لا بد وان تعرض فيها عوارض الهرم بالترف والدعة وتقلص ظل الغلب فيقتسم اعياصها او من يغلب من رجال دولتها الامر وتتعدد فيها الدول والله وارث الارض ومن عليها

فصل فى ان الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع

قد قدّمنا ذكر العوارض المؤذنة بالهرم واسبابه واحدا بعد واحد وبيّنا انها تحدث للدولة بالطبع وانها كلها امور طبيعىة لها واذا كان الهرم طبيعىا فى الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الامور الطبيعىة كما يحدث الهرم فى المزاج الحيوانى والهرم من الامراض المزمنة التى لا يمكن دواؤها

ولا ارتفاعها لما انه طبيعىّ والأمور الطبيعية لا تتبدّل وقد يتنبّه كثير من اهل الدول ممّن له يقظة فى السياسة فيرى ما نزل بدولتهم من عوارض الهرم واسبابه ويحسبه ممكن الارتفاع فيأخذ نفسه بتلافى الدولة واصلاح مزاجها عن ذلك الهرم ويظنّ انه لحقها لتقصير من قبله من اهل الدولة او غفلتهم ليس كذلك فانها امور طبيعية للدولة والعوائد هى المانعة من تلافياها والعوائد تتنزّل منزلة طبيعة اخرى فانّ من ادرك مثلاً اباة وكبراء اهل بيته يلبسون الحرير والديباج ويتحلّون بالذهب فى السلاح والهراكب ويحتجبون عن الناس فى المجالس والصلوات فلا يمكنه مخالفة سلفه فى ذلك الى الخشونة فى اللباس والزى والاختلاط بالناس اذ العوائد حينئذ تمنعه وتقبح عليه مرتكبه ولو فعله لرُمى بالجنون والوسواس فى الخروج عن العوائد دفعة وخشى عليه عائدة ذلك وعاقبته فى سلطانه وانظر شأن الانبياء فى انكار العوائد ومخالفتها لولا التأيّد الالهى والنصر السماوى (وربما) تكون العصبية قد ذهبت فتكون الآبهة تعوض عن موقعها من النفوس فاذا ازبلت تلك الآبهة مع ضعف العصبية تجاسرت الرعايا على الدولة بدوام اوهام الآبهة فتتدرّع الدولة بتلك الآبهة ما امكنها حتى ينقضى الامر وربما تحدث عند آخر الدولة قوة توهم ان الهرم قد ارتفع

عنها وبومض ذبالها ايماضة الخمود كما يقع في الذبال
المشتعل فانه عند مقاربة انطفائه يومض ايماضة توهم انها
اشتعال وهي انطفاء فاعتبر ذلك ولا تغفل سر الله وحكمته
في اطراد وجوده على ما قدر فيه فلكل اجل كتاب

فصل في كيفية طرق الخلل للدول

اعلم ان مبنى الملك على اساسين لا بدّ منهما فالاول
الشوكة والعصبية وهو الهبر عنه بالجند والثاني المال الذي
هو قوام اولئك الجند واقامة ما يحتاج اليه الملك من
الاحوال والخلل اذا طرق الدولة طرقها من هذين الاساسين
فلنذكر اولا طرق الخلل في الشوكة والعصبية ثم نرجع
الى طرقه في الهال والجبابة واعلم ان تهديد الدولة وتاسيسها
كما قلناه انما يكون في العصبية وانه لا بدّ من عصبية كبرى
جامعة للعصايب مستتعة لها وهي عصبية صاحب الدولة
الخاصة به من عشيره وقبيله فاذا جاءت للدولة طبيعة
الملك والترف وجدع انوف اهل العصبية كان اول ما يجده
انوف عشيره وذوى قرباه المقاسمين له في اسم الملك
فيشتدّ في جدع انوفهم بابلغ من سواهم وياخذهم الترف
ايضا اكثر من سواهم لكانهم من الملك والعز والغلب
فيحيط بهم هادمان وهما الترف والقهر ثم يصير القهر آخر

الى القتل لما يحصل من مرض قلوبهم عند رسوخ الملك
صاحب الامر فتنتقلب غيرته منهم الى الخوف على ملكه
فياخذهم بالقتل والاهانة وسلب النعمة والتصرف الذى
تعودوا الكثير منه فيهلكون ويقتلون وتفسد عصبية صاحب
الدولة منهم وهى العصبية الكبرى التى كان يجمع بها
العصائب ويستتبعها فتحل عروتها وتضعف شكيبتها ويستبدل
منها بالبطانة من موالى النعمة وصنائع الاحسان ويتخذ منهم
عصبية لا انها ليست مثل تلك فى شدة الشكيمة لفقدان
الرحم والقربة منها وقد كنا قدّمنا ان شأن العصبية وقوتها آتيا
هى بالقربة والرحم لما جعل الله فى ذلك فينفرد صاحب
الدولة عن العشير والانصار اهل النعمة الطبيعية ويحسّ
بذلك اهل العصائب الاخرى فيتجاسرون عليه وعلى بطانته
تجاسرا طبيعيا فيهلكهم صاحب الدولة ويتتبعهم بالقتل
واحدا بعد واحد وبقلد الاخر من اهل الدولة فى ذلك
الاول مع ما يكون قد نزل بهم من مهلكة الترف الذى
قدّمناه فيستولى عليهم الهلاك بالتلف والقتل حتى يخرجوا
عن صبغة تلك العصبية وينسوا نعرتها وسورتها ويصيروا
اجراء على الحماية ويقتلون لذلك فتقل الحماية التى تنزل
بالاطراف والشعور فتجاسر الرعايا على نقض الدعوة فى
الاطراف وتبادر الخوارج على الدولة من الاعياص وغيرهم الى

تلك الأطراف لما يرجون حينئذ من حصول غرضهم بمتابعة
 اهل القاصية لهم وامنهم من وصول الحامية اليهم ولا يزال
 ذلك يتدرج ونطاق الدولة يتضيق حتى تصير الخوارج في
 اقرب الاماكن الى مركز الدولة وربما انقسمت
 الدولة عند ذلك بدولتين او ثلاث على قدر قوتها
 في الاصل كما قلناه ويقوم بامرها غير اهل عصبيتها لكن
 ادعانا لاهل عصبيتها ولغلبهم المعهود (واعبر) هذا في دولة
 العرب في الاسلام انتهت اولا الى الاندلس والهند والصين
 وكان امر بني امية نافذا في جميع العرب بعصبية عبد
 مناف حتى لقد امر سليمان بن عبد الملك من دمشق
 بقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير بقرطبة فقتل ولم يرد
 امره ثم تلاشت عصبية بني امية بما اصابهم من التشرّف
 فانقرضوا وجاء بنو العباس ففصوا من اعنة بني هاشم وقتلوا
 الطالبين وشرّدوهم فانحلت عصبية عبد مناف وتلاشت
 ونجاسر العرب عليهم فاستبدّ عليهم اهل القاصية مثل بني
 الاغلب بافريقية واهل الاندلس وغيرهم وانقسمت الدولة ثم
 خرج بنو ادريس بالمغرب وقام البربر بامرهم ادعانا للعصبية
 التي لهم واما ان يصلهم مقاومة او حامية للدولة فاذا خرج
 الدعاة احرا فيتغلبون على الأطراف والقاصية ويحصل لهم
 هنالك دعوة وملك تنقسم به الدولة وربما يزيد ذلك متى

زادت الدولة تقلصا الى ان تنتهى الى المركز وتضعف
البطانة بعد ذلك بما اخذ منها الترف فتهلك وتضمحل
وتضعف الدولة المنقسمة كلها وربما طال امدها بعد ذلك
فتستغنى عن العصبية بما حصل لها من الصبغة فى نفوس
اهل اياتها وهى صبغة الانقياد والتسليم منذ السنين الطويلة
التي لا يعقل احد من الاحيال مبدأها ولا اوليتها فلا يعقلون
الا التسليم لصاحب الدولة فتستغنى بذلك عن قوة
العصائب ويكفى صاحبها فى تمهيد امرها الاجراء على الحماية
من جندى ومرترق ويعصد ذلك ما وقر فى النفوس
عامّة من عقيدة التسليم فلا يكاد احد ان يتصور عصيانا او
خروجا الا والجمهور منكرون عليه مخالفون له فلا يقدر على
التصدى لذلك ولو جهد جهده وربما كانت الدولة فى
هذا الحال اسلم من الخوارج والمنازعة لاستحكام صبغة التسليم
والانقياد لهم فلا تكاد النفوس تحدث سرّا بمخالفة ولا يحتاج
فى ضميرها انحراف عن الطاعة فتكون اسلم من الهرج
والانتفاض الذى يحدث بالعصائب والعشائر ثم لا يزال امر
الدولة كذلك وهى تتلاشى فى ذانها شأن الحرارة الغريزة
فى البدن العادم للغذا الى ان تنتهى الى وقتها المقدر
فلكل اجل كتاب ولكل دولة امد والله مقدر الليل والنهار
واما الخلل الذى يتطرق من جهة الشمال

فاعلم ان الدولة فى اولها تكون بدوثة كما مر فيكون لها خلق الفرق بالرعايا والقصد فى النفقات والتعفف عن الاموال فتستجافى عن الامعان فى الجباية والتخذلق والكيس فى جمع المال وحسبان العمال ولا داعية حينئذ الى الاسراف فى النفقة فلا تحتاج الدولة الى كثير المال ثم يحصل الاستيلاء ويعظم ويستفحل الملك فيدعو الى الترف وبكثر الانفاق بسببه فتعظم نفقات السلطان واهل الدولة على العموم بل يتعدى ذلك الى اهل المصر ويدعو ذلك الى الزيادة فى اعطيات الجند وارزاق اهل الدولة فيكثر الاسراف فى النفقات وينشر (١) ذلك فى الرعية لان الناس على دين الدولة وعوائدها ويحتاج السلطان الى ضرب المكوس على اثمان البىاعات فى الاسواق لادرار الجباية لما يراه من ترف المدينة الشاهد عليهم بالرفه ولما يحتاج هو اليه من نفقات سلطانه وارزاق جنده ثم تزيد عوائد التسرف فلا تفى بها المكوس وتكون الدولة قد استفحلت فى الاستطالة والقهر لمن تحت يدها من الرعايا فتمتد ايديهم الى جمع المال من اموال الرعايا من مكس او تجارة او تعد فى بعض الاحوال بشبهة او بغير شبهة ويكون الجند فى ذلك الطور قد تجاسروا على الدولة بما لحقها من الفشل

(١) Man. C. ينشر. D. ينشئ.

PROLÉGOMÈNES
Ebn-Khaldoun.

والهرم من العصبية فيتوقع ذلك منهم ويدأى تسكينه بافاضة العطاء وكثرة الانفاق فيهم ولا يجد عن ذلك وليجة ويكون جباة الاموال فى الدولة قد عظمت ثروتهم فى هذا الطور بكثرة الجباية وكونها بايديهم وربما اتسع لذلك من جاههم فتتوجه التهم اليهم باحتجان الاموال من الجباية وتنفشو السعاية فيهم بعضهم من بعض للمنافسة والحسد فتعتمهم النكبات والمصادرات واحدا بعد واحد الى ان نذهب ثروتهم وتتلاشى احوالهم ويفقد ما كان للدولة من الابهة والجمال بهم واذا أَصْطَلِمَتْ نعمهم تجاوزتهم الدولة الى اهل الثروة من الرعايا سواهم ويكون الوهن فى هذا الطور قد لحق الشوكة وضعت عن الاستطالة والقهر فتصرف سياسة صاحب الدولة حينئذ الى ادارة الامور ببذل المال وبراء انفع من السيف لقلّة عنايه فتعظم حاجته الى الاموال زيادة على النفقات وارزاق الجند ولا تغنى فيما يريد ويعظم الهرم بالدولة ويتجاسر عليها اهل النواحي والدول تتحل عراها فى كل طور من هذه الى ان تقضى الى الهلاك ويتعرض للاستيلاء الطلاب فان قصدها طالب انتزعها من ايدى القائمين بها والا بقيت وهى تتلاشى الى ان تصحّل كالذبال فى السراج اذا فنى زيتة وطفى والله تعالى مالك الامور ومدبّر الاكوان لا اله الا هو

فصل فى اتساع نطاق الدولة اولا الى نهايته ثم تضايقه طورا بعد طور الى فناء الدولة واضمحلالها

قد كان تقدم لنا فى فصل الخلافة والملك وهو الثالث من هذه المقدمة ان كل دولة لها حصة من الممالك والعمالات لا تزيد عليها واعتبر ذلك بتوزيع عصابة الدولة على حماية اقطارها وجهاتها فحيث نفذ عددهم فالطرف الذى انتهى عنده هو الثغر ويحيط بالدولة من سائر جهاتها كالنطاق وقد تكون النهاية هى نطاق الدولة الاول وقد يكون اوسع منه اذا كان عدد العصابة اوفر من الدولة قبلها وهذا كله عند ما تكون الدولة فى شعار البداوة وخشونة البأس فاذا استفحل العز والغلب وتوفرت النعم والارزاق بدرور الجبايات وزخر بحر الثوف والحضارة ونشأت الاجيال على اعتياد ذلك لطفت اخلاق الحامية ورقت حواشيمهم وعاد من ذلك الى نفوسهم هيات الحجب والكسل بما يعانونه من حنث الحضارة المؤدى الى الانسلاخ من شعار البأس والرجولية بمفارقة البداوة وخشونتها وباخذهم العز بالتطاول الى الرياسة والنزاع فيها فيفضى الى قتل بعضهم وبعضهم ويكبحهم السلطان عن ذلك بما يؤدى الى قتل اكابرهم واهلاك رؤسائهم فتفقد الامراء والكبراء وبكسر التابع والمرؤس فيقل

ذلك من حدّ الدولة ويكسر من شوكتها ويقع الخلل
 لأول في الدولة وهو الذي من جهة الجند والحامية كما
 تقدّم ويساق ذلك السرف في النفقات بما يعترهم
 من اتّبهة العزّ وتجاوز الحدود في البذخ بالمناعات في
 المطاعم واللباس وتشديد القصور واستجادة السلاح وارتباط
 الخيول فيقصر دخل الدولة حينئذ من خرجها ويطرق الخلل
 الثاني في الدولة وهو الذي من جهة المال والحباية
 وبحصل العجز والانتقاص بوجود الخللين وربما تنافس
 رؤسائهم فتنازعوا وعجزوا عن مغالبة المجاورين والهنازين
 ومدافعهم وربما اعتزّ أهل الشغور والأطراف بما يحسّون من
 ضعف الدولة ورائهم فيصرون الى الاستقلال والاستبداد بها
 في ايديهم من العملات ويعجز صاحب الدولة عن حملهم
 على الجادة فيضيق نطاق الدولة عمّا كانت انتهت اليه
 في أولها وترجع العناية في تدبيرهما بنطاق دونه الى ان
 يحدث في النطاق الثاني ما حدث في الأول بعينه من
 العجز والكسل في العصابة وقلة الاموال والحباية فيذهب القائم
 بالدولة الى تغيير القوانين التي كانت عليها سياسة الدولة
 في قبل الجند والمال والولايات ليجري حالها على استقامة
 بتكافؤ الدخل والخرج والحامية والعملات وتوزيع الحباية
 على الارزاق ومقايسة ذلك باول الدولة في سائر الاحوال

والمفاسد مع ذلك متوقعة من كل جهة فيحدث في هذا
الطور من بعد ما حدث في الاول من قبل ويعتبر صاحب
الدولة ما اعتبره الاول ويقايس بالوزان الاول احوالها الثانية
يروم دفع مفاسد الخلل الذي يتجدد في كل طور ويأخذ
من كل طرف حتى يضيق نطاقها الاخر الى نطاق دونه
كذلك ويقع فيه ما وقع في الاول وكل واحد من هؤلاء المغيرين
للقوانين قبلهم كانتهم منشؤون دولة اخرى ومجددون ملكا
حتى تنقرض الدولة وتطول الامم حولها الى التغلب
عليها وإنشاء دولة اخرى لهم فيقع من ذلك ما قدّر الله
وقوعه (واعبر) ذلك في الدولة الاسلاميّة كيف اتسع نطاقها
بالتفوحات والتغلب على الامم ثم تزايد الحماية وتكاثرت
عددهم بما تحوّلوه من النعم والارزاق الى ان انقرض امر بني
امية وغلب بنو العباس ثم تزايد الترف ونشأت الحضارة
وطرق الخلل فضاق النطاق من الاندلس والمغرب بحدوث
الدولة الامويّة المروانيّة والعلويّة واقتطعوا ذنبك الشغرين عن
نطاقها الى ان وقع الخلاف بين بنى الرشيد وظهر دعاة
العلويّة في كل جانب وتهددت لهم دول ثم قتل المتوكل
واستبد الامراء على الخلفاء وحجروهم واستقلّ الولاة بالعمالات
في الاطراف وانقطع الخراج منها وتزايد الترف وجاء
المعتصد فغير قوانين الدولة الى قانون اخر من السياسة

اقطع فيه ولاية الاطراف ما غلبوا عليه مثل بنى سامان وراء
النهر وبنى طاهر العراق وخراسان وبنى الصفار السند وفارس
وبنى طولون مصر وبنى الاغلب افريقية الى ان افترق امر
العرب وغلب العجم واستبد بنو بويه والديلم بدولة الاسلام
وحجروا الخلافة وبقي بنو سامان فى استبدادهم وراء النهر
وتطاول الفاطميون من المغرب الى مصر والشام فملكوه
ثم قامت الدولة الساجوقية من الترك فاستولوا على
ممالك الاسلام وابقوا الخلفاء فى حجرهم الى ان تلاشت
دولهم واستبد الخلفاء منذ عهد الناصر فى نطاق اضيق من
هالة القمر وهو عراق العرب الى اصبهان وفارس والبحرين
واقامت الدولة كذلك بعض الشئ الى ان انقرض امر
الخلفاء على يد هولاء بن طولى بن دوشى خان ملك
الططر والمغل حين غلبوا الساجوقية وملكوا ما كان فى
ايديهم من ممالك الاسلام وهكذا يتصايق نطاق كل دولة على
نسبة نطاقها الاول ولا يزال طورا بعد طور الى ان تنقرض الدولة
واعتبر ذلك فى كل دولة عظمت او صغرت فهكذا سنة الله
فى الدول الى ان يأتى ما قدر الله من الفناء على خلقه
وكل شئ هالك لا وجهه

فصل في حدوث الدول وتجددها كيف يقع

اعلم ان نشأة الدول وبدايتها اذا اخذت الدولة المستقرة في الهرم والانتقاص تكون على نوعين اما ان تستبد ولاية الاعمال في الدولة بالقاصية عند ما يتقلص ظلها عنهم فيكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وملك يستقر في نصابه ويرثه عنه ابناءؤه ومواليه ويستحل لهم الملك بالسدريج ورتما يزدهمون على ذلك الملك ويتقارعون عليه ويتنازعون في الاستيثار به ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على صاحبه وينزع ما في يده كما وقع في دولة بني العباس حين اخذت دولتهم في الهرم وتقلص ظلها عن القاصية فاستبدت بنو سامان بما وراء النهر وبنو حمدان بالهوصل والشام وبنو طولون بهصر وكما وقع في الدولة الاموية بالاندلس واقترق ملكها في الطوائف الذين كانوا ولائها في الاعمال وانقسمت دولا وملوكا اورثوها من بعدهم من قرابتهم او مواليهم وهذا النوع لا يكون بينهم وبين الدولة المستقرة حرب لانهم مستقرون في رياستهم ولا يطعمون في الاستيلاء على الدولة المستقرة واما الدولة ادركها الهرم فتقلص ظلها عن القاصية وعجزت عن الوصول اليها والنوع الثاني بان يخرج على الدولة خارج ممن يجارها من الامم والقبائل اما بدعوة يحمل الناس عليها

كما اشرنا اليه او بان يكون صاحب شوكة وعصبية كثيرا في قومه قد استفحل امره فيهم فيسمو بهم الى الملك وقد حدثوا به انفسهم بما حصل لهم من الاعتزاز على الدولة المستقرة وما نزل بها من الهرم فينتعين له ولقومه الاستيلاء عليها ويمارسونها بالمطالبة الى ان يظفروا بها ويرثون امرها كما وقع للساجوقية مع بنى سبكككين ولبنى مريين بالمغرب مع الموحددين والله غالب على امره

فصل في ان الدولة المستجدة انما تستولى على الدولة المستقرة بالمطالبة لا بالمناجزة

قد ذكرنا ان الدول الحادثة المتجددة نوعان نوع من ولاية الاطراف اذا تقلص ظل الدولة عنهم وانحسر نيارها وهؤلاء لا تنفع منهم مطالبة للدولة في الاكثر كما قدمناه لان قصاراهم القنوع بما في ايديهم وهو نهاية قوتهم والنوع الثانى نوع الدعاة والخوارج على الدولة وهؤلاء لا بد لهم من الهطالبة لان قوتهم وافية بها فان ذلك انما يكون في نصاب يكون له من العصبية والاعتزاز ما هو كفاء ذلك ووافى به فيقع بينهم وبين الدولة المستقرة حروب سجال تتكرر وتتصل الى ان يقع لهم الاستيلاء والظفر بالمطالبة ولا يحصل لهم فى الغالب ظفر بالمناجزة والسبب فى ذلك ان

الظفر فى الحروب انما يقع غالبا كها قدّمناه بامور نفسانيّة
وهيّة وان كان العدد والسلاح وصدق القتال كفيلا به لكنّه
قاصر مع تلك الامور الوهيّة كها مرّ ولذلك كان الخداع
من انفع ما يستعمل فى الحرب واكثر ما يقع الظفر به
وفى الحديث الحرب خدعة والدولة المستقرّة قد صيّرت
العوائد المألوفة طاعتها ضرورة واجبة كما تقدّم فى غير
موضع فتكثر بذلك العوائق لصاحب الدولة المستجدة
ويكسر من همم اتباعه واهل شوكنه وان كان الاقربون
من بطانته على بصيرة فى طاعته وموازرتة الا ان الاخرين
اكثر وقد داخلهم الفشل والكسل بتلك العقائد فى التسليم للدولة
المستقرّة فيحصل الفتور منهم ولا يكاد صاحب الدولة
المستجدة لذلك يقاوم صاحب الدولة المستقرّة فيرجع
الى الصبر والمطاولّة حتى يتضح هرم الدولة المستقرّة
فتضمحل عقائد التسليم لها من قومه وتنبعث منهم الهمم
لصدق المطالبة معه فيقع الظفر والاستيلاء وايضا فالدولة
المستقرّة كثيرة الترف بما استحکم لهم من الملك
وتسوّغوه من النعم واللذات واختصّوا به دون غيرهم من
اموال الحباية فيكثر عندهم ارتباط الخيول واستجادة الاسلحة
ونعظم فيهم الاتّبهة الملكيّة وبفيض العطاء بينهم من ملوكهم
اختيارا واضطرازا فيرهبون بذلك كلّه عدوّهم واهل الدولة

المستجدة بم عزل عن ذلك لما هم فيه من البداوة واحوال
الفقر والخصاصة التي يفقد معها الاستعداد من ذلك
فيسبق الى قلوبهم اوهاهم الرعب لما يبلغهم عن احوال الدولة
المستقرة وكثرة استعدادها ويحجمون عن قتالهم من اجل
ذلك فيضطر اميرهم الى المطاولة حتى تأخذ الدولة
المستقرة مأخذها من الهرم ويستحكم الخلل فيها في العصبية
والجباية فينتهز حينئذ صاحب الدولة المستجدة فرصته في
الاستيلاء عليها بعد حين منذ المطالبة سنة الله في عباده
وايضا فاهل الدولة المستجدة كلهم مباينون لاهل الدولة
المستقرة بانسابهم وعوائدهم وفي سائر مناحيهم ثم منافرون
لهم ومنابذون بما وقع من هذه المطالبة ويطمعهم في
الاستيلاء عليهم فتتمكن المبادعة بين اهل الدولتين سرا
وجها ولا يصل الى اهل الدولة المستجدة خبر عن اهل
الدولة المستقرة يصيبون به غرة فيهم باطنا ولا ظاهرا لانقطاع
المداخلة بين الدولتين فيقيمون على المطالبة وهم معها في
اجسام ونكول عن المناجزة حتى اذا نادى الله بزوال الدولة
المستقرة ونفاد عمرها ووفور الخلل في جميع جهاتها واتضح
لاهل الدولة المستجدة مع الايام ما كان يخفى عنهم من
هرمها وتلاشيها وقد عظمت قوتهم بما اقتطعوه من اعمالها
ونقصوه من اطرافها فتنبعث همهم يدا واحدة للمناجزة

وبذهب ما كان يفت في عزائمهم من التوهّمات وتنتهى المطاولة الى حدّها ويقع الاستيلاء آخرها بالمناجزة واعتبر ذلك فى دولة بنى العباس عند ظهورها وبدايتها كيف اقام الشيعة بخراسان بعد انعقاد الدعوة واجتماعهم على المطالبة عشر سنين او تزيد وحينئذ تمّ لهم الظفر واستولوا على الدولة الاموية وكذا العلوية بطبرستان عند ظهور دعوتهم فى الديلم كيف كانت مطاولتهم حتى استولوا على تلك الناحية ثم لما انقضى امر العلوية وسما الديلم الى ملك فارس والعراقيين فهكشوا سنين كثيرة يطاولون حتى اقتطعوا اصبهان وفارس ثم استولوا على الخليفة ببغداد (وكذا العبيديون اقام داعيتهم بالمغرب ابو عبد الله الشيعي بين كنامة من قبائل البربر عشر سنين وتزيد يطاول بنى الاغلب بافريقية حتى ظفر بهم واستولوا على المغرب كله ثم سمو الى ملك مصر فمكثوا ثلاثين سنة او نحوها فى طلبها يجهزون اليها العساكر والاساطيل فى كل وقت ويحجى المدد لهدافتهم برا وبحرا من بغداد والشام وملكوا الاسكندرية والفيوم والصعيد وتخطت دعوتهم من هنالك الى الحجاز واقبضت بالحرمين ثم نازل قائدهم جوهر الكاتب بعساكره مدينة مصر واستولى عليها واقتلع دولة بنى طنج من اصولها واختط القاهرة فجاء خليفته معد المعز لدين الله فنزلها لستين سنة

او يحوها منذ استيلائهم على الاسكندرية (وكذا) الساجوقية ملوك الترك لما استولوا على بنى سامان واجازوا من وراء النهر مكثوا نحواً من ثلاثين سنة يطاولون ابن سبكتكين بخراسان حتى استولوا على دولته ثم زحفوا الى بغداد وعلى الخليفة بعد ايام من الدهر وكذا الططر من بعدهم خرجوا من المفازة اعوام سبعة عشر وستماية فلم يتم لهم الاستيلاء الا بعد اربعين سنة (وكذا) اهل المغرب خرج بهم المرابطون من لمتونة على ملوكهم من مغراوة فطاولوهم سنين حتى استولوا عليهم (ثم) خرج الموحدون بدعوتهم على لمتونة فمكثوا نحواً من ثلاثين سنة يحاربونهم حتى استولوا على كرسيمهم بهراكش وكذا بنو مرين من زنانة خرجوا على الموحدين فمكثوا يطاولونهم نحواً من ثلاثين سنة واسنولوا على فاس واقتطعوها واعمالها من ملكهم ثم اقاموا في محاربتهم ثلاثين اخرى حتى استولوا على كرسيمهم بهراكش حسبما ذلك كله مذكور في تواريج هذه الدول (فهكذا) حال الدول المستجدة مع المستقرة في المطالبة والبطولة سنة الله في عباده ولن نجد لسنة الله تبديلاً (ولا يعترض ذلك بما وقع في الفتوحات الاسلامية وكيف كان الاستيلاء على فارس والروم لثلاث او اربع من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم واعلم ان ذلك انها كان معجزة من معجزات نبينا صلى الله

عليه وسلم سرقا استهانة المسلمين في جهاد عدوهم استبصارا (١)
بالايمان من غير مطاولة وما اوقع الله في قلوب عدوهم
كفى ذلك من الرعب والتخاذل فكان ذلك كله خارقا للعادة
المعلومة في مطاولة الدولة المستجدة المستقرة واذا كان
ذلك خارقا فهو من معجزات نبينا صلوات الله وسلامه
عليه المتعارف ظهورها في الملة الاسلاميّة والمعجزات
لا يقاس عليها الامور العادية ولا يعترض بها

فصل في وفور العمران اواخر الدول وما يقع فيها من كثرة
الموتان والمجاعات

انه قد تقرر لك فيما سلف ان الدول في اول امرها لا بد
من الرفق في ملكتها والاعتدال في ايمانها اما من الدين
ان كانت الدعوة دينية او من المكارمة والمحاسنة التي
يقتضيها البداوة الطبيعيّة للدول واذا كانت الملكة ريفية
محسنة انبسطت آمال الرعايا وانتشطوا للعمار. واسباب
فتور وكثر التناسل واذا كان ذلك كله بالتدرج فانها بظهر
اثره بعد جيل او جيلين في الاقل وفي انقضاء الجيلين
تشرف الدولة على نهاية امرها الطبيعي فيكون حينئذ
العمران في غاية الوفور والنماء ولا تقولن انه قد مرّ لك

(١) استبصارا (١) Man D.

ان اواخر الدول يكون فيها الاحجاف بالرعايا وسوء الملكة
فذلك صحيح ولا يعارض ما قلناه لان الاحجاف وان
حدث حينئذ وقلت الحجايات فانما يظهر اثره في تناقص
ال عمران بعد حين من اجل التدريج في الامور الطبيعية (ثم)
ان المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في اواخر الدول
والسبب فيه اما المجاعات فلقبض الناس ايديهم عن الفلاح
في الاكثر بسبب ما يقع في اواخر الدول من العدوان
في الاموال والحجايات والبياعات بالمكوس او من الفتن
الواقعة في انتقاص الرعايا وكثرة الخواارج لهم الدولة
فيقل احتكار الزرع غالبا وليس صلاح الزرع وثمرته بمستمّر
الوجود ولا على وتيرة واحدة فطبيعة العالم في كثرة الامطار
وقلتها مختلفة والمطر يقوى ويضعف ويقل ويكثر الزرع
والثمار والضرع على نسبته الا ان الناس وانفقون في اقواتهم
بالاحتكار فاذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فعلى
الزرع وعجز عنه اولو الخصاصة فهلكوا او كان بعض
السنوات والاحتكار مفقود فشمّل الناس الجوع (واما) كثرة
الموتان فلها اسباب من كثرة المجاعات كما ذكرناه او
كثرة الفتن لاختلال الدول فيكثر الهرج والقتل او وقوع الوباء
وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه
من العفن والرطوبات الفاسدة واذا فسد الهواء وهو غذاء

الروح الحيوانى وملابسه دايمًا فيسرى الفساد الى مزاجه فان كان الفساد قوتًا وقع المرض فى الربة وهذه هى الطواعين وامراضها مخصوصة بالربة وان كان الفساد دون القوى والكثير فيكثر العفن به ويتضاعف فتكثر الحميات فى الامزجة وتمرض الابدان وتهلك وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة فى هذا كله كثرة العمران ووفرة آخر الدولة بما كان فى اوائها من حسن الملكة ورفقها وعظم الحماية وقلة المغرم وهو ظاهر ولهذا تبين فى موضعه فى الحكمة ان تخلل الخلاء والفقر بين العمران ضرورى ليكون نمّج الهواء يذهب بما يحصل فى الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات ويبانى بالهواء الصحيح ولهذا ايضا فان الموتان يكون فى المدن الوفيرة العمران اكثر من غيرها بكثير كمصر بالمشرق وفاس بالمغرب والله يقدر ما يشاء

فصل فى ان العمران البشرى لا بد له من سياسة
ينتظم بها امره

انه قد تقدم لنا فى غير موضع ان الاجتماع البشرى ضرورى وهو معنى العمران الذى نتكلم فيه وانه لا بد لهم فى الاجتماع من وازع وحاكم يرجعون اليه وحكمه فيهم تارة يكون مستندا الى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادهم اليه وايمانهم

بالشواب والعقاب الذى جاء به مبلغه وتارة الى سياسة عقلية يوجب انقيادهم اليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم فالاولى يحصل نفعها فى الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصالح فى العاقبة ولمراعاته نجاة العباد فى الآخرة والثانية انما يحصل نفعها فى الدنيا فقط وما تسمعه من السياسة المدنية فليس من هذا الباب وانما معناه عند الحكماء ما يجب ان يكون عليه كل واحد من اهل ذلك المجتمع فى نفسه وخلقه حتى يستغفوا عن الحكم رأسا ويسمون المجتمع الذى يحصل فيه ما ينبغى من ذلك بالمدينة الفاضلة والقوانين المراعاة فى ذلك بالسياسة المدنية وليس مرادهم السياسة التى يحمل عليها اهل الاجتماع بالاحكام للمصالح العامة فان هذه غير تلك وهذه المدينة الفاضلة عندهم نادرة او بعيدة الوقوع وانما يتكلمون عليها على جهة الفرض والنقد (ثم) ان السياسة العقلية التى قدمناها تكون على وجهين احدهما تراعى فيه المصالح على العموم ومصالح السلطان فى استقامة ملكه على الخصوص وهذه كانت سياسة الفرس وهى على وجه الحكمة وقد اغنانا الله عنها فى الهلّة ولعهد الخلافة لان احكام الشريعة مغنية عنها فى المصالح العامة والخاصة والآداب واحكام الملوك مندرجة فيها الوجه الثانى ان تراعى فيها

مصلحة السلطان وكيف يستقيم فيه الملك مع القهر والاستطالة ونكون المصالح العامة في هذه تبعاً وهذه السياسة هي التي لسائر الملوك في العالم من مسلم وكافر إلا أن ملوك المسلمين يجرون منها على ما تقتضيه الشريعة الإسلامية بحسب جهدهم فقوانينها اذن مجمعة من احكام شرعية وآداب خلقية وقوانين في الاجتماع طبيعية واشياء من مراعاة الشوكة والعصبية ضرورية والاقتداء فيها بالشرع اولائم بالحكماء في آدابهم والملوك في سيرهم ومن احسن ما كتب في ذلك واوعبه كتاب طاهر بن الحسين قائد الهامون لابنه عبد الله بن طاهر لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما (فكتب) اليه ابوه طاهر كتابه المشهور عهد اليه فيه ووصاه بجميع ما يحتاج اليه في دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية والسياسات الشرعية والملوكية وحثه على مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغنى عنه ملك ولا سوقة ونص الكتاب منقولاً من كتاب الطبري وهو هذا بسم الله الرحمن الرحيم اما بعد فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته عز وجل ومزايله سخطه وحفظ رعيتك في الليل والنهار والنزوم ما البسك الله من العافية بالذكر لمعاذك وما انت سائر اليه وموقوف عليه ومسؤول عنه والعهل في ذلك كله بما يعصمك الله

عز وجل وينحيك يوم القيامة عن عقابه واليم عذابه فان الله سبحانه قد احسن اليك واوجب عليك الرأفة بمن استرعاك امرهم من عباده والزمك العدل فيهم والقيام بحقه وحدوده عليهم والذب عنهم والدفع عن حريمهم وبيضتهم والحقن لدمائهم والامن لسلهم وادخال الراحة عليهم ومواخذك بما فرض عليك وموقفك عليه ومسائلك عنه ومثيبك عليه بما قدمت واخرت وفرغ لذلك فهمك وعقلك وبصرك ولا يشغلك عنه شاغل فانه رأس امرك وملاك شأنك واول ما يوفقك الله عز وجل به لرشدك وليكن اول ما تلزم به نفسك وتنسب اليه فعلك المواظبة على ما افترض الله عز وجل عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك وتوقعها على سننها في اسباع الوضوء لها وافتتاح ذكر الله عز وجل فيها وترتل في قرائتك وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك ولتصدق فيها لربك نيتك واحضض عليها جماعة من معك وتحت يدك وادب عليها فانها كما قال الله عز وجل تنهى عن الفحشاء والنكرثم انبع ذلك بالاحذ بسنن رسول الله صلعم والمثابة على خلائقه واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده واذا ورد عليك امر فاستعن عليه باستخارة الله عز وجل وتقواه وبلزوم ما انزل الله عز وجل في كتابه من

أمره ونهيه وحلاله وحرامه وإتهام ما جاءت به الآثار عن رسول الله صلعم ثم قم فيه بما يحقّ الله عزّ وجلّ عليك ولا تميلن عن العدل فيما احسبت أو كرهت لقريب من الناس أو بعيد وآثر الفقهاء وأهله والدين وحملته وكتاب الله عزّ وجلّ والعالمين به فإن أفضل ما تزين به المرء الفقه في الدين والطلب له والحثّ عليه والمعرفة بما يتقرّب به منه إلى الله عزّ وجلّ فإنه الدليل على الخير كله والقائد إليه وأمر به والنهي عن المعاصي والموبقات كلّها وبها مع توفيق الله عزّ وجلّ يزداد العبد معرفة له واجلالاً له ودركاً للدرجات العلى في المعاد مع ما في ظهوره للناس من التوقير لامرئ والهيبة لسلطانك والانسنة بك والشقة بعدلك وعليك بالاقتصاد في الأمور كلّها فليس شيء أبين نفعاً ولا احضراً منا ولا اجمع فضلاً منه والقصد داعية إلى الرشد والرشد دليل على التوفيق والتوفيق قائد إلى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد فأثره في دنياك كلّها ولا تنصر في طلب الآخرة والأعمال الصالحة والسنن المعروفة ومعالم الرشد ولا غاية للاستكثار في البرّ والسعي له إذا كان بطلب به وجه الله تعالى ومرضاته ومرافقة أولياء الله تعالى في دار كرامته واعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العزّ ويحصن من الذنوب وأنتك لمن تحوط نفسك ومرتبستك

ولا تستصالح امورك بافضل منه فإنه واهتد به تتم امورك
ونزبد مقدرك وتصالح خاصتك وعامتك واحسن ظنك
بالله عز وجل تستقم لك رعتك والنمس الوسيلة اليه في
الامور كلها تستدم به النعمة عليك ولا تتهمن احدا من
الناس فيما توليه من عملك قبل ان تكشف امره فان
ايقاع التهم بالبراء والظنون السئة بهم مائم فاجعل من
شأنك حسن الظن باصحابك واطرد عنك سوء الظن
بهم وارفصه فيهم يغيبك ذلك عن اصطناعهم رايضتهم
ولا يجدن عدو الله الشيطان في امرك مغمزا فانه انما
يكتفى بالقليل من وهنك فيدخل عليك من الغم في
سوء الظن ما ينقص لذاذة عيشك واعلم انك نجد بحسن
الظن قوة وراحة وتكتفى به ما احسبت كفايته من امورك
وندعو به الناس الى محبتك والاستقامة في الامور كلها
ولا يمتنعك حسن الظن باصحابك والرافة برعتك ان
ستعمل المسئلة والبحث عن امورك والمباشرة لامور الاولياء
والحيطة للرعية والنظر فيما يقيها وبصاحبها بل تكن المباشرة
لامور الاولياء والحيطة للرعية في النظر في حوائجهم وحمل
مؤناتهم آثر عندك ما سوى ذلك فانه اقوم للدين واحيا
للسنة واخلص نيتك في جميع هذا وتفرد بتقويم نفسك
تفرد من يعلم انه مسئول عما صنع ومجزى بما احسن

وماخوذ بما اساء فان الله عز وجل جعل الدين عزًا وحرزًا
ورفع من انبعه وعززه فاسلك بمن تسوسه وترعاه نهج
الدين وطريق الهدى واقم حدود الله تعالى في اصحاب
الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ولا تعطل ذلك
ولا تشهاون فيه ولا تتوخر عقوبة اهل العقوبات فان في
تفريطك في ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك واعزم
على امرك في ذلك بالسنن المعروفة وجانب البدع
والشبهات يسلم لك دينك وتقم مروءتك واذا عاهدت
عهدا فف به واذا وعدت الخير فانجزه واقبل الحسنة
وادفع بها واغضض عن كل عيب ذى عيب من رعيته
واسدد لسانك عن قول الكذب والزور وابغض اهل النيمة
فان فساد امورك فى عاجلها وآجلها تقرب الكذب
والجراءة على الكذب لان الكذب رأس المائم والزور والنيمة
خائنتها لان النيمة لا يسلم صاحبها وقابلها لا يسلم له صاحب
ولا يستقيم لطبعها امر وأجب امر الصلاح والصدق واعن
الاشراف بالحق وواصل الضعفاء وصل الرحم واتبع بذلك
وجه الله تعالى واعزاز امره والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة
واجتنب سوء الاهواء والجور واصرف عنهما رايتك واطهر
برأتك لرعيته وانعم بالعدل سياستهم وقم بالحق فيهم
وبالمعرفة التى تنتهى بك الى سبيل الهدى وامسك

نفسك عن الغضب وآثر الوقار والحلم وإياك والحدة والطيش والغرور فيما انت بسبيله وإياك ان تقول انا مسلط افعل ما اشاء فان ذلك سريع فيك الى نقص الرأى وقلة اليقين بالله وحده لا شريك له واخلص لله النية فيه واليقين به واعلم ان الملك لله يؤتبه من يشاء وينزعه ممن يشاء ولن تجد تغيير النعمة وحلول النعمة الى احد اسرع منه الى جهلة النعمة من اصحاب السلطان والمبسوط لهم فى الدولة اذا كفروا نعم الله عز وجل واحسانه واستطالوا بها اتاهم الله عز وجل من فضله ودع عنك شره نفسك ولتكن ذخائرك وكنوزك التى تذخر وتكثر البر والتقوى والعدل واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم والنفقة لامورهم والحفظ لدمائهم ولاغاثة لملهمهم واعلم ان الاموال اذا كشرت وذخرت فى الخزائن لا تثمر واذا كانت فى صلاح الرعية واعطاء حقوقهم وكفى المؤنة عنهم نمت وزكت وصاححت العانة وتزيتت به الولاة وطاب الزمان واعتقد فيه العز والمنة فليكن كنز خزائرك تفريق الاموال فى عمارة الاسلام واهله وفرق منه على اولياء امير المؤمنين قبلك حقوقهم واوف رعتك من ذلك حصصهم وتعهد ما يصلح امورهم ومعاشهم فانك اذا فعلت ذلك قرت النعمة عليك واستوجب المزيدي من الله تعالى وكنت بذلك فى جباية

خارجك وجمع اموال رعيّتك وعملك اقدر وكان الجميع
لما شملهم من عدلك واحسانك اسكن لطاعتك واطيب
نفسا بكل ما اردت فاجهد نفسك بما حددت لك في
هذا الباب وليعظم خشيتك فيه فانما يبقى من الهال ما
انفق في سبيل الله حقّه واعرف للشاكرين شكرهم
وانبههم عليه واياك ان تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة
فتتهاون بما يحقّ عليك فانّ التهاون يورث التفریط
والتفریط يورث البوار وليكن عملك لله عزّ وجلّ وارج الثواب
فان الله سبحانه قد اسبغ عليك نعمته في الدنيا واطهر
لديك فضله واعتصم بالشكر وعليه فاعتمد يزدك الله خيرا
واحسانا فان الله عزّ وجلّ يشيب بقدر شكر الشاكرين
وسيرة المحسنين وقضى الحقّ فيما حمل من النعم والبس
من الكرامة ولا تحقرن ذنبا ولا تمالين حاسدا ولا ترحمن
فاجرا ولا تصلن كفورا ولا تدهنن عدوا ولا تصدقن نماما
ولا تأمنن غدارا ولا توالين فاسقا ولا نتبعن غاويا ولا نحمدن
مراثيا ولا تحقرن انسانا ولا تردن سائلا فقيرا ولا تحسنن
باطلا ولا تلاحظن مضحكا ولا تخلفن موعدا ولا ترهبن فخرا
ولا تظهرن غضبا ولا تأنين بذخا ولا تمشين مراحا ولا نركبن
سفها ولا تفرطن في طلب الآخرة ولا تدفع الايام عتابا
ولا تغمضن عن ظالم رهبة منه او سحابة ولا تطلبن ثواب

الآخرة في الدنيا واكثر مشاورة الفقهاء واستعمل نفسك
بالحلم وخذ عن اهل التجارب وذوى العقل والرأى
والحكمة ولا تدخلن في مشورتك اهل الرفه والبخل
ولا تسمعن لهم قولا فان ضررهم اكثر من نفعهم وليس شئ
اسرع فسادا لما استقبلت فيه امر رعيّتك من الشّخ واعلم
انك اذا كنت حريصا كنت كثير الاخذ قليل العطية
واذا كنت كذلك لم يستقم لك امرك الا قليلا فان
رعيّتك انها تعتقد على محبّتك بالكف عن اموالهم
وترك الجور عليهم ووال من صفا لك (1) من اوليائك
بالافضال عليهم وحسن العطية لهم فاجتنب الشّخ واعلم
انه اول ما عصى به الانسان ربه وان العاصى بمنزلة خزي
وهو قول الله عز وجل ومن يوق شخ نفسه فاولئك هم
المفاحسون فسهّل طريق الجور بالحق واجعل للمسلمين
كلهم من فيئك حظا وايقن ان الجود من افضل اعمال
العباد فاعدده لنفسك خلقا وسهّل طريق الجور بالحق
وارض به عيلا ومذهبا وتفقد الجند في دوائهم ومكاتبهم
وأدر (2) عليهم ارزاقهم ووسّع عليهم في معاشهم ليذهب الله
عز وجل بذلك فافتهم فيقوى لك امرهم وتزيد قلوبهم
في طاعتك وامرك خلوصا وانشراحا وحسب ذى السلطان

(1) M. C. et D. يدوم صفاء اوليائك لك.

(2) M. A. B. et C. ادر.

من السعادة ان يكون على جنده ورعيته رحمة فى عدله
وحيطته وانصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته فزايل مكروه
احد البابين باستشعار فضيلة الباب الاخر ولزوم العمل به
تلق ان شاء الله نجاحا وصلاحا وفلاحا واعلم ان القضاء
من الله تعالى بالمكان الذى ليس به شئ من الامور لانه
ميزان الله الذى تعدل عليه احوال الناس فى الارض
وباقامة الفضل والعدل فى القضاء تصالح احوال الرعية وتامن
السبل وينتصف المظلوم ممن ظلم وتأخذ الناس حقوقهم
وتحصن المعيشة وتؤدى حق الطاعة ويرزق الله العافية
والسلامة ويقوم الدين وتجرى السنن والشرائع على مجاريها
بتنجزير الحق فى القضاء واشتد فى امر الله عز وجل وتورع
من التطفيف وامض لاقامة الحدود واقلل العجلة وابعد
عن الضجر والقلق واقنع بالقسم وليسكن ربحك ويقر
حدك وانتفع بتجربتك وانتبه فى صمتك واشدد فى
منطقك وانصف الخصم وقف عند الشبهة وابلغ فى الحجّة
ولا تاخذك فى احد من رعيّتك محاباة ولا مجاملة
ولا لومة لائم وتثبت وتأنّ وراقب وانظر وتفكر وتدبر واعتبر
وتواضع لرّبك وارفق بجميع الرعية وسلط الحق على
نفسك ولا تسرع الى سفك دم فانّ الدماء من الله عز
وجلّ بمكان عظيم انتهاكها بغير حقها وانظر هذا الخراج الذى

استقامت عليه الرعية وجعله الله للاسلام عزا ورفعته ولاهله
توسعة ومنعة ولعدوهم كبتا وغيظا ولاهل الكفر من
معاهدتهم ذلا وصغارا فوزعه بين اصحابه بالحق والعدل
والتسوية والعموم فيه ولا ترفعن منه شئا عن شريف لشرفه
وعن غنى لغناه ولا عن كاتب لك ولا عن احد من
خاصتك ولا حاشيتك ولا تاخذن منه فوق الاحتمال ولا
نكلفن امرا فيه شططا واحمل الناس كلهم على مراحق فان
ذلك اجمع لالفتهم والزم لرضاء العامة واعلم انك جعلت
بولايته خازنا وحافظا وراعيا وانما سمي اهل عملك
رعيتك لانك راعيتهم وقيمهم فخذ منهم ما اعطوك من عفوهم
وتنفذه في قوام امرهم وصلاحهم وتقويم اودهم واستعمل عليهم
ذوى الراى والتدبير والتجربة والخبرة والعلم بالسياسة
والعفاف ووسع عليهم في الرزق فان ذلك من الحقوق
للارمة لك فيما تقلدت واسند اليك ولا يشغلنك عنه
شاغل ولا بصرفنك عنه صرف فانك متى اترنه وقمت
فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسن
الاحدوثة في عملك واجتررت (١) به المحبة من رعيتك
واعنت على الصلاح فدرت الخيرات ببلدك وفشت
العمرة بناحيته وظهر الخصب في كوكوك وكثر خراجك

(١) حرزت. (Man. D.)

وتوفرت أموالك وقويت بذلك على ارتضاء جندك
وارضاء العامة بافاضة العطاء فيهم من نفسك وكنت مجود
السياسة مرضى العدل في ذلك عند عدوك وكنت في
امورك كلها ذا عدل وآلة وقوة وعدة فنافس في هذا ولا
نقدم عليه شئاً تحمد مغبة امرك ان شاء الله واجعل في
كل كورة من عملك امينا يخبرك اخبار عمالك
ويكتب لك بسيرهم واعمالهم حتى كانتك مع كل عامل
في عمله معين لأموره كلها وان اردت ان تأمرهم بنامر
فانظر في عواقب ما اردت من ذلك فان رايت السلامة
فيه والعافية ورجوت فيه حسن الدفاع والنصح والصنع فأمره
وآلا فتوقف عنه وراجع اهل البصر والعلم به ثم خذ فيه
عدنه فانه ربما نظر الرجل في امر من امره وقد اناه على ما
يهوى فاغواه ذلك واعجبه فان لم ينظر في عواقبه اهلكه
ونقص عليه امره فاستعمل الحزم في كل ما اردت وباشره
بعد عون الله بالقوة واكثر من استخارة ربك في جميع
امورك وافزع من عمل يومك ولا تؤخره واكثر مباشرته
بنفسك فان لعد امورا وحوادث تلهيك عن عمل يومك
الذي اخترت واعلم ان اليوم اذا مضى ذهب ما فيه فاذا
أخترت عمله اجتمع عليك عمل يومين فيثقلك ذلك
حتى تمرض منه واذا امضيت لكل يوم عمله ارحت بدنك

ونفسك واحكمت امور سلطانك وانظر احرار الناس وذوى
السن منهم فمن تستيقن صفاء طوبيتهم وشهدت موذتهم لك
ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على امرك فاستخلصهم
واحسن اليهم وتعاهد اهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم
الحاجة فاحتمل مؤنتهم واصالح حالهم حتى لا يجدوا
لخلتهم مساً وافرد نفسك للنظر فى امور الفقراء والمساكين
ومن لا يقدر على رفع مظلمته اليك والمحتقر الذى لا علم
له بطلب حقه فسئل له عنه اخفى مسئلة ووكل بامثاله
اهل الصلاح من رعيتك وهرهم برفع حوائجهم وحالاتهم
البك لتنظر فيها بما يصالح الله به امرهم وتعاهد ذوى
البأساء ويتامهم واراملهم واجعل لهم ارزاقاً من بيت الهال
اقتداء بامير المؤمنين اعزه الله تعالى فى العطف عليهم
والصلة لهم ليصالح الله تعالى بذلك عيشهم ويرزقك
الله به بركة وزيادة وأجر للاضراء من بيت المال وقدم
حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره فى الجبرية على
غيرهم وانصب لمرضى المسلمين دوراً تؤويهم وقواماً يرفقون
بهم واطباء يعالجون اسقامهم واسعفهم بشهواتهم ما لم يؤد
ذلك الى سرف فى بيت المال واعلم ان الناس اذا
اعطوا حقوقهم وافضل امانيتهم لم يرضهم ذلك ولم تطب
انفسهم دون رفع حوائجهم الى ولايتهم طمعا فى نيل الزيادة

وفضل الرفق منهم ورتباً يبرم المتصفح لامور الناس لكثرة ما يرد عليه ويشغل ذهنه وفكره فيها ممّا يناله به مؤنة ومشقة وليس من يرغب في العدل ويعرف محاسن امسوره في العاجل وفصل ثواب الآجل كالذي يستقبل ما يقربه الى الله ويلتمس رحمته فاكثر الاذن للناس عليك وأرهم وابرز لهم وجهك سكن لهم حراسك وانخفض لهم جناحك واطهر لهم بشرتك ولن لهم في المسئلة والنطق واعطوهم عليهم بجودك وفصلك واذا اعطيت فاعط بسماحة وطيب نفس والتماس للصنيعة والاجر من غير تكدير ولا امتنان فان العطية على ذلك تجارة مربحة ان شاء الله تعالى واعتبر بها ترى من امور الدنيا ومن مضى من قبلك من اهل السلطان والرياسة في القرون الخالية والامم البائدة ثم اعتصم في احوالك كلها بامر الله سبحانه وتعالى والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسنته واقامة دينه وكتابته واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا الى سخط الله واعرف ما يجمع عمالك من الاموال وينفقون منها ولا تجمع حراما ولا تنفق اسرافا واكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم وليكن هواك اتباع السنن واقامتها وايتار مكارم الاخلاق ومعاليها وليكن اكرم دخلائك عليك وخاصتك عليك من اذا راى عيبا فيك فلا تمنعه هيبتك

من انهاء ذلك اليك فى سرّ واعلامك ما فيه من النص
فان اولئك انصح اوليائك ومظاهريك لك وانظر
عمالك الذين بحضرتك وكتابك فوقت لكل رجل
منهم فى كل يوم وقتا يدخل عليك فيه بكتبه وموامراته وما
عنده من حوائج اعمالك وامور كورك ورعيّتك ثم فرغ لما
يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك
وكرر النظر فيه والتدبير له فما كان موافقا للحق والحزم
فامض به واستخر الله عزّ وجلّ فيه وما كان مخالفا لذلك
فاصره الى التثبت فيه والمسئلة عنه ولا نمض على رعيّتك
ولا على غيرهم به معروف تؤثيه اليهم ولا تقبل من احد الا
الوفاء والاستقامة والعون فى امور المسلمين ولا تضعن المعروف
الا على ذلك وتفهم كتابى اليك واكثر النظر فيه
والعمل به واستعن بالله على جميع امورك واستخره فانّ
الله عزّ وجلّ مع الصلاح واهله وليكن اعظم سيرتك
وافضل رغبتك ما كان لله عزّ وجلّ رضى ولدينه نظاما
ولا هله عزّا وتمكيناً وللهالة والذمة عدلا وصلاحا وانا اسأل
الله عزّ وجلّ ان يحسن عونك وتوفيقك ورشدك
وكلاتك والسلام (وحدّث) الاخباريون ان هذا الكتاب لما
ظهر وشاع امره اعجب به الناس واتصل بالمؤمن ولما قرئ
عليه قال ما ابقى ابو الطيب يعنى طاهرا شيئا من امر الدنيا

والدين والتدبير والرأى والسياسة واصلاح الملك والرعيّة وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة الا وقد احكمه واوصى به ثم امر المامون فكتب به الى جميع العمال فى النواحي ليقتدوا به ويعملوا بما فيه هذا احسن ما وقفت عليه فى هذه السياسة والله يلهم من يشاء من عباده

فصل فى امر الفاطمى وما يذهب اليه الناس فى شأنه وكشف الغطاء عن ذلك

ان من المشهور بين الكافة من اهل الاسلام على مرّ الاعصار انه لا بدّ فى آخر الزمان من ظهور رجل من اهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ويستولى على الممالك الاسلاميّة ويسمى بالمهدى ويكون خروج الدجال وما بعده من اشراط الساعة الثابتة فى الصحيح على اثره وان عيسى بنزل من بعده فيقتل الدجال او ينزل معه فيساعده على قتله ويأتّم بالمهدى فى صلاته ويحتجون فى الباب باحاديث خرجها الايّمة وتكلم فيها المنكرون لذلك وربّما عارضوها ببعض الاخبار وللمتصوّفة المتأخّرين فى امر هذا الفاطمى طريقة اخرى ونوع من الاستدلال وربّما يعتهدون فى ذلك على الكشف الذى هو اصل طريقتهم ونحن الآن نذكر هنا الاحاديث الواردة فى هذا الباب وما للمنكرين فيها من

الطاعن وما لهم في انكارهم من الهستند ثم نتبعه بذكر
كلام المتصوفة واءاهم ليتبين لك الصحيح من ذلك
ان شاء الله تعالى فنقول ان جماعة من الائمة خرجوا
احاديث المهدى منهم الترمذى وابو داود والبزار وابن
ماجة والحاكم والطبرانى وابو يعلى الهوصلى واسندوها
الى جماعة من الصحابة مثل على وابن عباس وابن عمر
وطلحة وابن مسعود وابى هريرة وانس وابى سعيد الخدرى
واتم حبيبة واتم سلمة وثوبان وقرّة بن اياس وعلى الهلالى
وعبد الله بن الحارث ابن جزء باسانيد ربها تعرض لها
الهنكرون كما نذكره الآن لان المعروف عند اهل
الحديث ان الجرح مقدّم على التعديل فاذا وجدنا طعنا
في بعض رجال الاسناد بغفلة او سوء حفظ او قلة ضبط او
ضعف او سوء رأى تطرق ذلك الى صحة الحديث
واوهن منه ولا تقولن ان مثل ذلك ربما يتطرق الى
رجال الصحيحين فان الاجماع من المحدثين على صحة ما
فيهما كما ذكره البخارى ومسلم والاجماع ايضا قد اتصل
في الامة على تلقيهما بالقبول والعمل بما فيهما وفي الاجماع
اعظم حماية واحسن دفع وليس غير الصحيحين بمثابتهما فى
ذلك فقد نجد مجالا للكلام فى اسانيدهما لها نقل عن
ايمة الحديث فى ذلك ولقد توغل ابو بكر بن ابى

خيشة على ما نقل السهيلي عنه في جيعه للاحاديث الواردة في المهدي فقال ومن اغربها اسنادا ما ذكره ابو بكر الاسكاف في فوائد الاخبار مسندا الى مالك بن انس عن محمد بن المنكدر (1) عن جابر قال قال رسول الله صلعم من كذب بالمهدي فقد كفر ومن كذب بالدجال (2) فقد كذب وقال في طلوع الشمس من مغربها مثل ذلك فيما احسب وحسبك بهذا غلوا والله اعلم بصحة طريقه الى مالك بن انس على ان ابا بكر الاسكاف عندهم متهم وضاع واما الترمذي فخرج هو وابو داود بسندهما الى ابن مسعود من طريق عاصم بن ابي النجود احد القراء السبعة عن زر بن ابي حبيش عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلعم لو لم يبق من الدنيا الا يوم قال زائدة لطلو الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجل متي او من اهل بيتي يواطى اسمه اسمي واسم ابيه اسم ابي هذا لفظ ابي داود وسكت عليه وقال في رسالته المشهورة ان ما سكت عليه في كتابه فهو صالح ولفظ الترمذي لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من اهل بيتي يواطى اسمه اسمي وفي لفظ اخر حتى يلي رجل من اهل بيتي وقال في كليهما حديث حسن صحيح ورواه ايضا من طريق

(1) Man. A. et B. المنكدر.

(2) Man. A. B. C. الدخان.

عاصم موقوفا على ابي هريرة وقال الحاكم رواه الثوري
وسبعة وزائدة وغيرهم من ائمة المسلمين عن عاصم قال
وطرق عاصم عن زر عن عبد الله كلها صحيحة على ما
اصلته من الاحتجاج باخبار عاصم اذ هو امام من ائمة
المسلمين انتهى الا ان عاصما قال فيه احمد بن حنبل كان
رجلا صالحا قارئاً للقران خيرا ثقة ولاعمش احفظ منه وكان
سبعة يختار لاعمش عليه في تثبيت الحديث وقال
العجلي كان يختلف عليه في رروابي وائل بشير بذلك
الى ضعف روايته عنهما وقال محمد بن سعد كان ثقة الا انه
كثير الخطاء في حديثه وقال يعقوب بن سفيان في حديثه
اضطراب وقال عبد الرحمن بن ابي حاتم قلت لابي ان
ابا زرعة يقول عاصم ثقة فقال ليس محله هذا وقد تكلم
فيه ابن عليّة فقال كل من اسمه عاصم سئى الحفظ وقال
ابو حاتم محله عندي محل الصدق صالح الحديث ولم
يكن بذلك الحافظ واختلف فيه قول النسائي وقال ابن
حراش في حديثه نكرة وقال ابو جعفر العقيلي لم يكن فيه
الا سوء الحفظ وقال الدارقطني في حفظه شئ وقال يحيى
القطان ما وجدت رجلا اسمه عاصم الا وجدته ردى الحفظ
وقال ايضا سمعت شعبة يقول حدثنا عاصم ابن ابي
النجد وفي النفس ما فيها وقال الذهبي ثبت في القراءة

وهو في الحديث دون الثبت صدوق يهيم وهو حسن الحديث وإن احتج أحد بان الشيخين أخرجاه له فأنما أخرجاه له مقرونا بغيره لا أصلا والله أعلم (وخرج) أبو داود في الباب عن علي رضي الله عنه من رواية فطر ابن خليفة بالفاء عن القاسم بن أبي بزة عن أبي الطفيل عن علي عن النبي صلعم قال لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلا من أهل بيتي يملأها عدلا كما ملئت جورا وفطر ابن خليفة وإن وثقه أحمد ويحيى ابن القطان وابن معين والنسائي وغيرهم إلا أن العجلي قال حسن الحديث وفيه تشيع قليل وقال ابن معين مرة ثقة شيعي وقال أحمد بن عبد الله بن يونس كذا نمر على فطر وهو مطروح لا نكتب عنه وقال مرة كنت أمر به وأدعه مثل الكلب وقال الدارقطني لا يحتج به وقال أبو بكر بن عياش ما تركت الرواية عنه إلا لسوء مذهبه وقال الجوزجاني زايغ غير ثقة انتهى (وخرج) أبو داود أيضا بسنده إلى علي رضي الله عنه عن هرون بن المغيرة عن عمرو بن أبي قيس عن شعيب بن خالد عن أبي إسحق السبيعي قال قال علي ونظر إلى ابنه الحسن فقال إن ابني هذا سيد كما سمّاه رسول الله صلعم سيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم يشبهه في الخلق ولا يشبهه في الخلق ثم ذكر قصة يملأ

لأرض عدلا وقال هرون حدّثنا عمرو بن أبى قيس عن
مطرف بن طريف عن أبى الحسن عن هلال بن عمرو
سمعت عليّا يقول قال النبى صلعم يخرج رجل من وراء
النهر يقال له الحارث على مقدمته رجل يقال له منصور
يوطى أو يمكن لآل مجد كما مكنت قريش لرسول الله
وجب على كل مؤمن نصره أو قال أجابته سكت عليه ابو
داود وقال فى موضع آخر فى هرون هو من الشيعة وقال
السليمانى فيه نظر وقال ابو داود فى عمرو بن أبى قيس
لا بأس به فى حديثه خطأ وقال الذهبى صدوقا له اوهام
واما ابو اسحق السبيعى وان خرج عنه فى الصحيحين فقد
ثبت انه اختلط آخر عمره وروايته عن على منقطعة وكذا
رواية أبى داود عن هرون بن المغيرة اما السند الثانى فابو
الحسن فيه وهلال بن عمرو مجهولان ولم يعرف ابو الحسن
الآ من رواية مطرف بن طريف عنه انتهى (وخرّج) ابو
داود ايضا عن أم سلمة وكذا ابن ماجة والحاكم فى
المستدرک من طريق على بن نفيل عن سعيد بن المسيّب
عن أم سلمة قالت سمعت رسول الله صلعم يقول المهدي
من عترتى من ولد فاطمة لفظ أبى داود وسكت عليه ولفظ
ابن ماجة المهدي من ولد فاطمة ولفظ الحاكم سمعت
رسول الله صلعم يذكر المهدي فقال نعم هو حق

وهو من بنى فاطمة ولم يتكلم عليه بتصحيح ولا غيره وقد
 صنعته ابو جعفر العقيلي وقال لا يتابع على بن نفيل عليه
 ولا يعرف الا به (وخرج) ابو داود ايضا عن ام سلمة من
 رواية صالح ابى الخليل عن صاحب له عن ام سلمة عن
 النبى صلعم قال يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج
 رجل من اهل المدينة هاربا الى مكة فيأتيه ناس من اهل
 مكة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والهام
 ويبعث اليه بعث من الشام فيخسف بهم بالبيداء بين
 مكة والمدينة فاذا رأى الناس ذلك اناه ابدال الشام
 وعصائب اهل العراق فيبايعونه ثم ينشأ رجل من قريش
 احواله كلب فيبعث عليهم بعثا فيظهرون عليهم وذلك
 بعث كلب والخيبة لمن لم يشهد غنيمة كلب فيقسم المال
 ويعمل فى الناس بستة نبيهم ويلقى الاسلام بجرانه الى
 الارض فيلبث سبع سنين ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون
 قال ابو داود قال بعضهم عن هشام تسع سنين وقال بعضهم
 سبع سنين ثم رواه ابو داود من رواية ابى الخليل عن عبد
 الله بن الحارث عن ام سلمة فتبين بذلك المبهم فى
 الاسناد الاول ورجاله رجال الصحيحين لا مطعن فيهم ولا مغز
 وقد يقال انه من روايه قتادة عن ابى الخليل وقاتدة مدلس
 وقد غنعه والمدلس لا يقبل من حديثه الا ما صرح فيه ابو

داود في ابوابه (وخرج) ابو داود ايضا وتابعه الحاكم عن
 ابي سعيد الخدري من طريق عمران القطان عن قتادة
 عن ابي نضرة عن ابي سعيد الخدري قال قال رسول
 الله صلعم المهدي متى اجلا الجبهة اقنى الانف يملأ
 الارض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما يملك سبع
 سنين هذا لفظ ابي داود وسكت عليه ولفظ الحاكم
 المهدي متا اهل البيت اشم الانف اقنا اجلا يملأ الارض
 قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما يعيش هكذا وبسط
 يساره واصبعين من يمينه السبابة والانبهام وعقد ثلاثة قال
 الحاكم هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه
 انتهى وعمران القطان مختلف في الاحتجاج به وانما
 اخرج له البخاري استشهادا لا اصلا وقال يحيى القطان
 لا يحدث عنه وقال يحيى بن معين ليس بالقوى وقال
 مرة ليس بشئ وقال احمد بن حنبل ارجو ان يكون صالح
 الحديث وقال يزيد بن زريع كان حروريا وكان يرى
 السيف على اهل القبلة وقال النسائي ضعيف وقال ابو
 عبيد الاجري سألت ابا داود عنه فقال من اصحاب
 الحسن وما سعت الا خيرا وسمعت ذكره مرة اخرى فقال
 ضعيف افترى في ايام ابراهيم بن عبد الله بن حسن بفتوى
 شديدة فيها سفك الدماء وخرج الترمذي وابن ماجة

والحاكم عن ابي سعيد الخدري قال خشنا ان يكون بعد نبينا حدث فسالنا نبي الله فقال ان في امتي المهدي يخرج يعيش خمسا او سبعا او تسعا زيد الشاك قال قلنا وما ذاك قال سنين قال فيجئ اليه الرجل فيقول يا مهدي اعطني قال فيحني له في نوبه ما استطاع ان يحمله لفظ الترمذی وهذا حديث حسن وقد روى من غير وجه عن ابي سعيد الخدري عن النبي صلعم ولفظ ابن ماجه والحاكم يكون في امتي المهدي ان قصر فسمع والآ فتسع فتنعم فيه امتي نعمة لم يسمعو مثلها قط تؤتى الارض اكلمها ولا تذخر منهم شأ والمار يومئذ كدوس فيقوم الرجل فيقول يا مهدي اعطني. فيقول انتهى وزيد العمري وان قال فيه الدارقطني واحمد بن حنبل ويحيى بن معين انه صالح وزاد احمد انه فوق يزيد الرقاشي وفضل بن عيسى الا انه قال فيه ابو حاتم ضعيف بكب حديثه ولا يحتاج به وقال يحيى بن معين في رواية اخرى لا شئ وقال مرة يكتب حديثه وهو ضعيف وقال الجوزجاني متهاك وقال ابو زرعة ليس بقوي واهي الحديث ضعيف وقال ابو داود ليس بذاك وقد حدث عنه شعبة وقال النسائي ضعيف وقال ابن عدي عامة ما برويه ومن يروى عنهم ضعفاء على ان شعبة قد روى عنه

ولعلّ شعبة لم يرو عن اضعف منه وقد يقال ان حديث الترمذى وقع تفسيراً لما رواه مسلم فى صحيحه من حديث جابر قال قال رسول الله صلعم يكون فى آخر امتى خليفة يحشى المال حثيا لا يعده عداً ومن حديث ابى سعيد قال من خلفائكم خليفة يحشوا المال حثيا ومن طريق اخر عنهما قال يكون فى آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده انتهى واحاديث مسلم لم يقع فيها ذكر المهدي ولا دليل يقوم على انه المراد بها ورواه الحاكم ايضا من طريق عوف لاعرابى عن ابى الصديق الناجى عن ابى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلعم لا تقوم الساعة حتى يملأ الارض ظلماً وجوراً وعدواناً ثم يخرج من اهل بيتى من يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وعدواناً وقال فيه الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ورواه الحاكم ايضا من طريق سليمان بن عبيد عن ابى الصديق الناجى عن ابى سعيد الخدرى ان رسول الله صلعم قال يخرج آخر امتى المهدي يسقيه الله الغيث وتخرج الارض نباتها ويعطى المال صحاحاً وتكثر الماشية وتعظم الامّة يعيش سبعا او ثمانيا يعنى حجبا وقال فيه حديثاً صحيح الاسناد ولم يخرجاه مع ان سليمان بن عبيد لم يخرج له احد من السنة لكن ذكره ابن جيان فى

الثقات ولم ار احدا تكلم فيه (ثم) رواه الحاكم ايضا من طريق اسد بن موسى عن حماد بن سلمة عن مطر الوراق وابى هرون العبدى عن ابى الصديق الناجى عن ابى سعيد ان رسول الله صلعم قال تملأ الارض جورا وظلما فيخرج رجل من عترتى فيهلك سبعا او تسعا فيملأ الارض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما وقال فيه الحاكم هذا حديث صحيح على شرط مسلم لانه اخرج عن حماد بن سلمة وعن شيخه مطر الوراق واما شيخه الاخر وهو ابو هرون العبدى فلم يخرج له وهو ضعيف جدا متهم بالكذب ولا حاجة الى بسط اقوال الائمة فى تضعيفه واما الراوى له عن حماد بن سلمة وهو اسد بن موسى يلقب اسد الستة وان قال البخارى مشهور الحديث واستشهد به فى صحيحه واحتج به ابو داود النسائى الا انه قال مرة اخرى ثقة لو لم يصفى كان خيرا له وقال فيه ابو محمد بن حزم منكر الحديث ورواه الطبرانى فى معجمه الاوسط من رواية ابى الواصل عن عبد الحميد بن واصل عن ابى الصديق الناجى عن الحسن بن يزيد السعدى احد بنى بهدلة عن سعيد الخذرى قال رسول الله صلعم يقول يخرج رجل من امتى بستى ينزل الله عز وجل له القطر من السماء وتخرج له الارض من بركتها تملأ الارض منه قسطا وعدلا كما ملئت

جورا وظلما يعمل على هذه الأمة سبع سنين وينزل بيت المقدس وقال فيه الطبراني رواه جماعة عن ابي الصديق ولم يدخل احد بينه وبين ابي سعيد احدا الا ابا الواصل فانه رواه عن الحسن بن يزيد عن ابي سعيد انتهى وهذا الحسن بن يزيد ذكره ابن ابي حاتم ولم يعرفه باكثر مما في هذا الاسناد من روايته عن ابي سعيد ورواية ابي الصديق عنه وقال الذهبي في الميزان انه مجهول لكن ذكره ابن حبان في الثقات واما ابو الواصل الذي رواه عن ابي الصديق فلم يخرج له احد من الستة وذكره ابن حبان في الثقات في الطبقة الثانية وقال فيه يروى عن انس وروى عنه شعبة وعتاب بن بشير (وخرج) ابن ماجة في كتاب السنن له عن عبد الله بن مسعود عن طريق يزيد بن ابي زياد عن ابراهيم بن علقمة عن عبد الله قال بينما نحن عند رسول الله صلعم اذ اقبل فتية من بنى هاشم فلما راءهم النبي صلعم اغرورقت عيناه وتغير لونه قال فقلت ما نزال نرى في وجهك شأنا نكرهه قال انا اهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا وان اهل بيتي سيلقون بعدي بلاء وتشريدا وتطريدا حتى ياتى قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخير فلا يعطونه فيقاتلون فينصرون يعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعوها الى رجل من

اهل بيتي فيملأها قسطا كما ملأوها جورا فمن ادرك ذلك
منكم فليأتهم ولو حبوا على الثلج انتهى وهذا الحديث
يعرف عند المحدثين بحديث الرايات ويزيد بن ابي زياد
راويه قال فيه شعبة كان رقاعا يعنى يرفع الاحاديث التى
لا نعرف مرفوعة وقال مجد بن فضيل كان من كبار ائمة
الشعبة وقال احمد بن حنبل لم يكن بالحافظ وقال مرة
حديثه ليس بذاك وقال يحيى بن معين ضعيف وقال
العجلي جازع الحديث وكان بأخرة يلحق وقال ابو زرعة
لن يكتب حديثه ولا يحتج به وقال ابو حاتم ليس
بالقوى وقال الجوزجاني سمعهم يضعفون حديثه وقال ابو
داود لا اعلم احدا حديثه وغيره احب الى منه وقال
ابن عدى هو من شعبة اهل الكوفة ومع ضعفه يكتب حديثه
وروى له مسلم لكن مقرونا بغيره وبالجمله فالاكثر على
ضعفه وقد صرح الايمة بتضعيف هذا الحديث الذى رواه
عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله وهو حديث الرايات
فقال وكيع بن الجراح فيه ليس بشئ وكذلك قال احمد
بن حنبل وقال ابو قدامة سمعت ابا اسامة يقول فى
حديث يزيد عن ابراهيم فى الرايات لو حلف عندى
خمسین يميناً قسامة ما صدقته اهذا مذهب ابراهيم اهذا
مذهب علقمة اهذا مذهب عبد الله واورد العقيلي هذا الحديث

فى الضعفاء وقال الذهبى ليس بصحيح (وخرج) ابن ماجة
 عن على رضى الله عنه من رواية ياسين العجلى عن ابراهيم
 بن محمد بن الحنفية عن ابيه عن جدّه قال رسول الله
 صلعم المهدي متا اهل البيت يصلحه الله فى ليلة وياسين
 العجلى وان قال فيه ابن معين ليس به بأس فقد قال
 البخارى فيه نظر وهذه اللفظة فى اصطلاحه قوية فى
 التضعيف جدّا واورد له ابن عدى فى الكامل والذهبى فى
 الميزان هذا الحديث على وجه الاستنكار له وقال هو معروف
 به (وخرج) الطبرانى فى معجمه الاوسط عن على رضى الله
 عنه انه قال للنبي صلعم امّا المهدي ام من غيرنا يا رسول
 الله قال بل متّا بنا يختم الله كما بنا فتح وبنا يستنقذون
 من الشرك وبنا يؤلف الله بين قلوبهم بعد عداوة بينة
 كما بنا الف بين قلوبهم بعد عداوة الشرك قال على
 رضى الله عنه امؤمنون ام كافرون قال مقتن وكافر انتهى
 وفيه عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف معروف الحال وفيه
 عمرو بن جابر الحضرمي وهو اضعف منه قال احمد بن
 حنبل روى عن جابر من اكبر وبلغنى انه كان يكذب
 وقال النسائي ليس بثقة وقال ابن لهيعة كان شيخا احمق
 ضعيف العقل وكان يقول على فى السحاب ويجلس معنا فيبصر
 سحابة فيقول هذا على قد مرّ فى السحاب (وخرج)

الطبراني ايضا عن على رضى الله عنه ان رسول الله صلعم قال تكون فى آخر الزمان فتنة يحصل الناس فيها كما يحصل الذهب فى المعدن فلا تسبوا اهل الشام ولكن سبوا اشرارهم فان فيهم لابدال يوشك ان يرسل على اهل الشام سب من السماء فيفرق جماعتهم حتى لو قاتلتهم الغالب غلبتهم فعند ذلك يخرج خارج من اهل بيتى فى ثلاث رايات المكثر يقول هم خمسة عشر الفا والمقلل يقول هم اثنا عشر الفا امارتهم امّت امّت امّت يلقون سبع رايات تحت كل راية منها رجل منهم يطلب الهلك فيقتلهم الله جميعا ويردّ الله الى المسلمين الفتنة ونعمتهم وقاصيهم ورايهم انتهى وفيه عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف معروف الحال ورواه الحاكم فى مستدركه فقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه وفي روايته ثم يظهر الهاشمى فيردّ الله الناس الى الفتنة الى آخره وليس فى طريق ابن لهيعة وهو اسناد صحيح كما ذكر (وخرّج) الحاكم فى المستدرت عن على رضى الله عنه من رواية ابى الطفيل عن محمد بن الحنفية قال كتنا عند على رضى الله عنه فسأله رجل عن المهدي فقال على هيهات ثم عقد بيده سبعا فقال ذاك يخرج فى آخر الزمان اذا قال الرجل الله الله قتل فيجمع الله له قوما قرع كقرع السحاب يؤلف الله

PROLÉGOMÈNES
Ebn-Khaldoun.

بين قلوبهم لا يستوحشون الى احد ولا يفرحون باحد دخل
فيهم على عدة اصحاب بدر لم يسبقهم الاولون ولا يدركهم
الاخرون وعلى عدة اصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر
قال ابو الطفيل قال ابن الحنفية اتريده قلت نعم قال فانه
يخرج من بين هذه الاخشبين قلت لا جرم والله لا اريهما
حتى اموت فمات بها يعنى مكة قال الحاكم هذا
حديث صحيح على شرط الشيخين انتهى وانما هو على
شرط مسلم فقط فان فيه عمار الذهبي ويونس ابن ابي
اسحق ولم يخرج لهما البخاري وفيه عمرو ابن محمد
الغنقري ولم يخرج له البخاري احتجاجا بل استشهدا مع ما
ينضم الى ذلك من تشيع عمار الذهبي وهو وان وثقه
احمد وابن معين وابو حاتم والنسائي وغيرهم فقد قال على
بن المديني عن سفيان ان بشير بن مروان قطع عرقوبه
قلت في اتي شئ قال في التشيع (وخرج) ابن ماجة عن
انس بن مالك رضى الله عنه من رواية سعد بن عبد
الحميد عن جعفر عن على بن زياد اليمامي عن عكرمة
بن عمار عن اسحق بن عبد الله عن انس قال سمعت
رسول الله صلعم يقول نحن ولد عبد المطلب سادة اهل الجنة
انا وحمزة وعلى وجعفر والحسن والحسين والمهدى انتهى
وعكرمة بن عمار وان اخرج له مسلم فانما اخرج له متابعة

وقد ضعفه بعض ووثقه اخرون وقال ابو حاتم الرازي هو مدلس
 فلا يقبل الا ان يصرح بالسماع وعلى بن زياد قال الذهبي في
 الميزان لا يدرى من هو ثم قال الصواب فيه عبد الله بن زياد وسعد
 بن عبد الحميد وان وثقه يعقوب بن شيبة وقال فيه يحيى بن
 معين ليس به بأس فقد تكلم فيه الثوري قالوا لانه رآه
 يفتى في مسائل ويخطئ فيها وقال ابن حبان كان ممن
 فحش خطأؤه فلا يحتج به وقال احمد بن حنبل سعد بن
 عبد الحميد يدعى انه سمع عرض كتب مالك والناس
 ينكرون عليه ذلك وهو هاهنا ببغداد لم يسمح فكيف سمعها
 وجعله الذهبي ممن لم يقدر فيه كلام من تكلم فيه (وخرج)
 الحاكم في مستدركه من رواية مجاهد عن ابن عباس موقوفا
 عليه قال مجاهد قال لى عبد الله بن عباس لو لم اسمع
 انك مثل اهل البيت ما حدثتك بهذا الحديث قال
 فقال مجاهد فانه فى ستر لا اذكره لهن تكره قال فقال ابن
 عباس متا اهل البيت اربعة متا السفاق ومتا الهندرومتا
 المنصور ومتا الهدي قال فقال مجاهد بين لى هؤلاء الاربعة
 فقال اما السفاق فربما قتل انصاره وعفى عن عدوه واما
 المنذر اراه قال فانه يعطى المال الكثير ولا يتعاطم فى نفسه
 ويمسك القليل من حقه واما المنصور فانه يعطى النصر
 على عدوه الشطر مما كان يعطى رسول الله صلعم يرعب منه

PROLÉGOMÈNES
d'Abu-Khaloum

عدوة على مسيرة شهرين والنصور يرعب منه عدوة على
مسيرة شهر واما المهدي الذي يملأ الارض عدلا كما ملئت
جورا وتأمين البهائم والسباع وتلقى الارض افلاذ كبدها قال
قلت وما افلاذ كبدها قال امثال الاسطوانة من الذهب
والفضة انتهى وقال الحاكم هذا الحديث صحيح لاسناد
ولم يخرجاه وهو من رواية اسمعيل بن ابراهيم بن مهاجر عن
ابيه واسمعيل ضعيف وابوه ابراهيم وان خرج له مسلم
فالاكثرون على تضعيفه (وخرج) ابن ماجة عن ثوبان قال قال
رسول الله صلعم يقتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة ثم
لا تصير الى واحد منهم ثم تطلع الرايات السود من قبل
المشرق فيقتلونكم قتلا لم يقتله قوم ثم ذكر شئ لا احفظه
فقال فاذا رايتموه فبايعوه ولو حبوا على الشاج فانه خليفة
الله المهدي انتهى ورجاله رجال الصحيح الا ان فيه
ابا قلابة الجرمي وذكر الذهبي وغيره انه مدلس وفيه سفيان
الثوري وهو مشهور بالتدليس وكل واحد منهما عنعن ولم
يصرح بالسباع فلا يقبل وفيه عبد الرزاق ابن همام وكان
مشهورا بالتشيع وعمى في آخر عمره وخطط قال ابن عدى
حدث باحاديث في الفضائل لم يوافقه عليها احد ونسبوه
الى التشيع انتهى (وخرج) ابن ماجة عن عبد الله بن
الحارث ابن جزء الزبيدي من طريق ابن لهيعة عن ابي

زرعة عمرو بن جابر الحضرمي عن عبد الله بن الحارث بن جزء قال قال رسول الله صلعم يخرج ناس من المشرق فيوطئون للمهدى يعني سلطانه قال الطبراني تفرّد به ابن لهيعة وقد تقدّم لنا في حديث على الذي خرجه الطبراني في معجمه الاوسط ان ابن لهيعة ضعيف وان شيخة عمرو بن جابر اضعف منه (وخرج) البزار في مسنده والطبراني في معجمه الاوسط واللفظ للطبراني عن ابي هريرة عن النبي صلعم قال يكون في امتي المهدي ان قصر فسبع ولا فثمان ولا فتسع ينعم امتي فيها نعمة لم ينعموا بمثلها ترسل السماء عليهم مدرارا ولا تذخر الارض شئا من البات والمال كدوس يقوم الرجل يقول يا مهدي اعطني فيقول خذ قال الطبراني والبزار تفرّد به محمد بن مروان العجلي زاد البزار ولا يعلم تابعه عليه احد وهو وان وثقه ابو داود وابن حبان بما ذكره في الثقات وقال فيه يحيى بن معين صالح وقال مرة ليس به بأس فقد اختلفوا فيه وقال ابو زرعة ليس عندي بذاك وقال عبد الله بن احمد بن حنبل رايت محمد بن مروان العجلي وحدثت باحاديث وانا شاهد لم اكتبها تركتها على عمد وكتب بعض اصحابنا عنه كانه ضعفه (وخرج) ابو يعلى الموصلي في مسنده عن ابي هريرة قال حدثني خليلي ابو القاسم صلعم قال

PROLÉGOMÈNES
I¹ bn-Khaldoun

لا تقوم الساعة حتى يخرج عليهم رجل من اهل بيتي
فيضربهم حتى يرجعوا الى الحق قال قلت وكم يملك
قال خمس واثنين قال قلت ما خمس واثنين قال لا ادرى
انتهى وهذا السند وان كان فيه بشير بن نهيك وقال فيه
ابو حاتم لا يحتج به فقد احتج به الشيخان ووثقه الناس
ولم يلتفتوا الى قول ابى حاتم لا يحتج به الا ان فيه مرجا
بن رجا اليشكري وهو مختلف فيه قال ابو زرعة ثقة
وقال يحيى بن معين ضعيف وقال مرة صالح وعلق له
البخارى فى صحيحه حديثا (1) واحدا (وخرج) ابو بكر البزار
فى مسنده والطبرانى فى معجمه الكبير والاوسط عن مرة
بن اياس قال قال رسول الله صلعم لتملأن الارض جورا
وظلما فاذا ملئت جورا وظلما بعث الله رجلا منى اسمه
اسمى واسم ابيه اسم ابى يملأها عدلا وقسطا كما ملئت
جورا وظلما فلا تمنع السماء شئا من قطرها ولا الارض شئا
من نباتها يلبث فيكم سبعا او ثمانيا او تسعا يعنى سنين
انتهى وفيه داود بن المحبر بن قحذم عن ابيه وهما
ضعيفان جدا وخرج الطبرانى فى معجمه الاوسط عن ام
حبيرة قالت سمعت رسول الله صلعم يقول يخرج ناس من
قبل المشرق يريدون رجلا عند البيت حتى اذا كانوا ببغداد

جذما، جذما (1) Man A. et B. C.

من الارض خسف بهم فيالحق بهم من تخلف فيصيبهم ما
 اصابهم قلت يا رسول الله كيف بهن كان اخرج مستكرها
 قال يصيبهم ما اصاب الناس ثم يبعث الله كل امرء على
 نيته انتهى وفيه سلمة بن الابرش وهو ضعيف وفيه محمد بن
 اسحق وهو مدلس وقد عنعن ولا يقبل الا ان يصرح
 بالسماع (وخرج) الطبراني في معجمه الاوسط عن ابي عمر
 قال كان رسول الله صلعم في نفر من المهاجرين والانصار
 على بن ابي طالب عن يساره والعباس عن يمينه اذ تلاحي
 العباس ورجل من الانصار فاغلظ الانصاري للعباس فاخذ
 النبي صلعم بيد العباس ويد على فقال سيخرج من صلب
 هذا حتى تملأ الارض جورا وظلما وسيخرج من صلب هذا
 حتى تملأ الارض قسطا وعدلا فاذا رايتم ذلك فعليكم بالفتى
 التميمي فانه يقبل من قبل المشرق وهو صاحب راية
 المهدي انتهى وفيه عبد الله بن عمر العمري وعبد الله بن
 لهيعة وهما ضعيفان انتهى (وخرج) الطبراني في معجمه
 الاوسط عن طاححة بن عبيد الله عن النبي صلعم قال
 ستكون فتنة لا يهدأ منها جانب الا جاش منها جانب
 حتى ينادى مناد من السماء ان اميركم فلان انتهى
 وفيه الهثني ابن السباح وهو ضعيف جدا وليس في الحديث
 نصريح بذكر المهدي وانما ذكره في ابوابه وترجمته

استيناسا هذه جملة الاحاديث التى خرجها الايمة فى شأن المهدي وخروجه آخر الزمان وهى كما رايت ولم يخلص منها على النقد الا القليل او لاقل منه (وربما) تمسك المنكرون لشأنه بما رواه محمد بن خالد الجندى عن ابان بن صالح عن ابى عياش عن الحسن البصرى عن انس بن مالك عن النبى صلعم انه قال لا مهدي الا عيسى بن مريم وقال يحيى بن معين فى محمد بن خالد الجندى انه ثقة وقال البيهقى تفرد به محمد بن خالد وقال الحاكم فيه انه رجل مجهول واختلف عليه فى اسناده فمرة يروونه كما تقدم ونسب ذلك الى محمد بن ادريس الشافعى ومرة يروى عن محمد بن خالد عن ابان عن الحسن عن النبى صلعم مرسلًا قال البيهقى فرجع الى رواية محمد بن خالد وهو مجهول عن ابان عن ابى عياش وهو متروك عن الحسن عن النبى صلعم وهو منقطع وبالجملة فالحديث ضعيف مضطرب وقد قيل ان معنى لا مهدي الا عيسى اى لا يتكلم فى المهدي الا عيسى يحاولون بهذا التأويل رد الاحتجاج به او الجمع بينه وبين الاحاديث وهو مدفوع بحديث جريح ومثله من الخوارق (واما المتصوفة) فلم يكن المتقدمون منهم يخوضون فى شئ من هذا وانما كان كلامهم فى المجاهدة بالاعمال وما يحصل عنها من

نتائج المواجد والاحوال وكان كلام الامامية والرافضة من الشيعة في تفضيل على رضى الله عنه والقول بامامته وادعاء الوصية له بذلك من النبى صلعم والتبرئ من الشيعيين كما ذكرناه فى مذاهبهم ثم حدث فيهم من بعد ذلك القول بالامام المعصوم وكثرت التواليف فى مذاهبهم (وجاء) لاسماعيلية منهم يدعون الوهية الامام بنوع الحلول واخرون يدعون رجعة من مات من الايمة بنوع التناسخ او الحقيقة واخرون ينتظرون مجئ من يقطع بموته منهم واخرون ينتظرون عود الامر فى اهل البيت مسندلين على ذلك بما قدّمناه من احاديث المهدي وغيرها (ثم) حدث ايضا عند المتأخرين من المتصوفة الكلام فى الكشف وفيما وراء حجاب الحس وظهر من كثير منهم القول على الاطلاق بالحلول والوحدة فشاركوا فيها الامامية والرافضة لقولهم بالوهية الايمة او حلول الاله فيهم وظهر منهم القول بالقطب والابدال وكأنه يحاكي مذهب الرافضة فى الامام والنقباء واشربوا اقوال الشيعة وتوغلوا فى الديانة بمذاهبهم حتى لقد جعلوا مستند طريقتهم فى لباس الخرقه ان عليا رضى الله عنه البسها الحسن البصرى واخذ عليه العهد بالتزام الطريقة واتصل ذلك عندهم بالجند من شيوخهم ولا يعلم هذا عن على من وجه صحيح ولم تكن هذه الطريقة خاصة بعلى كرم الله

PROLÉGOMÈNES
d'Elm-Khalidou.

وجهه بل الصحابة كلهم اسوة في طريق الدين وفي تخصيص هذا بعلى دونهم رايحة من التشيع قوية تفهم منها ومن غيرها مما تقدم دخولهم في التشيع وانخراطهم في سلكه فامتلات كتب الاسماعيلية من الرافضة وكتب المتأخرين من المتصوفة بمثل ذلك في الفاطمي المنتظر وكان بعضهم يمليه على بعض ويلقنه بعض عن بعض وكله مبنى على اصول واهية من الفريقين وربما يستند بعضهم في ذلك الى كلام النجيين في القرانات وهو من نوع الكلام في الملاحم وبأتى الكلام عليها في الباب الذى يلى هذا واكثر من تكلم من هؤلاء المتصوفة المتأخرين في شأن الفاطمي ابن العربى الحاتنى في كتاب عنقاء مغرب وابن قسى في كتاب خلع النعلين وعبد الحق ابن سبعين وابن ابى واطيل من تلاميذه في شرحه لكتاب خلع النعلين واكثر كلامهم في شأنه الغاز وامثال وربما يصرحون في لافل او يصرح مفسرو كلامهم وحاصل مذهبهم فيه على ما ذكر ابن ابى واطيل ان النبوة بها ظهر الحق والهدى بعد الضلال والعمى وانها تعقبها الخلافة ثم يعقب الخلافة الملك ثم يعود تجبرا وتكبيرا وباطلا قالوا ولها كان في العهد من سنة الله رجوع الامور الى ما كانت وجب ان يحى امر النسبوة والحق بالولاية ثم بخلائتها ثم يعقبها الدجل مكان الملك

والتسلط ثم يعود الكفر بحاله كما كان قبل النبوة يشيرون بهذا الى ما وقع بعد النبوة من الخلافة ثم من بعدها الملك وهى ثلاث مراتب فكذلك ايضا الولاية التى لهذا الفاطمى الذى يحيى امر النبوة والحق ثم خلافة امره بعده ثم الدجل بعدها وهو الباطل الذى كنى عنه بخروج الدجال فهى ثلاث مراتب على نسبة الثلاث مراتب الاولى ثم يعود الكفر كما كان قبل النبوة (قالوا) ولها كان امر الخلافة لقريش حكما شرعيا بالاجماع الذى لا يوهنه انكار من لم يزاول علمه وجب ان تكون الامامة فيمن هو اخص من قريش بالنسبة صاعم اما ظاهرا فكبنى عبد المطلب واما باطنا فممن كان من حقيقة الآل والآل هم من اذا حضر لم يغيب من هو آله وابن العربى الخاتمى سباه فى كتاب عنقاء مغرب من تأليفه خاتم الاولياء ويكنى عنه بلبنة الفضة اشارة الى حديث البخارى فى باب خاتم النبيين قال صلعم مثلى فيمن قبلى من الانبياء كمثل رجل ابنتى بيتا واكمله حتى اذا لم يبق منه الا موضع لبنة فانا تلك اللبنه فيفسرون خاتم النبيين باللبنه التى اكملت البنيان ومعناه النبى الذى حصلت له النبوة الكاملة ويمثلون الولاية فى تفاوت مراتبها بالنبوة ويجعلون صاحب الكمال فيها خاتما للاولياء اى جائزا للمهتبه التى هى خاتمة الولاية كما كان خاتم الانبياء

جائزاً للمرتبة التي هي خاتمة النبوة ولها كنى الشارح عن تلك المرتبة الخاتمة بلبنة البيت في الحديث المذكور وهي على نسبة واحدة فيهما فهي لبنة واحدة في التمثيل ففي النبوة لبنة ذهب وفي الولاية لبنة فضة للتفاوت بين المرتبتين كما بين الذهب والفضة فيجعلون لبنة الذهب كناية عن النبي صلعم ولبنة الفضة كناية عن هذا الولي الفاطمي المنتظر ذاك خاتم الانبياء وهذا خاتم الاولياء (وقال) ابن العربي فيما نقل ابن ابي واطيل عنه وهذا الامام المنتظر من اهل البيت من ولد فاطمة وظهورة يكون بعد مضى خ ف ج من الهجرة ورسم حروفا ثلاثة يريد عددها بحساب الجمل وهي الخاء المعجمة بواحدة من فوق بستماية والغاء تحت القاف ثمانين والجيم المعجمة بواحدة من اسفل بثلاثة وذلك ستماية وثلاثة وثمانون سنة وهو آخر القرن السابع ولها انصرم هذا العصر ولم يظهر حمل ذلك بعض الفلّدين لهم على ان الهراء بتلك الهدة مولده وعبر بظهوره عن مولده وان خروجه يكون عند العشر والسبعماية وانه الامام الناجم من ناحية المغرب قال واذا كان مولده كما زعم ابن العربي سنة ثلاث وثمانين وستماية فيكون عمره عند خروجه ستا وعشرين سنة قال وزعموا ان خروج الدجال يكون سنة ثلاث واربعين وسبعماية من اليوم المحدثي وابتداء اليوم

المحمدي عندهم من يوم وفاة النبي صلعم الى تهايم النف سنة (وقال) ابن ابي واطيل في شرحه كتاب خلع النعلين الولي المنتظر القائم بامر الله المشار اليه بمحمد المهدي وخاتم الاولياء وليس هو بنبي وانما هو ولي ابتعثه روحه وحبيبه قال صلعم العالم في قومه كالنبي في امته وقال علماء امتي كاتباء بني اسرائيل (ولم) تزل البشرية تتتابع به من اول اليوم المحمدي الى قبيل الخمساية نصف اليوم وتاكدت ونضاعفت بتباشير الهاشخ بتقريب وقته وازدلاى زمانه منذ انقضت الى هلم جرا (قال) وذكر الكندي ان هذا الولي هو الذي يصلى بالناس صلوة الظهر ويجدد الاسلام ويظهر العدل ويفتح جزيرة الاندلس ويصل الى رومة فيفتحها ويسير الى المشرق فيفتحه ويفتح قسطنطينية وبصير له ملك الارض فينتقوى المسلمون ويعلو الاسلام ويظهر دين الحقيقة فان من صلوة الظهر الى صلوة العصر وقت صلوة قال عليه السلام ما بين هذين وقت وقال الكندي ايضا الحروف العربية غير المعجمة يعنى الھتئخ بها سور القرآن جملة عددها بحساب الجمل سبعة وثلثة واربعون وسبعة دجالية ثم ينزل عيسى في وقت صلوة العصر فيصالح الدنيا ونمشى الشاة مع الذئب ثم مبلغ ملك العجم بعد اسلامهم مع عيسى مائة وستون عاما عدد الحروف المعجمة وهى

ق ي ن دولة العدل منها اربعون عاما (قال) ابن ابى
 واطيل وما ورد من قوله لا مهدى الا عيسى فمعناه لا مهدى
 يساوى هدايته وقيل لا يتكلم فى المهدى الا عيسى وهذا
 مدفوع بحديث جريح وغيره وقد جاء فى الصحيح انه قال
 لا يزال هذا الامر قائما حتى تقوم الساعة او يكون عليهم
 اثني عشر خليفة يعنى قرشيا وقد اعطى الوجود ان منهم
 من كان فى اول الاسلام ومنهم من سيكون فى آخره وقال
 الخلافة بعدى ثلاثون او احدى وثلاثون او ستة وثلاثون
 وانقضواها فى خلافة الحسن واول امر معاوية فيكون اول
 امر معاوية خلافة اخذا باوائل الاسماء فهو سادس الخلفاء
 واما سابع الخلفاء فعمربن عبد العزيز ثم الباقر خمسة من
 اهل البيت من ذرية على يؤيده قوله انك لذو قربنها
 يريد الامة اى انك خليفة فى اولها وذريتك فى آخرها
 وربما استدل بهذا الحديث القائلون بالرجعة فالاول هو
 المشار اليه عندهم بطلوع الشمس من مغربها وقد قال صلعم
 اذا هلك كسرى فلا كسرى بعده واذا هلك قيصر
 فلا قيصر بعده والذى نفسى بيده لتنفق كنوزها فى
 سبيل الله وقد انفق عمر بن الخطاب كنوز كسرى فى
 سبيل الله والذى يهلك قيصر وينفق كنوزها فى سبيل
 الله هذا هو المنتظر حين تفتح القسطنطينية فنعم الامير اميرها

ونعم الجيش ذلك الجيش كذا قال صلعم ومدة حكمه
 بضع والبضع من ثلاث الى تسع وقيل الى عشرو جاء ذكر
 اربعين وفى بعض الروايات سبعين واما الاربعون فانها
 مدته ومدة الخلفاء الاربعة الباقين من اهل القائمين بامره
 من بعده عليهم جميعهم السلام (قال) وذكر اصحاب النجوم
 والقرانات ان مدة بقاء امره واهل بيته من بعده مائة
 وتسعة وخمسون عاما فيكون الامر على هذا جاريا
 على الخلافة والعدل اربعين او سبعين ثم نختلف الاحوال
 فيكون ملك انتهى كلام ابى واطيل (وقال) فى موضع
 اخر نزول عيسى يكون فى وقت صلاة العصر فى اليوم
 المحمدي حين يبيض ثلاثة ارباعه (قال) وذكر الكندى
 يعقوب بن اسحق فى كتاب الجفر الذى ذكر فيه القرانات
 انه اذا وصل القران الى الثور على راس ضح بحرفى
 الضاد المعجمة والحاء المهملة يريد ثمانية وتسعين وستماية
 من الهجرة ينزل المسيح فيحكم فى الارض ما شاء الله قال
 وقد ورد فى الحديث ان عيسى ينزل عند الهارة البيضاء
 شرقى دمشق ينزل بين مهرودتين يعنى حلتين مزعفرتين
 صفراوتين ممصرتين واضعا كفيه على اجنحة الهلكين له لّه كانما
 اخرج من ديماس اذا طأطأ راسه قطروا اذا رفعه تحدر منه
 جبان كاللولوء كثير خيلان الوجد وفى حديث اخر مربع

الخلق والى البياض والحمرة وفى اخر انه يتزوج بالغرب
والغرب دلو البادية يريد انه يتزوج منها وتلد زوجته وذكر
وفاته بعد اربعين عاما وجاء ان عيسى يموت بالمدينة
ويدفن الى جانب عمر بن الخطاب وجاء ان ابا بكر وعمر
يحشران من بين نبين (قال) ابن ابى واطيل والشيعة
تقول انه هو المسيح مسيح المسيح من آل محمد وعليه حمل
بعضهم حديث لا مهدى الا عيسى اى لا يكون مهدى
الا المهدى الذى نسبته الى الشريعة المحمدية نسبة عيسى
الى الشريعة الهوسوية فى الاتباع وعدم النسخ الى كلام من
امثال هذا كثير يعينون (1) فيه الوقت والرجل والمكان فينقضى
الزمان ولا انر لشيء من ذلك فيرجعون الى تجديد رأى
اخر منتحل كما تراه من مفهومات لغوية واشياء تخيلية
واحكام نجومية فى هذا انقصت اعمار الاول منهم والآخر
(واما التصوفة) الذين عاصروهم فاكثروهم يشيرون الى
ظهور رجل مجدد لاحكام الملة ومراسم الحق ويتحینون
ظهوره لما قرب من عصرنا فبعضهم يقول من ولد فاطمة
وبعضهم يطلق القول فيه سمعناه عن جماعة اكبرهم ابو
يعقوب البادسى كبير الاولياء بالغرب كان فى اول هذه
الهاية الثامنة واخبرنى بذلك حافده ابو زكريا يحيى عن

(1) M. A. B. D. يعنون.

أبيه أبى محمد عبد الله الوليّ عن أبيه أبى يعقوب المذكور (هذا) آخر ما أطلعنا عليه أو بلغنا من كلام هؤلاء المتهصّفة وما أورده أهل الحديث من أخبار المهدى قد استوفينا جميعه بمبلغ طاقتنا (والحق) الذى ينبغى أن ينقرر لديك أنه لا تتم دعوة من الدين أو الملك إلا بوجود شوكة وعصبية تظهره تدافع عنه من يدفعه حتى يتم أمر الله فيه وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين الطبيعية التى أرىناكها هناك وعصبية الفاطميين والطالبيين بل وقريش اجمع قد تلاشت من جميع الآفاق ووجد أمم اخرون استعلت عصبيتهم على عصبية قريش إلا ما بقى بالحجاز فى مكة والينبع والمدينة من الطالبيين بنى حسن وبنى حسين وبنى جعفر مننشرون فى تلك البلاد وغالبون عليها وهم عصائب بدويّة مفترقون فى مواطنهم وأما رثهم وأرائهم يبلغون الآلاف من الكثرة فان صحّ ظهور هذا المهدى فلا وجه لظهور دعوته إلا بان يكون منهم وبؤلف الله بين قلوبهم فى اتباعه حتى تتم له شوكة وعصبية وافية باظهار كلمته وحمل الناس عليها وأما غير هذا الوجه مثل أن يدعو الناس فاطمىّ منهم الى مثل ذلك الأمر فى افق من آفاق الأرض من غير عصبية ولا شوكة إلا مجرد نسبه فى أهل البيت فلا يتم ذلك ولا يتمكّن لما اسلفناه من البراهين الصحيحة (فأما) ما تدعيه العامة

والأغمار من الدهياء مهن لا يرجع في ذلك الى عقل
 يهديه ولا علم يفيده (1) فيتحيتون ذلك على غير نسبة وفي غير
 مكان تقليدا لما اشتهر من ظهور رجل فاطمي ولا يعلمون
 حقيقة الامر فيه كما بيتاه واكثر ما يتحيتونه في القاصية من
 الممالك واطراف العمران مثل الزاب بافريقية والسوس
 من المغرب وتجد الكثير من ضعفاء البصائر يقصدون رباطا
 بهاسة من ارض السوس يتحيتون هنالك لقاء زعما منهم
 انه يظهر بذلك الرباط وانه يبائع هنالك ولما كان ذلك
 الرباط بالقرب من الملتحين من كدالة واعتقادهم انه منهم
 او قائمون بدعوته مزعما لا مستند له الا غرابة تلك الامم
 وبعدهم عن يقين المعرفة باحوالها من كثرة او قلة او ضعف
 او قوة ولبعد القاصية عن منال الدول وخروجها عن نطاقها
 فنقوى عندهم الاوهام في ظهوره هنالك لخروجه عن رتبة
 الدول ومنال الاحكام والقهر ولا محصول لديهم في ذلك
 الا هذا ولقد يقصد ذلك الموضع كثير من ضعفاء العقول
 للتلبيس بدعوة تمنيه النفس تمامها وسواسا وحمقا وقتل
 كثير منهم اخبرني شيخنا محمد بن ابراهيم الابلي قال خرج
 برباط ماسة لاول المائة الثامنة وعصر السلطان يوسف بن
 يعقوب رجل من مشكلى التصوف يعرف بالتويزري نسبة

(1) Man. C. D. يقيد.

الى نوزر مصغرا وادعى انه الفاطمى المنتظر وابنه الكثير من
اهل السوس من صناكة وكذولة وعظم امره وكاد يستفحل
وخافه رؤساء المصامدة على امرهم فددس عليه
السكيسوى (1) من قتله بياتا وانحل امره وكذلك ظهر
فى غمارة فى آخر الماية السابعة ولعشر التسعين منها رجل
يعرف بالعباس وادعى انه الفاطمى وابنه الدهماء من غمارة
ودخل مدينة بادس عنوة وحرق اسواقها وارتحل الى بلد
المزمة فقتل بها غيلة ولم يتم امره وكثير من هذا النمط
واخبرنى شيخنا المذكور بغريبة فى مثل هذا وهو انه
سحب فى حجة من رباط العباد وهو مدفن الشيخ ابنى
مدين فى جبل تلمسان المطل عليها رجلا من اهل البيت
من سكان كربلا كان متبوعا معظما كثير التلميذ والخادم قال
وكان الرجال من موطنه يتلقونه بالنفقات فى اكثر البلدان
قال وتاكدت الصحبة بيننا فى تلك الطريق فانكشف
لى امرهم وانهم اتوا جأوا من موطنهم بكربلا لطلب هذا
الامر وانتحال دعوة الفاطمى بالمغرب فلما عاين دولة بنى
مربى ويوسف بن يعقوب يومئذ منازل تلمسان قال لاصحابه
ارجعوا فقد ارزى بنا الغلط وليس هذا الوقت وقتنا ويدل
هذا القول من هذا الرجل على انه مستبصر فى ان الامر

(1) Mau. C. السكيسوى. D. السكيسوى.

لا يتمّ الا بالعصبية الكافية لاهل الوقت فلما علم انه غريب
فى ذلك الوطن ولا شوكة له وان عصبية بنى مرين
لذلك العهد لا يقاومها احد من اهل المغرب استكان
ورجع الى الحق واقصر عن مطامعه وبقي عليه ان يستيقن
ان عصبية الفواطم وقربش اجمع قد ذهبت لا سيما فى
المغرب الا ان التعصب لثأنه لم يتركه لهذه القول والله
يعلم وانتم لا تعلمون (وقد) كانت بالمغرب لهذا العصور
القريبة وفى العرب من سكانه نزعة من الدعاء الى الحق
والقيام بالسنة لا ينتحلون فيها دعوة فاطمي ولا غيره وانما
ينزع منهم فى بعض الاحيان الواحد فالواحد الى اقامة السنة
وتغيير المنكر ويعتنى بذلك ويكثر نابعه واكثر ما يعنون
باصلاح السابلة لها ان كثر من فساد الاعراب فيها لها قدمناه
من طبيعة معاشهم فياخذون انفسهم فى تغيير المنكر
باصلاح السابلة ما استطاعوا الا ان الصبغة الدينية فيهم
لا تستحكم لها ان توبة العرب ورجوعهم الى الدين انما
يقصدون بها الاقصار عن الغارة والنهب لا يعقلون فى توبتهم
واقبالهم على مناحى الديانة غير ذلك لانها المعصية التى
كانوا عليها قبل التوبة ومنها توبتهم فتجد تابع ذلك
المنتحل للدعوة والفائم بزعمه بالسنة غير متعيقين فى فروع
الاقتداء والاتباع انما دينهم الاعراض عن النهب والسبغى

وأفساد السابلة ثم الأقبال على طلب الدنيا والمعاش باقصى
 جهدهم وشتان بين طلب هذا الأمر من صلاح الخلق
 وبين طلب الدنيا فاتفاقهما مهتنع فلا تستحكم لهم صبغة
 في الدين ولا يكمل لهم نزوع عن الباطل على الجملة
 ولا يكثرون ويختلف حال صاحب الدعوة منهم في استحكام
 دينه وولايته في نفسه دون تابعه فاذا هلك انحل أمرهم
 وتلاشت عصبيتهم وقد وقع ذلك بافريقية لرجل من بني
 كعب من سليم يسمى قاسم بن مرا بن احمد في المائة
 السابعة ثم من بعده لرجل آخر من بادية رباح من بطن
 منهم يعرفون بمسلم وكان يسمى سعادة وكان اشد ديناً من
 الاول واقوم طريقة في نفسه ومع ذلك فلم يستتب امر
 تابعه لما ذكرناه حسبما يأتي ذكر ذلك في موضعه عند ذكر
 قبائل سليم ورباح ومن بعد ذلك ظهر ناس بهذه الدعوة
 يتشبهون بهتل ذلك ويلبسون فيه ويستحلون اسم
 الستة وليسوا عليها الا الاقل فلا يتم لهم ولا لهم بعدهم
 شئ من أمرهم ستة الله في عباده

فصل في حدثان الدول والاسم وفيه الكلام على الملاحم
 والكشف عن مسمى الجفر

اعلم ان من خواص النفوس البشرية التشوف الى عواقب

امورهم وعلم ما سيحدث لهم من حياة او موت او خير او شر سببها الحوادث العاتية كمعرفة ما بقى من الدنيا او معرفة مدد الدول وبقائها فالتطلع الى هذا طبيعة للبشر مجبولون عليها ولذلك نجد الكثير من الناس يتشوفون الى الوقوف على ذلك فى المنام والاخبار عن الكهان فى قصدهم بمثل ذلك من الملوك والسوقة معروفة ولقد نجد فى المدن صنفا من الناس يتحلون المعاش من ذلك لعلمهم بحرص الناس عليه فينتصبون لهم فى الطرقات والدكاكين يتعرضون لمن يسأل عنه فيغدو عليهم ويروح نسوان المدينة وصبيانها بل وكثير من ضعفاء العقول يستكشفون عواقب امورهم فى الكسب والجاه والعشرة والعداوة وامثال ذلك ما بين خطا فى الرمل ويسمونه المنجم وطرق بالحصا والحبوب ويسمونه الحاسب ونظر فى المرايا والمياه ويسمونه ضارب المنديل وهو من الهنكرات الفاشية فى الامصار لما تقرّر فى الشريعة من ذم ذلك وان البشر محجوبون عن الغيب الا من اطاعه الله عليه من عنده فى نوم او بولاية واكثر ما يعتنى بذلك ويتطلع اليه الملوك والامراء فى اماد دولهم ولذلك انصرفت العناية من اهل العلم اليه وكل امة من الامم فيوجد لهم الكلام من كاهن او منجم او ولى فى مثل ذلك من ملك يرتقبونه او دولة يحدثون

انفسهم بها وما سيحدث لهم مع الالم من الحروب
واللاحم ومدة بقاء الدولة وعدد الملوك فيها والتعرض
لاسمائهم ويسمى مثل هذا الحدثنان (وكان) في العرب
الكتان والعراقون يرجعون اليهم في ذلك وقد اخبروا بما
سيكون للعرب من الملك والدولة كما وقع لشق وسطيح
في تأويل ربيعة بن ربيعة بن نصر من ملوك اليمن اخبرهم
بملك الحبشة بلادهم ثم رجوعها اليهم ثم ظهور الملة
والدولة للعرب من بعد ذلك وكذا تأويل سطيح لروياء
الهيبدان بعث اليه بها كسرى مع عبد المسيح واخبره
بظهور الدولة للعرب وكذا كان في جيل البربركتان وكان
من اشهرهم موسى بن صالح من بنى يفرن ويقال من
غمرت وله كلمات حدثانية على طريقة الشعر برطانتهم
وفيها حدثان كثير ومعظمه فيما يكون لزنانة من الملك
والدولة بالمغرب وهي متداولة بين اهل الجيل وهم يزعمون
سارة انه ولي وتارة انه كاهن وقد يزعمون في
بعض مزاعمهم انه كان نبيا تاريخه عندهم قبل الهجرة بكثير
والله اعلم (وقد) يستند الجيل في ذلك الى خبر الانبياء
ان كانوا لعدهم كما وقع لبنى اسرائيل فان انبياءهم المتعاقبين
فهم كانوا يخبرونهم بهئله عندما يتعتون في السؤال عنه
واما في الدولة الاسلامية فوقع منهم كثير

فيما يرجع الى بقاء الدنيا ومدتها على العموم وفيها يرجع الى الدول واعمارها على الخصوص وكان المعتقد في ذلك صدر الاسلام اثار منقولة عن الصحابة وخصوصا مسلمة بنى اسرائيل مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه وامثالهما وربما اقتبسوا بعض ذلك من ظواهر مأثورة وتأويلات محتملة ووقع لجعفر الصادق وامثاله من اهل البيت كثير من ذلك مستندهم فيه والله اعلم الكشف بما كانوا عليه من الولاية واذا كان مثله لا ينكر من غيرهم من الاولياء في ذوبهم واعقابهم وقد قال صلعم ان فيكم محدثين فهم اولى الناس بمثل هذه الرتب الشريفة والكرامات الموهوبة واما بعد صدر الملة وحين عكف الناس على العلوم والاصطلاحات وترجمت كتب الحكماء الى اللسان العربي فاكثر معتمدهم في ذلك كلام المنجمين ففي الملك والدول وسائر الامور العامة من القرائن وفي المواليد والهسائل وسائر الامور الخاصة من الطوالع لها وهي شكل الفلك عند حدوثها (فلنذكر الآن ما وقع لاهل الانر في ذلك ثم نرجع الى كلام المنجمين) اما اهل الانر فلهم في مدة الهلة وبقاء الدنيا ما وقع في كتاب السهيلي فانه نقل عن الطبرى ما يقتضى ان مدة بقاء الدنيا منذ الملة خمسية سنة ونقص ذلك بظهور كذبه ومستند الطبرى في ذلك

انه نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما ان الدنيا جمعة
من جمع الآخرة ولم يذكر لذلك دليلا وسره والله اعلم تقدير
الدنيا بايام خلق السموات والارض وهى سبعة ثم اليوم
بالى سنة لقوله تعالى وان يوما عند ربك كالف سنة
مما تعدون قال وقد ثبت فى الصحيح انه صلعم قال
اجلكم فى اجل من كان قبلكم من صلاة العصر الى
غروب الشمس وقال بعثت انا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة
والوسطى وقدر ما بين صلاة العصر وغروب الشمس عند
صيرورة ظل كل شئ مثليه يكون على القريب نصف سبع
وذلك فضل الوسطى على السبابة فتكون هذه المدة
نصف سبع الجمعة كلها وهى خمسمية سنة ويؤيده قوله
صلعم لن يعجز الله ان يؤخر هذه الامة نصف يوم فدل
ذلك على ان مدة الدنيا قبل الملة خمسة آلاف سنة
وخمسمية سنة وعن وهب بن منبه انها خمسة آلاف وستماية
اعنى الهاضى وعن كعب ووهب ان مدة الدنيا ستة آلاف
سنة ثم قال السهيلي وليس فى الحديثين ما يشهد بشئ
مها ذكره مع وقوع الوجود بخلافه فاما قوله لن يعجز الله ان
بؤخر هذه الامة نصف يوم فلا يقتضى نفى الزيادة على
النصف واما قوله بعثت انا والساعة كهاتين فانما فيه الاشارة
الى القرب وانه ليس بينه وبين الساعة نبى غيره ولا شرع

PROLÉGOMÈNES
l'Ébn-Khalidoun.

غير شرعه ثم رجع السهيلي الى تعيين امد الهمة من مدرك اخر لو ساعده التحقيق وهو ان جمع الحروف المقطعة في اوائل السور بعد حذف المتكرر قال وهى اربعة عشر حرفا يجمعها قولك الم يسطع نص حق كره فاخذ عددها بحساب الجمل فكان سبعماية (1) وثلاثة تضاف الى المقتضى من الالف الاخيرة قبل بعثته فهذه هى مدة المدة ولا يبعد ان يكون ذلك من مقتضيات هذه الحروف وفوائدها (قلت) وكونه لا يبعد لا يقتضى ظهوره ولا التعويل عليه والذى حمل السهيلي على ذلك انما هو ما وقع فى كتاب السير لابن اسحق فى حديث ابنى اخطب من احبار اليهود وهو ابو ياسر واخوه حبي حين سمعا الم من هذه الحروف المقطعة وتاولاها على بيان المدة بهذا الحساب فبلغت احدى وسبعين فاستقربا المدة وجاء حبي الى النبي صلعم يسأله هل مع هذا غيره فقال المص نم استزد فقال الرثم استزد المر فكانت احدى وسبعين ومايتين فاستطال الهمة وقال لقد لبس علينا امركت يا محمد حتى ما ندرى اقليلما اعطيت ام كثيرا ثم ذهبوا عنه وقال لهم ابو ياسر ما يدريكم لعلّه اعطى عددها كلها بسبع مائة واربع سنين قال ابن اسحق فنزل قوله تعالى منه آيات محكمات هن ام

(1) Man. A. B. C. تسعمماية.

الكتاب الايات انتهى ولا يقوم من القصة دليل على تقدير
الملة بهذا العدد لان دلالة هذه الحروف على تلك الاعداد
ليست طبيعية ولا عقلية وانما هي بالتواضع والاصطلاح الذى
سّمونه حساب الجمل نعم انه قديم مشهور وقدم الاصطلاح
لا يصيره حجة وليس ابو ياسر واخوه حيسى مّه يوخذ رايه
فى ذلك دليلا ولا بين علياء اليهود لانهم كانوا بادية بالحجاز
غفلا من الصنائع والعلوم حتى من علم شريعتهم وفقه
كتابهم وملتهم وانما يتلقفون امثال هذا الحساب كما يتلقفه
العوام فى كل ملة فلا ينهض للسهيلى دليل على ما ادعاه
من ذلك (ووقع) فى الملة فى حدثان دولها على
الخصوص مستند فى الاثر اجهالى فى حديث خرجه ابو
داوود عن حذيفة بن اليمان من طريق شيخه محمد بن يحيى
الذهلى عن سعيد بن ابى مريم عن عبد الله بن فروخ عن
اسامة بن زيد الليثى عن ابن قبيصة بن ذؤيب عن ابيه
قال قال حذيفة بن اليمان والله ما ادرى انسى اصحابى
ام بناسوا والله ما تركت رسول الله صلعم من فائد فتنة
الى ان ينقضى الدنيا يبلغ من معه ثلثماية فصاعدا لا قد
سماه لنا باسمه واسم ابيه واسم قبيلته وسكت عليه ابو
داوود وقد تقدم انه قال فى رسالته ما سكت عليه فى
كتابى فهو صالح وهذا الحديث اذا كان صحيحا فهو مجمل

ويفتقر في بيان اجهاله وتعيين مبهماتہ الى آثار اخرى. تجوّد
اسانيدھا وقد وقع هذا الحديث في غير كتاب السنن على
غير هذا الوجه فوقع في الصحيحين من حديث حذيفة
ايضا قال قام فينا رسول الله صلعم خطيبا فما ترك شئاً
يكون في مقامه ذلك الى قيام الساعة الا حدّثه حفظه
من حفظه ونسيه من نسيه قد علمه اصحابه هؤلاء ولفظ
البخارى ما ترك شئاً الى قيام الساعة الا ذكره وفي كتاب
الترمذى من حديث ابى سعيد الخدرى قال صلى بنا
رسول الله صلعم يوما صلاة العصر بنهار ثم قام خطيبا فلم يدع
شئاً يكون الى قيام الساعة الا اخبرنا به حفظه من حفظه ونسيه
من نسيه انتهى وهذه الاحاديث كلها مجولة على ما ثبت في
الصحيح من احاديث الفتن والاشراط لا غير لانه المعهود
من الشارع صلعم في امثال هذه العمومات وهذه الزيادة
التي انفرد بها ابو داود في هذا الطريق شاذة منكرة
مع ان كلايته اختلفوا في رجاله فقال ابن ابى مريم نى
ابن فروخ احاديثه مناكير وقال البخارى تعرف منه وتنكر
وقال ابن عدى احاديثه غير محفوظة واسامة بن زيد وان
خرج له في الصحيحين ووثقه ابن معين فانها خرج له
البخارى استشهدا وضعفه يحيى بن سعيد واحمد بن
حنبل وقال ابو حاتم يكتب حديثه ولا يحتج به وابن

قبيصة بن ذؤيب مجهول فتضعف هذه الزيادة التي وقعت
لابى داود فى هذا الحديث من هذه الجهات مع شذوذها
كما مر (وقد) يستندون فى حدثان الدول على الخصوص الى
كتاب الجفر ويزعمون ان فيه علم ذلك كله من طريق
الآثار او النجوم لا يزيدون على ذلك ولا يعرفون اصل
ذلك ولا مستنده واعلم ان كتاب الجفر كان اصله ان
هرون بن سعيد العجلى وهو راس الزيدية كان له كتاب
يرويه عن جعفر الصادق وفيه علم ما سيقع لاهل البيت
على العموم ولبعض الاشخاص منهم على الخصوص وقع
ذلك لجعفر ونظرائه من رجالانهم على طريق الكرامة
والكشف الذى يقع لمثلهم من الاولياء وكان مكتوبا عند جعفر
فى جلد ثور صغير فرواه عنه هرون العجلى وكتبه وسماه
الجفر باسم الجلد الذى كتب منه لان الجفر فى اللغة
هو الصغير وصار هذا الاسم علما على هذا الكتاب عندهم
وكان فيه فى تفسير القران وما فى باطنه من المعانى غرائب
مروية عن جعفر الصادق وهذا الكتاب لم تتصل روايته
ولا عرف عينه وانما تطير عنه شواذ (1) من الكلمات لا يصحبها
دليل ولو صح السند الى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند
من نفسه او من رجال قومه فهم اهل الكرامات وقد

صح عنه انه كان يحذر بعض قرابته بوقائع تكون لهم
فتصح كما يقول وقد حذر يحيى بن عتيه زيد من مصرعه
وعصاه فخرج وقتل بالجوزجان كما هو معروف واذا كانت
الكرامات تقع لغيرهم فما ظنك بهم علما ودينا واثارة من
النوبة وعناية من الله تعالى بالاصل الكريم تشهد لفروعه
الطيبة وقد ينقل بين اهل البيت كثير من هذا الكلام غير
منسوب الى الجفر وفي اخبار دولة العبيديين كثير منه وانظر
ما حكاه ابن الرقيق في لقاء ابي عبد الله الشيعي لعبيد
الله المهدي مع ابيه محمد الحبيب وما حدثاه به وكيف
بعثه الى ابن حوشب داعيتهم باليمن فامره بالخروج الى
المغرب وبت الدعوة فيه عن علم لقته ان دولتهم تتم
هنالك وان عبيد الله لما بنى المهديّة بعد استئصال
دولتهم بافريقية قال بنيتها ليعصم بها الفواطم ساعة من نهار
واراهم موقف صاحب الحمار بساحتها وبلغ هذا الخبر
حافده اسمعيل المنصور فلما حاصره صاحب الحمار ابو
يزيد بالمهديّة كان يسائل عن منتهى موقفه حتى جاءه
الخبر ببلوغه الى المكان الذي عين جدّه عبيد الله فايقن
بالظفر وبرز من البلد فهزمه واتبعه الى ناحية الزاب فظفر
به وقتله ومثل هذه الاخبار عنهم كثيرة (واما المنجمون)
فيستندون في حدثان الدول الى الاحكام النجومية اما في

الأمور العامة مثل الملك والدول فمن القرائن وخصوصا بين العلويين وذلك ان العلويين زحل والمشتري يقتربان في كل عشرين سنة مرة ثم يعود القرائن الى برج اخر في تلك المثلثة من التثليث الايمن ثم بعده الى اخر كذلك الى ان يتكرر في المثلثة الواحدة ثنتي عشرة مرة يستوفى بروجها الثلاثة في ستين سنة ثم يعود فيستوفى في ستين اخرى ثم يعود ثالثة ثم رابعة فيستوفى المثلثة بثنى عشرة مرة واربع عودات في مائتين واربعين سنة ويكون انتقاله من كل برج على التثليث الايمن وينتقل من المثلثة الى المثلثة التي تليها اعني الى البرج الذي يلي البرج الاخير من القرائن الذي قبله في المثلثة وهذا القرائن الذي هو قرائن العلويين ينقسم الى كبير وصغير ووسط فالكبير هو اجتماع العلويين في درجة واحدة من الفلك الى ان يعود اليها بعد تسعمائة وستين سنة مرة واحدة والوسط هو اقتران العلويين في كل مثلثة ثنتي عشرة مرة وبعد مائتين واربعين سنة ينتقل الى مثلثة اخرى والصغير هو اقتران العلويين في برج واحد وبعد عشرين سنة يقتربان في برج اخر على تثليثه الايمن وفي مثل درجه او دقائقه (مثال) ذلك وقع القرائن اول دقيقة من الحمل وبعد عشرين سنة يكون اول دقيقة من القوس وبعد عشرين في

الاسد وهذه كلها نارية وهذا كله قران صغير ثم يعود الى اول الحمل بعد ستين سنة ويسمى دور القران وبعد وعود القران مائتين واربعين ينتقل من النارية الى الترابية لانها بعدها وهذا قران وسط ثم ينتقل الى الهوائية ثم المائية ثم يرجع الى اول الحمل فى تسعمائة وستين سنة وهو الكبير والقران الكبير يدل على عظام الامور مثل تغيير الملل والدول وانتقال الملة من قوم الى قوم والوسط على ظهور المتغلبين والطالبيين للملك والصغير على ظهور الخوارج والدعاة وخراب المدن او عمرانها ويقع اثناء هذه القرائن قران النحسين فى برج السرطان فى كل ثلاثين سنة مرة ويسمى الرابع وبرج السرطان هو طالع العالم وفيه وبال زحل وهبوط المريخ فتعظم دلالة هذا القران فى الفتن والحروب وسفك الدماء وظهور الخوارج وحركة العساكر وعصيان الجند والوباء والقحط ويدوم ذلك او ينتهى على قدر السعادة والنحوسة فى وقت قرانها وعلى قدر تسيير الدليل فيه قال جراش بن احمد الحاسب فى الكتاب الذى ألفه لنظام الملك ورجوع الهريخ فى العقرب له اثر عظيم فى الملة الاسلامية لانه كان دليلها فان المولد النبوى كان عند قران العلوبين فى برج العقرب فكلها رجع هنالك حدث تشويش على الخلفاء وكثر الهرض فى اهل العلم والدين ونقصت احوالهم

وربما انهدم بعض بيوت العبادة ولقد يقال انه كان عند قتل
على رضى الله عنه ومروان من بنى امية والمتوكل من بنى
العباس فاذا روعيت هذه الاحكام مع احكام القرانات كانت
فى غاية الاحكام (وذكر) شاذان الباخرى ان الملة تنتهى
الى ثلاثماية وعشر سنين وقد ظهر كذب هذا القول (وقال)
ابو معشر يظهر بعد الماية والخمسين منها اختلاف كثير ولم
يصح ذلك (وقال) جراش رايت فى كتب القدماء ان
المنجمين اخبروا كسرى عن ملك العرب وظهور النبوة
فيهم وان دليلهم الزهرة وكانت فى شرفها فيبقى الملك
فيهم اربعين سنة (وقال) ابو معشر فى كتاب القرانات ان
القسمه اذا انتهت الى السابعة والعشرين من الحوت وفيها
شرف الزهرة ووقع القران مع ذلك ببرج العقرب وهو
دليل العرب ظهرت حينئذ دولة العرب وكان منهم نبى
وتكون قوة ملكه ودولته ومدته على قدر ما بقى من درجات
شرف الزهرة وهى احد عشر درجا بتقرب من برج الحوت
ومدة ذلك ستماية وعشر سنين وكان ظهور ابى مسلم
عند انتقال الزهرة ووقع القسمه اول الحمل وصاحب
الحدة المشتري (وقال) يعقوب بن اسحق الكندى ان مدة
الملة تنتهى الى ستماية وثلاث وتسعين سنة قال لان
الزهرة كانت عند قران الملة فى ثمان وعشرين درجة

وئنتين واربعين دقيقة من الحوت فالباقي احدى عشر
 درجة وثمان عشر دقيقة ودقائقها ستون فتكون ستمائة
 وثلاثا وتسعين سنة قال وهذا مدة الملة باتفاق الحكماء
 وتعصده الحروف الواقعة في اوائل السور بحذف المكرر
 واعتباره بحساب الجمل (قلت) وهذا هو الذى ذكره
 السهيلي والغالب ان الاول هو مستند السهيلي فيما نقلناه
 عنه قال جراش وسئل هرمزادفريد الحكيم عن مدة اردشير
 وولده ملوك الساسانية فقال دليل ملكه المشتري وكان
 فى شرفه فيعطى اطول السنين واجودها اربعمائة وسبعما
 وعشرين سنة ثم تدبر الزهرة وتكون فى شرفها وهى دليل
 ان العرب يملكون لان طالع القران الميزان وصاحبه الزهرة
 وكانت عند القران فى شرفها فدل انهم يملكون الف سنة
 وستين سنة (وسأل) كسرى انوشيروان وزيره بزرجمهر الحكيم
 عن خروج الملك من فارس الى العرب فاخبره ان القائم
 منهم يولد لخمس واربعين من دولته ويهلك المشرق
 والمغرب والمشتري يفوز التدبير الى الزهرة وينتقل القران
 من الهوائية الى العقرب وهو مائى وهو دليل العرب فهذه
 الادلة تقضى للملة بمدة دور الزهرة وهى الف وستون سنة
 (وسأل) كسرى ابرويز اليوس الحكيم عن ذلك فقال مثل
 قول بزرجمهر (وقال) توفيل الرومى المنجم ايام بنى امية

ان دولة الاسلام تبقى مدة القران الكبير تسعمائة وستين سنة
 فاذا عاد القران الى برج العقرب كما كان في ابتداء
 الهلة وتغير وضع الكواكب عن هُتْها في قران الملة فحينئذ
 اما يفتقر العمل به واما يتجدد من الاحكام ما يوجب خلاف
 الظن (قال) جراش وانفقوا ان خراب العالم يكون باستيلاء
 الماء والنار حتى تهلك سائر المكونات وذلك عند ما
 يقطع قلب الاسد اربعا وعشرين درجة الذى هو حد المربيع
 وذلك بعد مضي نسعمائة وستين سنة (وذكر) جراش ان
 ملك زابلستان وهى غزنة بعث الى المأمون بحكيه
 ذوبان انحفه به فى هدية وانه تصرف للمأمون فى
 الاختيارات لحروب اخيه ولعقد اللواء لطاهر وان المأمون
 اعظم حكمته فسأله عن مدة ملكهم فاخبره بانقطاع الهلك
 من عقبه واتصاله فى ولد اخيه وبأن العجم يتغلبون على
 الخلافة الديلم اولا فى دولة حسنة خمسين سنة ثم تسوء
 حالهم حتى يظهر الترك من شمال الشرق فيملكون الى
 الشام والفرات ويفتحون بلاد الروم ثم يكون ما يريد الله
 تعالى فقال له المأمون من اين لك ذلك قال من
 كتب الحكماء ومن احكام صصة بن داهر الهندي الذى
 وضع الشطرنج (قلت) والترك الذين اشار الى ظهورهم
 بعد الديلم هم الساجوقية وقد انقضت دولتهم اول القرن

السابع (قال) جراش وانتقال القران الى المثلثة الهائية فى
 برج الحوت يكون سنة ثلاث وثلاثين وثمانماية ليزدجرد
 وي بعدها الى برج العقرب حيث كان قران الملة سنة ثلاث
 وخمسين قال والذى فى الحوت هو اول الانتقال والذى
 فى العقرب يستخرج منه دلائل الملة قال ونجويل السنة
 الاولى من القران الاول فى المثلثات المائىة فى ثانى رجب
 سنة ثمان وستين وثمانماية ولم يستوف الكلام على ذلك
 (واما) مستند المنجيين فى دولة دولة على الخصوص فمن
 القران الاوسط وهمة الفلك عند وقوعه لان له دلالة عندهم
 على حدوث الدول وجهاتها من العمران والقائمين بها من
 الاسم وعدد ملوكهم واسمائهم واعمارهم ونحلهم واديانهم
 وعوائدهم وحروبهم كما ذكر ابو معشر فى كتابه القرانات
 وقد تؤخذ هذه الادلة من القران الاصغر اذا كان الاوسط دالا
 عليه فمن هذا يؤخذ الكلام فى الدول وقد كان يعقوب بن
 اسحق الكندي منجم الرشيد والمأمون وضع فى القرانات
 الكائنة فى الهة كتابا سماه الشيعة بالجعر باسم كتابهم
 المنسوب الى جعفر الصادق وذكر فيه فيما يقال حدنان
 دولة بنى العباس وانها نهايته وأشار الى انقراضها والحادثة
 الى بغداد انه يقع فى منتصف الهاية السابعة وان انقراضها يكون
 بانقراض الملة ولم نقف على شئ من خبر هذا الكتاب

ولا رأينا من وقف عليه ولعله غرق في كتبهم التي طرحها
هولاكو ملك الططر في دجلة عند استيلائهم على بغداد
وقتل المعتصم آخر الخلفاء (وقد) وقع بالمغرب جزء منسوب
الى هذا الكتاب يسمونه الجفر الصغير والظاهر انه وضع لبنى
عبد المؤمن لذكر الاولين من ملوك الموحدين فيه على
التفصيل ومطابقة ما تقدم من ذلك من حديثه وكذب
ما بعده وكان في دولة بنى العباس من بعد الكندى منجمون
وكتب في الحديث وانظر ما نقله الطبرى في اخبار
المهدى عن ابي بديل من صنائع الدولة قال بعث الى
الربيع والحسن في غزائهما مع الرشيد ايام ابيه فجئتهما
حرف الليل فاذا عندهما كتاب من كتب الدولة يعنى
الحديثان واذا مدة المهدي فيه عشر سنين فقلت هذا الكتاب
لا يخفى عن المهدي وقد مضى من دولته ما مضى فاذا
وقف عليه كنتم قد نعيت اليه نفسه قالوا فما الحيلة
فاستدعيت غنسة الوراق مولى آل بديل وقلت له انسخ
هذه الورقة واكتب مكان عشرة اربعين ففعل فوالله لولا
اتى رايت العشرة في تلك الورقة والاربعين في هذه ما
شككت انها هي ثم كتب الناس من بعد ذلك في
حديثان الدول منظوما ومنشورا ورجزا ما شاء الله ان يكتبوه
وبايدى الناس مفترق كثير منها وتسمى الهلاحم وبعضها في

حدثان الملة على العموم وبعضها فى دولة على الخصوص: وكلها
مسسوب الى مشاهير من اهل الخليفة وليس منها اصل
يعتمد على روايته عن واضعه المنسوب اليه فمن هذه
الملاحم بالمغرب قصيدة ابن مرانة من بحر الطويل على
روى الرء وهى متداولة بين الناس ويحسب العامة انها
من الحدثان العآم فيطبقون كثيرا منها على الحاضر
والمستقبل والذى سمعناه من شيوخنا انها مخصوصة بدولة
لمتونة لان الرجل كان قبيل دولتهم وذكر فيها استيلاءهم على
سبته من ايدى موالى بنى حمود وملكهم لعدوة الاندلس
ومن الملاحم بايدى اهل المغرب ايضا قصيدة تسمى
التبعية اولها

طربت وما ذاك متى طرب وقد يطرب الطائر المفتصف
وما ذاك متى للسواراه ولكن لنذكر بعض السبب

قربا من خمسية بيت او الف بيت فيها يقال ذكر
فيها كثيرا من دولة الوجودين وشار الى الفاطمى وغيره
والظاهر انها مصنوعة ومن الملاحم بالمغرب ايضا ملعبة من
الشعر الزجلتى منسوبة لبعض اليهود ذكر فيها احكام
القرانات لعصره العلوتيين والنحسين وغيرها وذكر ميتته
قتيلا بفاس وكان كذلك فيما زعموه واوله

فى صبغ ذا الازرق لشرفه خيارا فافهموا ياقوم هذه الاشارا
نجم زحل اخبر بها ذى العلاما وبدل الشكلا وهى سلاما

شاشية زرقاء بدل العماما وطاشوا ازرق بدل الغفارا

وفي آخره يقول

قد تمّ دا التجنيس⁽¹⁾ لانسان يهودى بصلب على واد فاس في يوم عيد
حتى يجيه الناس من البوادي وقتل يافوم على الغرارا

وابياته نحو الخمسةماية وهي في احكام القرانات التي
دلّت على دولة الموحدين ومن ملاحم المغرب ايضا قصيدة
من عروض المتقارب على روى الباء في حدثان دولة بنى
ابى حفص بتونس من الموحدين منسوبة لابن الابار
وقال لى قاضى قسطنطينة الخطيب الكبير ابو على بن
باديس وكان بصيرا بما يقول وله قدم في علم النجوم فقال
لى ان هذا ابن الابار ليس هو الحافظ الكاتب مقتول
المستنصر وانما هذا رجل خياط من اهل تونس تواطأت
شهريه مع شهرة الحافظ وكان والدى رحمه الله ينشدنى
الابيات من هذه الملحمة وبقي بعضها في حفظى مطالعها

غديرى (2) من زمن فلب يفر ببارفه الاشنب

ومنها فى ذكر اللحيانى تاسع ملوك الدولة

فيبعث من جيشه قائدا ويبقى هناك على مرفب
وتأتى الى الشيخ اخباره فيقبل كالجمل الاجرب
ويظهر من عدله سبرة وتلك سياسة مستجلب

ومنها فى ذكر احوال تونس على العموم

(1) Man. C. تنجيس D.

(2) Man. A. et B. غدى D.

PROLÉGOMÈNES
d'Ebn-Khaldoun.

فأما رأيت الرسوم انمحت ولم يُرَ حق لذى منصب
فجهد بالترحّل عن تونس وودّع معاليها وأذهب
فسوف تكون بهما فتنة تضيف البرى الى المذنب

ووقفت بالمغرب على ماحمة أخرى فى دولة بنى ابي
حفص هؤلاء بتونس فيها بعد السلطان ابي يحيى الشهير
عاشر ملوكهم ذكر اخيه محمد يقول فيه

وبعد ابو عبد الله شفيقه ويعرف بالوثاب فى نسخة الاصل

الا ان هذا الرجل لم يملك بعد اخيه وكان يمتى بذلك
نفسه الى ان هلك ومن ملاحم المغرب ايضا الملعبه
الهنسوبة الى الهوشنى على لغة العامة فى عروض البلد اولها

دعنى يا دمعى (1) الهتان فتمرت لامطار ولم تغمر
واشتفت كلها السويدان واننى تيملا ونستغدر
البلدان كلها تروى فارقاتا مثل ما تدرى
وانتى الصيف والشنوى والفاكا (2) والربيع نجى
فقال حين صحت الدموى دعنى نبكى ومن (3) عذرى
ايسادبر فى ذى الارمان ذا القمرن اشتد وتبرمر

وهى طوبلة ومحفظة بين عامة المغرب الاقصا والغالب
عليها الوضع لانه لم يصح منها قول الا على ناويل بحرفه
العامة او يجازف فيه من ينتحلها من الخاصة ووقفت
بالهشرق على ماحمة منسوبة لابن العربى الحاتمى فى

(1) Man. D. دعنى يا عبنى

(2) Man. D. الفاكى

(3) Ibid. زمن

كلام طويل شبه الالغاز لا يعلم تأويله الا الله يتخلله اوافق
 عديدة (1) ورموز ملغوزة واشكال حيوانات تامة وروس مقطعة
 وتهايل من حيوانين غريبة وفي آخرها قصيدة على روى
 اللام والغالب انها كلها غير صحيحة لانها لم تبس على
 اصل علمي من نجامة ولا غيرها ومن غريب ما سمعت
 بعض الخواص يتناقلونه بمصر عن ملحمة ابن العربي
 ولعلها غير هذه انه تكلم على طالع بناء القاهرة وانه جعل
 مدة عمراتها اربعماية وستين سنة من دلالات الطوالع
 النجومية ونتهى ذلك الى حدود الثلاثين بعد الثمانماية
 لانا اذا حملنا على الاربعماية والستين حساب القمري لانها
 شهسية فتزيد عليها بحساب ثلاثة لكل مائة اربع عشرة سنة
 فيكون اربعماية وسبعين سنة نحملها على ثلاثماية وثمان
 وخمسين من الهجرة تاريخ بنائها يكون ثمانية سنة
 وائنين وثلاثين سنة هذا ان صح كلام ابن العربي وصدقت
 الدلائل النجومية وسهت ايضا ان هناك ملاحم اخرى
 منسوبة لابن سينا ولابن عقب وليس في شئ منها دليل
 على الصحة لان ذلك انما يؤخذ من القرائنات على ان
 ملاحم ابن ابي عقب مدخولة وقد نقل ابن خلكان في
 نرجة ابن القربة عن كتاب الاغانى ان ابن ابي عقب

(1) Man. C. D. عدوية. B. عددية.

وهو يحيى بن عبد الله ابن ابي العقب من الامور التي
اسوّهت ولا وجود لها في الخارج مثل مجنون ليلى وابن
القربة والله اعلم ووقفت بالهشرق ايضا على ملحمة في
حدثان دولة الترك منسوبة الى رجل من الصوفيّة
يسمى الباجربقي وكلها الغاز بالحروف اولها

ان شئت تكشف سر الجفرياسكني من علم خير وصي والد الحسن
وفهم وكُن واعيا حرفنا وجتهله والوصف فافعل كفعل الحاذق الفطن
اما الذي قبل عصرى لست اذكره لكسني اذكر الآتي من الرمن
ببهرس يستقى بقاء بعد خمسيتها وحاء بهم بطيس ندم في الكفن (1)
ومنها

سيس له اثر من تحت ستره له الضعاقه اي ذى المس
مصر والشام مع ارض العراق له وادربسجس من ملك الى الهن
ومنها
وال نزار لما سال طامسرحم الفانك الببك المعني بالسجن (2)
ومنها

اخلع سعيدا ضعيف السن سن اتي لالا وقسى ونسبون لسز في قرن
مزم شجاع له عتقل ومسرره سني بقاء وانس بعدد دو سجن
ومنها

من بعد بقاء (3) من الاعوام فنامه بلى المشرة مسم الملك ذو اللسن
هذا هو الاعرج الكلبى فانس به في عصره فن ذهبت من فنس
باتي من الشرق جيش الترك بخدمهم عار عن القى فاني جر بالفنس
قتل ذاك فويل الشام اجعها وردب سجر على الاقلين والوطن
ادا اذا زلزلت يماويح مصر من الرلوال م رال عامما غير مقتط
طاء وطاء وغين كلمهم حبسوا هلكى وبفق اموالا بلا من

(1) Man. C. et D. الكفن

(2) Man. B. et C. السجن

(3) Man. D. بقاء

يسير القافى قافانا نحو احداهم هو (1) به ان ذاك الحصن فى مكن

ومنها

ويتصون اخاهم وهو صالحهم لام الف شين لذاك نسي

ومنها

تثبت ولايتهم بالحاء لا احد من البنين (2) يدانى الملك فى الزمن
ويقال انه اشارة الى الملك الظاهر وقدم ابيه عليه ببصر
ياتى اليه ابوه بعد هجرته وطول غيبته والشطى والدرن
وابياتها كثيرة والغالب انها مصنوعة ومثل صنعتها كان فى
القديم كثيرا ومعروف الانتحال حكى اليرزخون لخبار بغداد
انه كان بها ايام المقتدر وراق ذكى يعرف بالدانيالى يبلى
الاوراق ويكتب فيها بخط عتيق يرمز فيه بحروف من اسماء
اهل الدولة ويشير بها الى ما يعرف ميلهم اليه من احوال
الرفعة والجاه كانتها ملاحم ويحصل بذلك على ما يريده
منهم من الدنيا وانه وضع فى بعض دفاتره ميم مكررة
ثلاث مرات وجاء به الى مفلىح مولى المقتدر وكان عظيما
فى الدولة فقال له هذا كناية عنك وهو مفلىح مولى
مقتدر ميم من كل واحدة وذكر عندها ما يعلم فيه رضاه
مها يناله من الهلك والسلطان ونصب له علامات لذلك
من احواله المتعارفة موه بها عليه فبذل له ما اغناه به ثم
وضعه الوزير الحسن بن القاسم بن وهب على مفلىح هذا وكان

(1) Man. D. هول.

(2) Man. A. et B. الشين، D. النبيين.

معزولا فجاءه باوراق مثلها وذكر اسم الوزير بمثل هذه الحروف وعلامات ذكرها وانه يلى الوزارة للثامن عشر من الخلفاء وتستقيم الامور على يديه ويقهر الاعداء وتعمر الدنيا فى ايامه ووقف مفاسحا على الاوراق وذكر فيها كوائن اخرى وملاحم من هذا النوع بما وقع وما لم يقع ونسب جميعه الى دانيال فاعجب به مفلح ووقف المقتدر عليه واهتدى من تلك الرموز والعلامات الى ابن وهب لظهورها وكان ذلك سببا لوزارته بمثل هذه الحيل العريقة فى الكذب والجهل بمثل هذه الالغاز والظاهر ان هذه الملاحمة التى ينسبونها الى الباجرى من هذا النوع ولقد سألت الشيخ كمال الدين شيخ الحنفية من العجم بالديار المصرية عن هذه الملاحمة وعن هذا الرجل الذى تنسب له من الصوفية وهو الباجرى وكان عارفا بطرائقهم فقال كان من المعروفين بالقرندلية المبتدعين فى حلق اللحية وكان يتحدث عنهم يكون من الهلوك لعصره بطريق الكشف ويومى الى رجال معينين عنده ويلغز عنهم بحروف يعينها فى ضميره لمن يراه منهم ورتبها نظم ذلك فى ابيات قليلة كان يتعاهدها فتوقلت عنه وولع الناس بها وجعلوها ملاحمة مرموزة وزاد فيها الخراصون من ذلك الجنس فى كل عصر وشغل العامة بفك رموزها وهو امر مهتنع اذ الرمز انها يهدى الى

كشفه قانون يعرف قبله أو يوضع له وأما مثل هذه الحروف
فدلالتها على المراد منها مخصوصة بهذا الناظم فرايت
من كلام هذا الرجل الفاضل شفاءً لما كان في النفس من
امر هذه الملاحمة وما كنا لنهتدى لولا هدايا الله (ثم) وقفت
بعد ذلك وأنا بدمشق عند حلولي مع الركاب السلطاني
بها سنة اثنين وثمانماية وأنا على قضاء المالكية بمصر
فوقفت على نارينج ابن كثير في سنة اربع وعشرين
وسبعماية في ترجمة التعريف بهذا الرجل فقال شمس
الدين محمد الباجريقي ينسب اليه الفرقة الضالة الباجريقية
والشهور عنهم انكار الصانع وكان والده جمال الدين عبد
الرحيم بن عمر الموصلي رجلاً صالحاً من علماء الشافعية
ودرس في مدارس بدمشق ونشأ ابنه هذا بين الفقهاء
فاشغل قليلاً ثم اقبل على السلوك ولازمه جماعة يعتقدون
فيه ممن هو على طريقتهم ثم حكم القاضي براءة دمه وهرب
الى المشرق ثم اقام البيعة بالعداوة بينه وبين من شهد
عليه وحكم الحنبلي بحرق دمه واقام بالقابون مدة سنين
وتوفي ليلة الاربعاء سادس عشر ربيع الاخر سنة اربع وعشرين
وقال ابن كثير ومن شعر الباجريقي في نظمه الجفر

فاسمع وكُنْ واعيا حرفا وجماله والوصف فافهم بفهم الحاذق الفطن
في قصد مصر وما بالشام يحدثه رب السهوات من خيروس محن

بيبرس يسقى بكأس بعد خمستها
يا ويح جلق ماذا حل ساحتها
يا ولبها كم عدوا في الدين كم قتلوا
وكم سماع وكم سبى وكم نهبوا
والكون معهم والارعاء مظلمة
بالبرايا اما للدين منتصر
عرب العراق ومصر والصعيد اتوا
وموت الكفر فيها عرم مرتكن

نَم الفصل الثالث من الكتاب والحمد لله وحده

الفصل الرابع من الكتاب الاول في البلدان والامصار
والمدن وسائر العمران المختصري وما يعرض في ذلك
من الاحوال وفيه سوابق ولواحق

فصل في ان الدول اقدم من المدن والامصار وانها
انما توجد ثانية عن الملك

وبيانه ان البناء واختطاط المدن انما هو من منازع الحضارة
التي يدعو اليها الترف والدعة كما قدمناه وذلك متأخر
عن البداوة ومنازعها وايضا فالمدن والامصار ذات هياكل
واجرام عظيمة وبناء كبير اذ هي موضوعة للعموم لا للخصوص
فتحتاج الى اجتماع لا يبدى وكثرة التعاون وليست من الامور

الضرورية للناس التي تعمّ بها البلوى حتى يكون نزوعهم اليها شوقيا واضطرابيا بل لا بدّ من اكراههم على ذلك وسوقهم اليه مضطهدين بعضا الهلك او مرغبين في الثواب والاجر الذي لا يفي به لكثرة الا الهلك والدولة فلا بدّ في تهجير الامصار واختطاط المدن من الدولة والهلك ثم اذا بنيت المدينة وكل تشييدها بحسب نظر من شيدها وبما اقتضته الاحوال السماوية والارضية فيها فعمر الدولة حينئذ عمر لها فان كان امد الدولة قصيرا وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخربت وان كان امد الدولة طويلا ومدتها منفسحة فلا تزال المصانع فيها تشاد والهنازل الرحبة تكثر وتعدّد ونطاق الاسوار يتباعد وينفسح الى ان تتسع الخطّة وتبعد المسافة وبعي ذرع المساحة كما وقع ببغداد وامثالها (ذكر الخطيب في تاريخه ان الحمامات بلغ عددها ببغداد لعهد المامون خمسة وستين الف حمام وكانت مشتملة على مدن وامصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الاربعين ولم تكن مدينة واحدة يجمعها سور واحد لانراط العمران وكذا حال القيروان وقرطبة والمهديّة في الهلّة الاسلاميّة وحال مصر والقاهرة بعدها فيما يبلغنا لهذا العهد (واما بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة فاما ان يكون لضواحي تلك المدينة وما قاربها من الجبال والبسات بادية يهدّها

العمران دائها فيكون ذلك حافظا لوجودها ويستتر عهدها
بعد الدولة كما تراه بفاس وبجاية من المغرب وبعراق
العجم من المشرق الوجود لها عمران الجبال لان اهل البدو
اذا انتهت احوالهم الى غايتها من الرفه والكسب نزعوا
الى الدعة والسكون الذى فى طبيعة البشر فينزلون المدن
والامصار ويتأهلون فيها واما ان تكون لتلك المدينة
الموسسة مادة تفيدها العمران بترادف الساكن من بدوها
فيكون انقراض الدولة خرقا لسياجها فيزول حفظها ويتناقص
عمرانها شأ فشا الى ان يندعر ساكنها وتخرّب كما وقع
فى مصر وبغداد والكوفة بالمشرق والقيروان والهدية وقاعة
ابن حياذ بالمغرب وامثالها فتفهمه قربها ينزل الهدية بعد
انقراض مختطبيها الاولين ملك اخر ودولة ثانية تتخذها
قرارا وكرسيا وتستغنى بها عن اختطاط المدينة لنزلها فتحفظ
تلك الدولة سياجها وتزيد مبانيها ومصانعها بتزايد احوال
الدولة الثانية وترفها، وتستجد بعمرها عمرا اخر كما وقع بفاس
والقاهرة لهذا العهد فاعتبر ذلك وافهم سر الله فى
خليقته

فصل فى ان الهلك يدعو الى نزول الامصار

وذلك ان القبائل والعصائب اذا حصل لهم الهلك اضطروا

للاستيلاء على الامصار لامرين احدهما ما يدعو اليه الملك من الدعة والراحة وخطّ الانتقال واستكمال ما كان ناقصا من امور العيران في البدو والثاني دفع ما يتوقع على الملك من امر الهازعين والهشاغبين لان الهصر الذي يكون في نواحيهم ربّما يكون ملجأ لمن يروم منازعتهم والخروج عليهم وانتزاع ذلك الهلك الذي سهوا اليه من ايديهم فيعتمد بذلك المصّر وبغالبيهم ومغالبة المصّر على نهاية من الصعوبة والهشّة والهصر يقوم مقام العساكر المتعدّدة بها فيه من الامتناع وسكّانة (١) الحرب من وراء الجدران من غير حاجة الى كبير عدد ولا عظيم شوكة والعصابة انما احتيج اليها في الحرب للثبات بما يقع من نكرة القوم بعضهم على بعض عند الجولة وثبات هاولاء بالجدران فلا يضطّرون الى كبير عصابة ولا عدد فيكون حال هذا المصّر ومن يعتمد به من المنازعين مها يفتّ في عضد الامة التي يروم الاستيلاء ويخضد شوكة استيلائها فاذا كانت بين احيائهم امصار انتظموها في استيلائهم للامن من مثل هذا الانحرام وان لم يكون هنالك مصر استحدثوه ضرورة لتكميل عمرانهم اولا وخطّ انقالهم وليكون ثانيا شجا في خلق من يروم العزة والامتناع عليهم من طوائفهم وعصابيهم

(١) Man. A. B. نكايه.

فقد تبين لك ان الملك يدعو الى نزول الامصار
والاستيلاء عليها والله غالب على امره

فصل فى المدن العظيمة والهيكل المرتفعة انما يشيدها
الملك الكبير

انما قدّمنا ذلك فى آثار الدول من المباني وغيرها وانها
نكون على نسبتها وذلك ان تشييد المدن انما يحصل
باجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم فاذا كانت الدولة عظيمة
متسعة الممالك حشر الفعلة من افطارها وجمعت ايديهم
على عملها وربما استعين فى ذلك اكثر الامر بالهندام
الذى يضاعف القوى والقدر فى حمل انقال البناء لعجز
القدر البشرية عن ذلك كالمسجال وغيره وربما يتوهم كثير
من الناس اذا نظر الى آثار الاقدمين ومصانعهم العظيمة مثل
ايوان كسرى واهرام مصر وحنايا المعلقة وشرشال بالمغرب
انها كانت بقدرهم متفرقين او مجتمعين فيتخيّل لهم اجساما
مناسب ذلك اعظم من هذه بكثير فى اطوالها وعروضها
واقطارها ليناسب بينها وبين القدر الذى صدرت تلك
المباني عنها ويغفل عن شأن الهندام والمسجال (1) وما اقتضته
فى ذلك الصناعة الهندسية وكثير من المتقلبين

(1) Man. A. المسجال. D. المسجال

فى البلاد يعاين من شأن البناء واستعمال الحيل فى نقل
 الاجرام عند اهل الدول والمعتنين بذلك من العجم
 بما يشهد له بها قلناه عيانا واكثر آثار الاقدمين لهذا العهد
 تسميها العامة عادية نسبة الى قوم عاد لشوهم ان مباني عاد
 ومصانعهم انما عظمت لعظم اجسامهم وتضاعف قدرهم
 وليس كذلك فقد نجد آثارا كثيرة من آثار الذين نعرف
 مقادير اجسامهم من الامم وهى مثل ذلك العظم واعظم
 كايوان كسرى ومباني العبيديين من الشيعة بافريقية
 والصنهاجيين وائرهم باد الى اليوم فى صومعة قلعة ابن
 حماد وكذلك بناء الاغلبة فى جامع القيروان وبناء الموحدين
 فى رباط الفتح وبناء السلطان ابي الحسن لعهد اربعين
 سنة فى المنصورة بازاء تلمسان وكذلك الحنايا التى
 جلب اهل قرطاجنة اليها الماء فى القناة الراكبة عليها
 مائلة ايضا لهذا العهد وغير ذلك من المباني والهيكل
 التى نقلت اليها اخبار اهلها قريبا وبعيدا وتيقنا انهم لم
 يكونوا بافراط فى مقادير اجسامهم وانما هذا رأى اولع به
 القصاص عن قوم عاد ونمود والعبالقة ونحن نجد بيوت
 ثمود فى الحجر منحوتة الى هذا العهد وقد ثبت فى
 الحديث الصحيح انها بيوتهم يمر بها الركب الحجازي
 اكثر السنين ويشاهدونها لا تزيد فى جوها وساحتها وسمكها

على المتعاهد وأنهم ليبالغون فيما يعتقدون من ذلك حتى أنهم ليزعمون أن عوج بن عناق من جيل العمالقة (1) كان يتناول السمك من البحر طرباً فيشويه في الشمس يزعمون بذلك أن الشمس حارة فيما قرب منها ولا يعلمون أن الحر فيما لدينا هو الضوء لانعكاس الشعاع بمقابلة سطح الأرض والهواء وأما الشمس في نفسها فغير حارة ولا باردة وإنما هي كوكب مضئ لا مزاج له وقد تقدم شيء من هذا في الفصل الثاني حيث ذكرنا أن الدول على نسبة قوتها في أصلها والله يخلق ما يشاء

فصل في أن الهياكل العظيمة جداً لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة.

والسبب في ذلك ما ذكرناه من حاجة البناء إلى التعاون ومضاعفة القدر البشرية وقد تكون الهياكل في عظمها أكبر (2) من القدر مفردة أو مضاعفة بالهندام كما قلناه فتحتاج إلى معاونة قدر أخرى مثلها في ازمة متعاقبة إلى أن تنم فيبتدى الأول منهم بالبناء ويعقبه الثاني والثالث وكل واحد منهم قد استكمل شأنه في حشر الفعلة وجمع الأيدي حتى يتم القصد من ذلك ويقوم ماثلاً للعيان يظنه من يراه من

(1) Man. A et B. كعنا.

(2) Man. C. et D. أكثر.

الأخربن انه بناء دولة واحدة وانظر في ذلك ما نقله
المؤرخون في بناء سدّ مارب وان الذي بناه سبا بن
يشجب وساق اليه سبعين واديا وعاقه الموت عن اتمامه
فاتتته ملوك حمير من بعده ومثل هذا نقل في بناء
فرطاجنة وقنانها الراكبة على الحنايا العادية واكثر المباني
العظيمة في الغالب شأنها هذا وبشهد لذلك ان
المباني العظيمة لعهدنا نجد الملك الواحد يشرع في تأسيسها
واختطاطها فاذا لم يتبع اثره من بعده من الملوك في
انمامها بقيت بحالها ولم يكمل القصد فيها وبشهد لذلك
ايضا اننا نجد آثارا كثيرة من المباني العظيمة تعجز الدولة
عن هدمها وتخربها مع ان الهدم اسهل من البناء بكثير
لان الهدم رجوع الى الاصل الذي هو العدم والبناء على
خلاف الاصل فاذا وجدنا بناء نضعف قدرنا البشرية عن
هدمها مع سهولة الهدم علمنا ان القدر التي استسته مفرطة
القوة وانها ليست انرا لدولة واحدة وهذا مثل ما وقع للعرب
في ايوان كسرى لها اعترم الرشيد على هدمه وبعث الى
يحيى بن خالد وهو في محبسه يستشير في ذلك فقال
يا امير المؤمنين لا تفعل واتركه ماثلا يستدل به على عظم
ملك ابائك الذين سلبوا الملك لاهل ذلك الهيكل
فاتهم في النصيحة وقال اخذته النعرة للعجم والله لاصرعه

وشرع فى هدمه وجمع الايدى عليه واتخذ له الفوس وحماه
بالنار وصب عليه الخل حتى اذا ادركه العجز بعد ذلك
كله وخاف الفضيحة بعث الى يحيى يستشيريه ثانيا فى
التجافى عن الهدم فقال يا امير المومنين لا تفعل استمر
على شأنك ليلا يقال عجز امير المومنين وملك العرب
عن هدم مصنع من مصانع العجم فعرفها الرشيد واقصر عن
هدمه وكذلك اتفق للمامون فى هدم الاهرام التى بمصر
وجمع القلة لهدمها فلم يحصل بطايل وشرعوا فى نقبه
فانتبهوا الى جو بين الحائط الظاهر وما بعده من الحيطان
وهناك كان منتهى هدمهم وهو الى اليوم فيما يقال منفذ
ظاهر ويزعم زاعمون انه وجد هناك ركازا بين تلك
الحيطان والله اعلم وكذلك حنايا المعلقة بقرطاجنة الى
هذا العهد يحتاج اهل مدينة تونس الى انتخاب الحجارة
لبنائهم ويستجيد الصنائع حجارة تلك الحنايا فيحاولون على
هدمها الايام العديدة ولا يسقط الصغير من جدرانها الا بعد
عصب الريق وتجتمع له المحافل المشهورة شهدت منها
فى ايام صباى كثيرا والله على كل شئ قدير

فصل فيما تجب مراعاته فى اوضاع المدن وما يحدث إذا اغفل عن المراجعة

المدن قرار تتخذها الاسم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه فتؤثر الدعة والسكون وتتوجه الى اتخاذ المنازل للقرار ولما كان ذلك للقرار والمأوى وجب ان يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها فاما الحماية من المضار فيراعى لها ان يدار على منازلها مع سياج الاسوار وان يكون وضع ذلك فى مبيت من الامكنة اما على هضبة متوعدة من الجبل واما باستدارة بحر او نهر بها حتى لا يوصل اليها الا بعد العبور على جسر او قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها (ومما) يراعى فى ذلك للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الامراض فان الهواء اذا كان راكدا خبيثا او مجاورا لبياه فاسدة ومناقع متعفنة او مروج خبيثة اسرع اليه العفن من مجاورتها فاسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة وهذا مشاهد والمدن التى لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الامراض فى الغاية وقد اشتهر بذلك فى قطر المغرب بلد قابس من بلاد الجريد بافريقية فلا يكاد ساكنها او طارقها يخلص من

حمى العفن بوجه ولقد يقال ان ذلك حادث فيها ولم
يكن كذلك من قبل ونقل البكرى فى سبب حدوثه
انه وقع فيها حفر ظهر فيه على اناء من نحاس مختوم
بالرصاص فلما فُص ختامه صعد منه دخان الى الجو وانقطع
وكان ذلك بدؤاً لأمراض الحميات فيه واراد بذلك ان
الاناء كان مشتملاً على بعض اعمال الطلسمات لوبائه وانه
ذهب سره بذهابه فرجع الى العفن والوباء وهذه الحكاية من
مذاهب العامة وساحبيهم الركيكة والبكرى لم يكن من متانة
العلم واستنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا او يتبين خرفه
فنقله كما سمعته والذي يكشف الحق فى ذلك ان هذه
الاهوية العفنة اكثر ما يهيئها لتعفن الاجسام وامراض الحميات
ركودها فاذا تخللها الريح ونفشت وذهب بها يمينا وشمالا
خف شأن العفن والمرض المتأدى منها للحيوانات والبلد
اذا كان كثير الساكن وكثرت حركات اهله فيتموج الهواء
ضرورة ويحدث الريح المتخلل للهواء الراكد ويكون ذلك
معينا له على الحركة والتموج واذا خف الساكن لم يجد
الهواء معينا على حركته وتموجه فيبقى راكدا وعظم غفه
وكثر ضرره وبلد قابس هذه كانت عند ما كانت افريقية
مستبحرة (١) العمران كثيرة الساكن تموج باهلها موحا فكان ذلك

(١) مستبحرة C, مستجدة A, B, Man.

معينا على تموج الهواء واضطرابه وتخفيف الاذى منه فلم يكن فيها كبير عفن ولا مرض وعند ما خف ساكنها ركد هواؤها المتعفن بفساد مياهها فكثر العفن والمرض هذا وجهه لا غير ذلك وقد رأينا عكس ذلك في بلاد وضعت ولم يراع فيها طيب الهواء وكانت اولا قليلة الساكن فكانت امراضها كثيرة فلما كثر ساكنها انتقل حالها عن ذلك وهذا مثل دار الملك بفاس لهذا العهد المسمى بالبلد الجديد وكثير من ذلك في العالم فتفهمه تجد ما قلته لك وقد ذهب لهذا العهد القريب فساد الهواء من قابس وزال عفنها لما حاصرها سلطان تونس وقطع الغابة من النخيل التي كانت محيطة بها فانفجر جانب منها وتموج الهواء المحيط بها وتخللته الرياح فذهب منه العفن والله مصرف الامور (واما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيها امور (منها) الماء وان يكون البلد على نهر او بازائها عيون عذبة ثرة فان وجود الماء قربا من البلد مسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورية فيكون لهم في وجوده مرفقة عامة (ومها) يراعى من المرافق في المدن طيب المراعى لسائماتهم اذ صاحب كل قرار لا بد له من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب ولا بد لها من المرعى فاذا كان قربا طيبا كان ذلك ارفق لهم مما يعانون من المشقة في بعده (ومها)

يراعى ايضا المزارع فان الزرع هو القوت فاذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك اسهل فى اتخاذه واقرب فى تحصيله (ومن) ذلك الشعراء للحطب والبناء فان الحطب مما تعم البلوى فى اتخاذه لوقود النيران للاصطلاء والخشب ايضا ضرورى لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب من ضروراتهم (وقد) يراعى ايضا قربها من البحر لتسهيل الحاجات القصية من البلاد النائية الا ان ذلك ليس بمثابة الاول وهذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجة وما تدعو اليه ضرورة الساكن (وقد) يكون الواضع غافلا عن حسن الاختيار الطبيعى وانما يراعى ما هو اهم على نفسه او قومه ولا يذكر حاجة غيرهم كما فعله العرب لاول الاسلام فى المدن التى اختطوها بالعراق والحجاز وافريقية فانهم لم يراعوا فيها الا المهم عندهم من مراعى الابل وما يصلح لها من الشجر والهاء الملح ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعى السائمة من ذوات الظلفى ولا غير ذلك كالقيروان والكوفة والبصرة وسجلماسة وامثالها ولهذا كانت اقرب الى الخراب لهما لم يراع فيها الامور الطبيعية (فصل) ومما يراعى فى البلاد الساحلية التى على البحر ان تكون فى جبل او تكون بين امة من الامم موفرة العدد يكون صريخا للمدينة متى طرقها طارق من العدو والسبب فى ذلك ان المدينة اذا

كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها عمران للقبائل اهل
العصبيات ولا موضعها في متوعر من الجبال كانت في
غرة للبيات وسهل طروقها في الاساطيل البحرية على عدوها
ونحيفه (1) لها لها يأمن وجود الصريح لها وان الحضر المعودين
للدعة قد صاروا عيالا وخرجوا عن حكم المقاتلة وهذا
كلاسكندرية من المشرق وطرابلس من المغرب وبونة
وسلا ومتى كانت القبائل والعصبيات موطنين بقربها
بحيث يبلغهم الصريح والنفير وكانت متوعدة المسالك
على من يرومها باختطاطها في هضاب الجبال وعلى
استمتها كان لها بذلك منعة من العدو ويؤسسون من
طروقها لما يكودهم من وعرها وما يتوقعون من اجابة صريحها
كما في سبنة وبجاية وبلد القل على صغرها فافهم ذلك
واعتبره في اختصاص كلاسكندرية باسم الثغر من لدن الدولة
العباسية مع ان الدعوة كانت من ورائها ببرقة وافريقية
وانما اعتبر في ذلك المخافة المتوقعة من البحر لسهولة
وضعها ولذلك والله اعلم كان طروق العدو للاسكندرية
وطرابلس في الملة مرات متعددة

(1) Man. D. بخيفه.

فصل فى المساجد والبيوت المعظمة فى العالم

اعلم ان الله سبحانه وتعالى فضل من الارض بقاعا اختصها بتشريفه وجعلها مواطن لعبادته يضاعف فيها الثواب وتتمو بها الاجور واخبرنا بذلك على السنة رسله وانبيائه لطفا بعباده ونسيلا لطرق السعادة بهم وكانت المساجد الثلاثة هى افضل بقاع الارض فيما علمناه حسبما ثبت فى الصحيحين وهى مكة والمدينة وبيت المقدس فمكة بيت ابراهيم صلوات الله عليه امره الله ببنائه وان يؤذن فى الناس بالحج اليه فبناه هو وابنه اسماعيل كما قصه القرآن العظيم وقام بنا امره الله فيه وسكن اسماعيل به مع هاجر ومن نزل معهم من جرهم الى ان قبضها الله ودفنا بالحجر منها وبيت المقدس هو بيت داود وسليمان عليهما السلام امرهما الله ببناء مسجده ونصب هياكله ودفن كثير من الانبياء من ولد اسحق عليه السلام حواليه والمدينة مهاجر نبينا صلعم امره الله بالهجرة اليها واقامة دين الاسلام بها ومنها فبنى مسجده الحرام بها وكان ماحده الشريف فى تربتها فهذه المساجد الشريفة الثلاثة قرّة عين المسلمين ومهوى افئدتهم وعصية دينهم وفى الآثار من فضلها ومضاعفة الثواب فى مجاورتها والصلاة فيها كثير معروف فلنشر الى شئ من الخبر عن اولية هذه المساجد

الثلاثة وكيف تدرجت احوالها الى ان كمل ظهورها في العالم
 (فاما مكة) فاوليتها فيها يقال ان ادم صلعم بناها قبالة البيت
 المعمور ثم هدمها الطوفان بعد ذلك وليس فيه خبر صحيح
 يعول عليه وانما اقتبسوه من محتمل الآية في قوله تعالى
 واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت ثم بعث الله ابراهيم وكان
 من شأنه وشأن زوجته سارة وغيرتها من هاجر ما هو معروف
 واوحى الله اليه ان يفارق هاجر ويغربها مع ابنها اسماعيل
 الى فاران وهي جبال مكة (1) مّا وراء الشام وبلد ايلة
 فاخرجها الى هناك ولحقت بمكان البيت وادركها العطش
 وكيف الله لهما من اللطف في نبع ماء من زمزم ومروور
 الرفقة من جرهم بهما حتى احتملوهما وسكنوا اليهما ونزلوا
 معهما حوالى زمزم كما عرف في موضعه فاتخذ اسماعيل
 بموضع الكعبة بيتا يأوى اليه وادار عليه سياجا من الدوم
 وجعله زربا لغنمه وجاء ابراهيم صلعم مرارا لزيارته من الشام
 امر في آخرها ببناء الكعبة مكان ذلك الزرب فبناه واستعان
 فيه بابنه اسماعيل ودعا الناس الى حجه وبقي اسماعيل ساكنا
 به ولما قبضت امه هاجر دفنها فيه ولم يزل قادما بخدمته
 الى ان قبضه الله تعالى ودفن مع امه هاجر واقام بنوه بامر
 البيت مع احوالهم من جرهم ثم العالقة من بعدهم واستمر

(1) ابنه اسماعيل واته ان ينزل (يترك) هاجر بالقلعة : Les manuscrits C. et D. portent : موضعهما في مكان البيت وسار عنهما وكس الله لهما من اللطف في نبع ماء بئر زمزم

الحال على ذلك والناس يهرون اليها من كل افق من جميع اهل الارض من الخليفة لا من بنى اسماعيل ولا من غيرهم ممن دنا او نأى فقد نقل ان التبابعة كانت تحج البيت وتعظمه وان تبع الذى يسهى قبار اسعد ابا كوب كساها الهاء والوصائل وامر بتطهيرها وجعل لها مفتاحا ونقل ايضا ان الفرس كانت تحج وتقرّب اليه وان غزالي الذهب الذين وجدها عبد المطلب حين احتفر زمزم كانا من قرابينهم ولم تزل لجرهم الولاية عليه بعد بنى اسماعيل ومن قبل حولتهم حتى اخرجتهم خزاعة واقاموا بها بعدهم ما شاء الله ثم كثر ولد اسماعيل وانتشروا وتشعبوا الى كنانة ثم كنانة الى قريش وغيرهم وساءت ولاية خزاعة فغلبتهم قريش على امره واخرجوهم من البيت وملكوها وعليهم يومئذ قصى بن كلاب فبنى البيت وسقفها بخشب الدوم وجريد النخل قال الاعشى

حلفت بثوبى راهب والنى بناها قصى وحده وابن جرهم

ثم اصاب البيت سيل فى ولايتهم ويقال حريق وتهدم فاعادوا بناءه وجمعوا النفقة لذلك من اموالهم وانكسرت سفينة بساحل جدة فاشتروا خشبها للسقف وكانت جدرانها فوق القامة فجعلوها ثمانية عشر ذراعا وكان الباب لاصقا بالارض فجعلوه فوق القامة ليلا تدخله السيول وقصرت بهم النفقة عن انمامه فقصروا عن قواعد وتركوا منه ستة

اذرع وشبرا اذاروها بجدار قصير يطاف من ورائه وهو الحجر
وبقى البيت على هذا البناء الى ان تحصن ابن الزبير
بمكة حين دعا لنفسه وزحفت اليه جيوش يزيد بن معاوية
مع الحصين بن نمير السكوني سنة اربع وستين فاصابه حريق
نقال من النفط الذي رموا به على ابن الزبير فتصدّعت
حيطانه فهدمه ابن الزبير واعاد بناءه احسن ما كان بعد ان
اختلف عليه الصحابة في بنائه واحتج عليهم بقول رسول
الله صلعم لعائشة لولا فومك حديثو عهد بكفر لرددت البيت
على قواعد ابراهيم ولجعلت له بابين شرقيًا وغربيًا
فهدمه وكشف عن اساس ابراهيم عليه السلام وجمع الوجوه
والاكابر حتى عاينوه واثار عليه ابن عباس بالتحري
في حفظ القبلة على الناس فادار على الاساس الخشب ونصب
من فوقها الستور حفظا للقبلة وبعث الى صنعاء في القصّة
والكلس فجلبها وسأل عن مقطع الحجارة الاول فجمع منها ما
احتاج اليه ثم شرع في البناء على اساس ابراهيم ورفع
جدرانها سبعا وعشرين ذراعا وجعل لها بابين لاصقين
بالارض كما روى في حديثه وجعل فرشها وازرها بالرخام
وصاغ لها المفاتيح وصفائح الابواب من الذهب ثم جاء
الحجاج لحصاره ايام عبد الملك ورمى على المسجد
بالمسجنيقات الى ان تصدّعت حيطانه ثم لما ظفر بابن

الزبير شاور عبد الملك فيما بناء وزاده في البيت فامر بهدمه ورد البيت على قواعد قریش كما هي اليوم ويقال انه ندم على ذلك حين علم صحة رواية ابن الزبير لحديث عائشة وقال وددت اني كنت حملت ابا حبيب من امر البيت وبنائه ما تحمل فهدم الحجاج منها ستة اذرع وشبرا مكان الحجر وبنائها على اساس قریش وستة الباب الغربى وما تحت عتبة بابها اليوم من الباب الشرقى وتركت سائرهما لم يغير منه شئ فكل بناء فيها اليوم بناء ابن الزبير وبين بنائه وبناء الحجاج فى الحائط صلة ظاهرة للعيان لجهة بين البنائين والبناء متبر عن البناء بمقدار اصبع شبه الصدع وقد لحم ويعرض هناك اشكال قوى لمنافاته لها يقوله الفقهاء فى امر الطواف وتحرز الطائف ان يهيل على الشاذروان الدائر باساس الجدر من اسفلها فيقع طوافه داخل البيت بناءً على ان الجدار اتىها قام على بعض الاساس وتركت بعضه وهو مكان الشاذروان وكذا قالوا فى تقبيل الحجر الاسود لا بد من رجوع الطائف من التقبيل الى ان يستوى قائماً لئلا يقع بعض طوافه داخل البيت واذا كان الجدران كلها من بناء ابن الزبير وهو اتى بناى على اساس ابراهيم فكيف يقع هذا الذى قالوه ولا مخلص من ذلك الا باحد امرين

أما أن يكون الحجاج هدمه جميعه واعاده وقد نقل ذلك
 جماعة لا أن العيان في شواهد البناء بالتحام ما بين
 البنائين وتمييز احد الشقيين من اعلاه عن الآخر في الصناعة
 برّد ذلك وأما أن يكون ابن الزبير لم يرّد البيت على
 اساس ابراهيم من جميع جهاته وأنها فعل ذلك في الحجر
 فقط ليدخله فهي الآن مع كونها من بناء ابن الزبير ليست
 على قواعد ابراهيم وهذا بعيد ولا محيص عن هذين والله اعلم
 ثم أن ساحة البيت وهو المسجد كان فضاء للطائفتين ولم
 يكن عليه جدار ابام النبي صلعم وابى بكر من بعده ثم كثر
 الناس فاشترى عمر دورا هدمها وزادها في المسجد وادار عليه
 جدارا دون القامة وفعل مثل ذلك عثمان ثم ابن الزبير
 ثم الوليد بن عبد الملك وبناء بعدد الرخام ثم زاد فيه
 الهنصور وابنه الهيدى من بعده ووقفت الزيادة واستقر على
 ذلك لعهدنا وتشريف الله لهذا البيت وعنايته اعظم من
 أن يحاط به وكفى من ذلك أن جعله مهبطا للوحى
 والهلائكة ومكانا للعبادة وفرض فيه شعائر الحج ومناسك
 وأوجب لحرمة من سائر نواحيه من حقوق التعظيم والحق
 ما لم يوجب لغيره فبمع من خالف دين الاسلام من دخول
 ذلك الحرم وأوجب على داخله أن يتجرّد من المخيط
 لا أن يستره وحمى العائد به والرائع فى مساره من مواقع

PROLÉGOMÈNES
d'Ebn-Khaldoun.

الآفات فلا يراع فيه خائف ولا يصاد له وحش ولا يحتطب له شجر وحد الحرم الذى يختص بهذه الحرمه من طريق المدينة ثلاثة اميال الى التنعيم (1) ومن طريق العراق سبعة اميال الى ثنية جبل المنقطع (2) ومن طريق الجعرانة تسعة اميال الى الشعب ومن طريق الطائف سبعة اميال الى بطن ندره ومن طريق جدّة عشرة اميال الى منقطع العشائر هذا شأن مكة وخبرها وتسمى أم القرى وتسمى الكعبة لعلوها من اسم الكعب ويقال لها ايضا بكة قال الاصمعي لأن الناس يبك بعضهم بعضا اليها اى يدفع وقال مجاهد انما هي باء بكة ابدلوا ميم كما قالوا لازم ولازب لقرب المخرجين وقال النخعي بل بالباء للبيت وبالميم للبلد وقال الزهرى بالباء للمسجد كله وبالميم للحرم وقد كانت الامم منذ عهد الجاهلية تعظمه والملوك تبعث اليه بالاموال والذخائر كسرى وغيره وقصة الاسياى وغزالي الذهب التى وجدها عبد المطلب حين احتفر زمزم معروفة وقد وجد رسول الله صلعم حين افتتح مكة فى الحب الذى كان فيها سبعين الف اوقية من الذهب مما كان الملوك تهدي الى البيت قيمتها الف دينار اثنان مكررة مرتين بمائتى قنطار وزنا وقال له على بن ابي طالب با رسول الله لو استعنت

(1) Man C. السعيم.

(2) Man. A. المنقطع. D. منقطع.

بهذا المال على حربك فلم يفعل ثم ذكر لابی بكر فلم
يحركه هكذا قال الازرقى وفى البخارى بسنده الى
ابى وايل جلست الى شيبة بن عثمان وقال جلس
الى عمر بن الخطاب فقال هممت ان لا ادع
فيها صفراء ولا بيضاء الا قسمتها بين المسلمين قلت
ما انت بفاعل قال فلم قلت لم يفعل صاحبك
قال هما المران يقتدى بهما وخرجه ابو داود وابن ماجه
واقام ذلك المال الى ان كانت فتنة لافطس وهو الحسين
بن الحسين بن على بن على زين العابدين سنة تسع
وتسعين ومائة حين غلب على مكة عمد الى الكعبة فاخذ
ما فى خزائنها وقال ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعا
فيها لا ينتفع به نحن احق به نستعين به على حربنا
واخرجه وتصرف فيه وبطلت الذخيرة من الكعبة من يومئذ
(واما بيت المقدس) وهو المسجد الاقصى فكان اول امره ايام
الصابية موضعا لهيكل الزهرة وكانوا يقربون اليه الزيت فيما
يقربونه ويصبونه على الصخرة التى هناك ثم دثر ذلك الهيكل
واتخذوها بنو اسرائيل حين ملكوها قبلة لصلواتهم وذلك
ان موسى صلوات الله عليه لما خرج ببني اسرائيل من
مصر ليملكهم بيت المقدس كما وعد الله اباهم اسرائيل
واباه اسحق ويعقوب من قبله واقاموا بارض التيه امره الله

بالتحاذقبة من خشب السط عيّن بالوحى مقدارها وصفتها
وهياكلها ونهايلها وان يكون فيها تابوت ومائدة بصحافها
ومنارة بقناديلها وان يصنع مذبحا للقربان ووصف ذلك
كله فى التوراة اكمل وصف فصنع القبة ووضع فيها تابوت
العهد وهو التابوت الذى فيه الألواح المصنوعة عوضا من
الألواح الهزلة بالكلمات العشر لها تكسرت ووضع المذبح
عندها وعهد الله الى موسى بان يكون هرون صاحب القربان
ونصبوا تلك القبة بين خيامهم فى التيه يصلون اليها
ويقربون فى الهذبة امامها ويتوجهون للوحى عندها ولما
ملكوا ارض الشام انزلوها بكلكال من بلاد الارض الهقدسة
ما بين قسم بنى يامين وبنى افرايم وبقيت هنالك
اربعة عشرة سنة سبعة امدّة الحرب وسبعة بعد الفتح ايام
قسمة البلاد ولما توفى يوشع عليه السلام نقلوها الى بلاد
شيلو قريبا من كلكال واداروا عليها الحيطان واقامت على
ذلك ثلثماية سنة حتى ملكها بنو فلسطين من ايديهم
كما مرّ وتغلبوا عليهم ثم ردّوا عليهم القبة ونقلوها بعد وفاة
على الكوهن الى نوف ثم نقلت ايام طالوت الى كنعون
فى بلاد بنى يامين ولما ملك داود عليه السلام نقل
القبة والتابوت الى بيت المقدس وجعل عليها خباء خاصا
ووضعها على الصخرة وبقيت تلك القبة قبلتهم واراد داود

عليه السلام بناء مسجد على الصخرة مكانها فلم يتم له ذلك وعهد به الى ابنه سليمان فبناه لاربع سنين من ملكه ولخمسماية سنة من وفاة موسى عليه السلام واتخذ عهدة من الصفر وجعل فيه صرح الزجاج وغشى ابوابه وحيطانه بالذهب وصاغ هياكله وتنائيله واوعيته ومناوره ومفاتيحه من الذهب وجعل ظهره مقبول يودع فيه تابوت العهد وجاء به من صهيون بلد ابيه داود نقله اليها ايام عمارة المسجد فجئى به تحمله الاسباط والكهنونية حتى وضع فى القبر ووضعت القبّة والاعوية والهدب كل حيث اعد له من المسجد واقام كذلك ما شاء الله ثم خربه بخت نصر بعد ثمانماية سنة من بنائه واحرق التوراة والعصا وسبك الهياكل ونثر الاجار ثم لما اعادهم ملوك الفرس بناءه عزيز من بنى اسرائيل لعهد باعانة بهمن ملك الفرس الذى كانت الولادة (1) لبنى اسرائيل عليه من سبي (2) بخت نصر وحد لهم فى بنائه حدودا دون بناء سليمان عليه السلام فلم يتجاوزها (وامّا) الاولوين التى تحت المسجد يركب بعضها بعضا عمود الاعلى منها على قوس الاسفل فى طبقتين ويتوهم كثير من الناس انها اصطبلات سليمان عليه السلام وليس كذلك وانما بناها تنزيها للبيت المقدس عما يتوهم

(1) Man. B. الولاية.

(2) Man. A. et D. سنى.

من النجاسة لان النجاسات فى شريعتهم وان كانت فى باطن الارض وكان ما بينها وبين ظاهر الارض محشوا بالتراب بحيث يصل ما بينها وبين الظاهر خطّ مستقيم ينجس ذلك الظاهر بالتوهم والتهوّم عندهم كالمحقق فبنوا هذه الاواوين على هذه الصورة بعمود الاواوين السفليّة تنتهى الى اقواسها وينقطع خطّه فلا تتصل النجاسة بالاعلى على خطّ مستقيم وتنزه البيت عن هذه النجاسة المتهوّمه ليكون ذلك ابغ فى الطهارة والتقدّيس ثم تداولتهم ملوك يونان والفرس والروم واستفحل الملك لبنى اسرائيل فى هذه المدد لبنى حشمتاى من كهونيتهم ثم لصهرهم هيرودس ولبنيه من بعدهم وبنى هيرودس بيت المقدس على حدود سليمان عليه السلام وتأنق فيه حتى اكمله فى ست سنين فلما جاء طيطش من ملوك الروم وغلبهم وملك امرهم خرب بيت المقدس ومسجدها وامر ان يزرع مكانه ثم اخذ الروم بدين المسيح عليه السلام ودانوا بتعظيمه ثم اختلف حال ملوك الروم فى الاخذ بدين النصرانيّة تارة وتركه اخرى الى ان جاء قسطنطين وتنصّرت امّه هلاية وارتحلت الى القدس فى طلب الخشبة التى صلب عليها المسيح بزعمهم فانخبروها القهامسة بانه روى بخشبته على الارض والقى عليه القمامات والقاذورات فاستخرجت الخشبة وبنت مكان تلك

القمامات كنيسة القمامة كأنها على قبره بزعمهم وخربت ما وجدت من عهارة البيت وامرت بطرح الزبل والقمامات على الصخرة حتى غطاها وخفى مكانها جزاء بزعمها عها فعلوه من قبر المسيح ثم بنوا ازاء القمامة بيت لحم وهو البيت الذى ولد فيه عيسى عليه السلام وبقي الامر كذلك الى ان جاء الاسلام والفتح وحضر عمر لفتح بيت المقدس وسأل عن الصخرة فارى مكانها وقد علاها الزبل والتراب فكشف عنها وبنى عليها مسجدا على طريق البداة وعظم من شأند ما اذن الله فى تعظيمه وما سبق فى أم الكتاب من فضله حسبما ثبت (ثم) احتفل الوليد بن عبد الملك فى تشييد مسجده على سنن مساجد الاسلام بما شاء الله من الاحتفال كما فعل فى المسجد الحرام وفى مسجد النبى صلعم بالهدينة وفى مسجد دمشق وكانت العرب يستبد بلاط الوليد والزم ملك الروم ان يبعث الفعلة والمال لبناء هذه المساجد وان ينمقوها بالفيسفاء فاطاع لذلك وتم بناؤها على ما اقترحه (ثم) لها ضعف امر الخلافة اعوام الخمسمائة من الهجرة وفى آخرها وكانت فى ملكة العبيديتين خلفاء القاهرة من الشيعة واختل امرهم زحف الفرنجة الى بيت المقدس فهاكوه وملكوا معه عامّة ثغور الشام وبنوا على الصخرة المقدسة منه كنيسة كانوا يعظمونها

ويفتخرون ببنائها حتى اذا استقل صلاح الدين بن ايوب
الكردي بملك مصر والشام ومحي اثر العبيديين وبدعهم
زحف الى الشام وجاهد من كان به من الفرنجة حتى غلبهم
على البيت المقدس وعلى ما كانوا ملكوه من ثغور الشام
وذلك لنحو ثمانين وخمسمائة من الهجرة وهدم تلك
الكنيسة واطهر الصخرة وبنى المسجد على النحو الذى هو
عليه لهذا العهد (ولا يعرض لك الاشكال المعروف فى
الحديث الصحيح ان النبى صلعم سئل عن اول بيت
وضع فقال مكة فقيل ثم اتى قال بيت المقدس قيل فكم
بينهما قال اربعون سنة فان المدة بين بناء مكة وبناء بيت
المقدس بمقدار ما بين ابراهيم وسليمان لان سليمان بانيها
وهو ينفى على الالف بكثير واعلم ان المراد بالوضع فى
الحديث ليس البناء والمراد انما اول بيت عيّن للعبادة
ولا يبعد ان يكون بيت المقدس عيّن للعبادة قبل سليمان
بمثل هذه المدة وقد نقل ان الصابية بنوا على الصخرة
هيكل الزهرة فلعل ذلك لانتها كانت مكانا للعبادة كما كانت
الجاهلية تضع الاصنام والتماثيل حول (1) الكعبة وفى جوفها
والصابية الذين بنوا هيكل الزهرة كانوا على عهد ابراهيم عليه
السلام فلا تبعد مدة الاربعين سنة بين وضع مكة للعبادة ووضع

(1) Man. C حوالى.

بيت المقدس وان لم يكن هناك بناء كما هو المعروف وان
اول من بنى بيت المقدس سليمان عليه السلام فتفهّمه وفيه حلّ
هذا الاشكال (وامّا المدينة المتورة) وهى المسماة يثرب فهى من
بناء يثرب بن المهلايل من العمالقة وبه سميت وملكها بنو
اسرائيل من ايديهم فيما ملكوه من ارض الحجاز ثم جاوهم
ابناء قبيلة من غسان وغلّبهم عليها وعلى حصونها ثم امر
النبي صلعم بالهجرة اليها لما سبق من عناية الله لها
فهاجر اليها ومعه ابو بكر وتبعه اصحابه ونزل بها وبنى
مسجده وبيوته فى الموضع الذى قد كان الله اعده لذلك
وشرفه فى سابق ازل واواه ابناء قبيلة ونصروه وبذلك
سمّوا الانصار وتّمت كلمة الاسلام من المدينة حتى علت على
الكليات وغلّب على قومه وفتح مكّة وملكها وظنّ
الانصار انه يتحوّل عنهم الى بلده فاهمهم ذلك فخطبهم
صلعم واخبرهم انه غير متحوّل حتى اذا قبض صلعم كان
ماحده الشريف بها وجاء فى فضلها من الاحاديث
الصحيحة ما لا خفاء به ووقع الخلاف بين العلماء فى
تفضيلها على مكّة وقال به مالك رحمه الله لما ثبت عنده
فى ذلك من النص الصريح عن رافع بن خديج ان
النبي صلعم قال المدينة خير من مكّة نقل ذلك عبد
الوهاب فى الهونّة الى احاديث اخرى تدلّ بظاهرها على

ذلك وخالف ابو حنيفة والشافعى واصبحت على كل حال
ثانية المسجد الحرام وجنح اليها الامم بافئدتهم من كل
اوب فانظر كيف تدرجت الفضيلة فى هذه المساجد
المعظمة لما سبق من عناية الله لها وتفهم سر الله فى الكون
وتدريجه على ترتيب محكم فى امور الدين والدنيا (واما) غير
هذه المساجد الثلاثة فلا نعلمه فى الارض الا ما يقال من شأن
مسجد ادم عليه السلام بسرندبب من جزائر الهند لكنه لم
يثبت فيه شئ يعول عليه وقد كانت للامم فى القديم مساجد
يعظمونها على جهة الديانة بزعمهم منها بيوت النار للفرس
وهياكل يونان وبيوت العرب بالحجاز الى امر النبى
صلعم بهدمها فى غزوانه وقد ذكر المسعودى منها بيوتا
لسنا من ذكرها فى شئ اذ هى غير مشروعة ولا هى على
طريق دينى فلا يلتفت اليها ولا الى الخبر عنها وبكفى
فى ذلك ما وقع فى النوارىخ فمن اراد معرفة الاجبار فعليه
بها والله يهدى من يشاء

فصل فى ان الامصار والمدن بافريقية والمغرب قليلة

والسبب فى ذلك ان هذه الاقطار كانت للبربر منذ آلاف
من السنين قبل الاسلام وان كان عمرانها كله بدوياً ولم
تستمر فيهم الحضارة حتى يستكمل احوالها والدول التى

ملكنتهم من الافرنجة والعرب لم يطل امد ملكهم فيهم حتى
نرسخ الحضارة منها فلم تنزل عوائد البداوة وشؤونها فكانوا لها
اقرب فلم تكثر مبانئهم وايضا فالصنائع بعيدة عن البربر
لانهم اعرق (1) في البدو والصنائع من توابع الحضارة وانما تتم
المباني بها فلا بد من الحذق في تعلمها ولما لم يكن للبربر
استحال لها لم يكن لهم تشوق الى المباني فضلا عن
الهدن وايضا فهم اهل عصبية وانساب (2) لا يخلو عن
ذلك جمع منهم والانساب والعصبية اجنح الى البدو وانما
يدعو الى المدن الدعة والسكون ويصير ساكنها عيالا على
حاميتها فتجد اهل البدو كذلك يستنكفون من سكنى
المدينة او المقامة (3) بها ولا يدعوهن الى ذلك الا الترف
والغنى وقليل ما هو فى الناس فلذلك كان عمران افريقية
والمغرب كله او اكثره بدوياً اهل خيام وظواغن وقياطن
وكن فى الجبال وكان عمران بلاد العجم كله او اكثره قرى
وامصار ورسانيق فى بلاد الاندلس والشام ومصر وعراق
العجم وامثالها لان العجم فى الغالب ليسوا باهل انساب
يحافظون عليها وبتناغون فى صراحتها والتحامها لا فى
الافل واكثر ما يكون سكنى البدو لاهل الانساب لان لحمة
النسب اقرب واشد فتكون عصبية كذلك وتنزع بصاحبها

(1) Man, D. اغرق.

(2) Man: D. الانساب.

(3) Ibid. المعاملة.

الى سكنى البدو والتجافى عن الهصر الذى يذهب
بالبسالة وبصيره عيالا على غيره فافهمه وقس عليه

فصل فى ان المبانى والمصانع فى الملة الاسلاميّة قليلة
بالنسبة الى قدرتها (1) ومن كان قبلها من الدول

والسبب فى ذلك ما ذكرنا مثله (2) فى البربر بعينه اذ
العرب ايضا اعرق (3) فى البدو وابتعد عن الصنائع وايضا فكانوا
اجانب من الممالك التى استولوا عليها قبل الاسلام ولما
نهلكوها لم ينفسح الامر حتى تستوفى رسوم الحضارة مع انهم
استغنوا بها وجدوا من مبانى غيرهم وايضا فكان الدين اول
الامر مانعا من المغالاة فى البنيان والاسراف فيه من غير
القصد كما عهد لهم عمر حين استأذنوه فى بناء الكوفة
بالحجارة وقد وقع الحريق فى القصب الذى كانوا بنوا به
من قبل فقال افعلوا ولا يزيدن احد على ثلاثة ابيات
ولا تطاولوا فى البنيان والزموا الستة تلزمكم الدولة وعهد الى
الوفد وتقدم الى الناس ان لا يرفعوا بنيانا فوق القدر قالوا
وما القدر قال ما لا يقربكم من السرف ولا يخرجكم عن
القصد فلما بعد العهد بالدين والتحرّج فى امثال هذه الهامد
وغلبت طبيعة الملك والترف واستخدم العرب امة الفرس

(1) Man. C. قدرها.

(2) Man. D. شأنه.

(3) Ibid. اغرق.

واخذوا عنهم الصنائع والمباني ودعتهن اليها احوال الدعة والترف وحينئذ شيّدوا المباني والمصانع وكان عهد ذلك قريبا بانقراض الدولة ولم ينفسح الامر لكثرة البناء واختطاط المدن والامصار الا قليلا وليس كذلك غيرهم من الامم فالفرس طالت مدّنتهم آلافا من السنين وكذلك القبط والنبط والروم وكذلك العرب الاول من عاد وثمود والعمالقة والتتابة طالت آمادهم ورسخت الصنائع فيهم فكانت مبانيهم وهياكلهم اكثر عددا وابقى على الايام اثرا واستبصر في هذا تجده كما قلت لك والله وارث الارض ومن عليها

فصل في ان المباني التي تختطها العرب يسرع اليها الخراب الا في الاقل

والسبب في ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع كما قدّمناه فلا تكون المباني وثيقة في شبيدها وله والله اعلم وجه اخر وهو امس بد وذلك قلّة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن كما قلناه من المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعى فان بالتفاوت في هذه تتفاوت جودة العمران والطبيعى والعرب بهزل عن هذا وانما يراعون مراعى ابلهم خاصة لا ببالون

بالماء طاب ام خبت ولا قل ام كثر ولا يسألون عن زكى
 المزارع والهابت والاهوية لانتقالهم فى الارض ونقلهم
 المحبوب من البلد البعيد واما الرياح فالفقر مختلن
 للمهابت كلها والظعن كفيل لهم بطيبتها لان الرياح انما
 تخبت مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات وانظر لما
 اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا فى اختطاطها
 الا مراعى ابلهم وما يقرب من الفقر ومسالك الظعن
 فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعى للمدن ولم تكن لها
 مادة نمذ عمرانها من بعدهم كما قدما بانه يحتاج اليه
 فى حفظ العمران فقد كانت مواطنهم غير طبيعية للقرار
 ولم تكن فى وسط الامم فيعمرها الناس فلاول وهلة من
 انحلال امرهم وذهاب عصبيتهم التى كانت سياجا لها اتى
 عليها الخراب والانحلال كان لم تكن والله يحكم لا معقب
 لحكمه

فصل فى مبادئ الخراب فى الامصار

اعلم ان الامصار اذا اختطت اولاً تكون قليلة المساكن
 وقليلة آلات البناء من الحجر والكلس وغيرها مما يعالى على
 الحيطان عند التائق كالزليج والرخام والفسفساء والسبج
 والصدف والرجاج فيكون بناؤها يومئذ بدوياً وآلاتها فاسدة

فاذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت آلاتها بكثرة الاعمال حينئذ وكثرة الصنائع الى ان تبلغ غايتها من ذلك كما سبق في شأنها فاذا تراجع عمرانها وقل ساكنها قلت الصنائع لاجل ذلك ففقدت الاجادة في البناء والاحكام والمعالجة عليه بالتنميق ثم تقل الاعمال لعدم الساكن فيقل جلب الآلات من الحجر والرخام وغيرهما فتفقد وبصير بناؤهم وتشبيدهم من الآلات التي في مبانيهم ينقلونها من مصنع الى مصنع لاجل خلاء اكثر المصانع والقصور والمنازل لقلة العمران وقصوره عما كان اولاً ثم لا تزال تنقل من قصر الى قصر ومن دار الى دار الى ان يفقد الكثير منها جهالة فيعودون الى البداوة في البناء واتخاذ الطوب عوضاً عن الحجارة والقصور عن التنميق بالكليّة فيعود بناء المدينة مثل بناء القرى والمداشر ويظهر عليها ميسم (1) البداوة ثم تمر في المناقص الى غايتها في الخراب ان قدر لها به ستة الله تعالى في خلقه

فصل في ان تفاضل الامصار والمدن في كثرة
الرفه ونفاق الاسواق وانما هو بتفاضل عمرانها في
الكثرة والقلّة

والسبب في ذلك انه قد عرف وثبت ان الواحد من

(1) ميسم. Man. C. et D.

البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته في معاشه وانهم متعاونون جميعا في عمرانهم على ذلك والحاجة التي تحصل بتعاون طائفة منهم تسدّ ضرورة الأكثر من عددهم اضعافا فالقوت من الحنطة مثلا لا يستقل الواحد بتحصيل حصّته منه وإذا انتدب لتحصيله الستّة او العشرة من حدّاد وتجار الآلات وقائم على البقر وائارة الارض وحصاد السنبيل وسائر مؤن الفلح وتوزّعوا على تلك الاعمال او اجتمعوا وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت فانه حينئذ قوت لاضعافهم مرّات فالاعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم واهل مدينة او مصر اذا وزعت اعمالهم كلها على مقدار ضروراتهم وحاجاتهم اكتفى فيها بالاقل من تلك الاعمال وبقيت الاعمال كلها زائدة على الضرورات فتصرف في حالات الترف وعوائده وما يحتاج اليه غيرهم من اهل الامصار ويستجلبونه منهم باعواضه وقيّته فيكون لهم بذلك حظّ من الغنى وقد يتبين لك في الفصل الخامس في باب الكسب والرزق ان المكاسب انما هي قيم الاعمال فاذا كثرت الاعمال كثرت قيمتها بينهم فكثرت مكاسبهم ضرورة ودعتهم احوال الرّفه والغنى الى الترف وحاجاته من التأنق في المساكن والملابس واستجادة الآنية والهاعون واتخاذ الخدم والهاكب وهذه

كلها اعمال تستدعى بقيمتها ويختار المهرة فى صناعتها والقيام عليها فتنفق اسواق الاعمال والصنائع ويكثر دخل الهصر وخرجه ويحصل اليسار لمنتحلى ذلك من قبل اعمالهم ومتى زاد العمران زادت الاعمال ثانية ثم زاد الترف تابعا للكسب وزادت عوائده وحاجاته واستنبطت الصنائع لتحصيلها فزادت قيمتها وتضاعف الكسب فى المدينة لذلك ثانية ونفق سوق الاعمال بها اكثر من الاول وكذا فى الزيادة الثانية والثالثة لان الاعمال الزائدة كلها تختص بالتurf والغنى بخلاف الاعمال الاصلية التى تختص بالمعاش فالمصر اذا فضل المصر بعمران واحد فضله بزيادة كسب ورفه وبعوائد من الترف لا توجد فى الآخر فها كان عمرانه من الامصار اكثر واوفر كان حال اهله فى الترف ابلغ من حال المصر الذى دونه على وتيرة واحدة فى الاصناف القاضى مع القاضى والتاجر مع التاجر والصانع مع الصانع والسوقى مع السوقى والامير مع الامير والشرطى مع الشرطى واعتبر ذلك فى المغرب مثلا بحال فاس مع غيرها من امصاره الاخرى مثل بجاية وتلمسان وسبتة تجد بينهما بونا كثيرا على الجملة ثم على الخصوصيات فحال القاضى بفاس اوسع من حال القاضى بتلمسان وكذا كل صنف مع اهل صنفه وكذا ايضا حال تلمسان مع وهران والجزائر وحال

وهران والجزائر مع ما دونها الى ان ينتهى الى المداشر الذين اعتمالهم فى ضرورات معاشهم فقط او يقصرون عنها وما ذاك الا لتفاوت الاعمال فيها فكانها كلها اسواق للاعمال والخرج فى كل سوق على نسبه فالقاضى بفاس دخله كفاء خرجه وكذا القاضى بتلمسان وحيث الدخول والخرج اكثر تكون الاموال اعظم واوسع وهما بفاس اكثر لتفاق سوق (1) الاعمال بما يدعو اليه الثرف فلاحوال اصخم ثم هكذا حال وهران وقسطنطينة والجزائر وبسكرة حتى تنتهى كما قلنا الى الامصار التى لا تفى اعمالها بضرورتها ولا تعدّ فى الامصار اذ هى من قبيل القرى والمداشر فلذلك ما نجد اهل هذه الامصار الصغيرة ضعفاء الحال متقاربين فى الفقر والخصاصة لما ان اعمالهم لا تفى بضرورتهم ولا يفضل لهم ما يتأثّلونه كسبا فلا تنمو مكاسبهم فهم لذلك محاييج مساكين الا فى الاقلّ النادر واعتبر ذلك حتى فى احوال الفقراء والسؤال فان السائل بفاس احسن حالا من السائل بتلمسان او وهران ولقد شاهدت بفاس السؤال يسألون ايام الاضاحى ائمان ضحاياهم ورايتهم يسألون كثيرا من احوال الثرف واقتراح الماكل مثل سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ والملابس والماعون

(1) Man. A. et B. سائر.

كالمغربال والآنية ولو سأل السائل مثل هذا بتلمسان او وهران
لاستنكر وعنف وزجر ويبلغنا لهذا العهد عن احوال اهل
القاهرة ومصر من الترف والغنى فى عوائدهم ما نقضى منه
العجب حتى ان كثيرا من الفقراء بالمغرب ينزعون الى
النقلة الى مصر لذلك ولما يبلغهم ان شأن الرفه بمصر
اعظم من غيرها وتعتقد العامة من الناس ان ذلك لطمو
الاموال فى تلك الآفاق وان الاموال مختزنة لديهم وانهم
اكثر صدقة وايثارا من جميع اهل الامصار وليس كذلك
وانما هو لما تعرفه من ان عمران مصر والقاهرة اكثر من
عمران هذه الامصار التى لديك فعظمت لذلك احوالهم
واما حال الدخل والخرج فتكافئ فى جميع الامصار ومتى
عظم الدخل عظم الخرج وبالعكس ومتى عظم الدخل
والخرج اتسعت احوال الساكن ووسع المصر وكل شئ
سبلغك من هذا فلا تنكره واعتبره بكثرة العمران وما يكون
عند من كثرة المكاسب التى يسهل بسببها البذل والايتار
على متبغيه ومثله بشأن الحيوانات العجم مع بيوت المدينة
الواحدة وكيف تختلف احوالها فى هجرانها او غشيانها فان
بيوت اهل النعم والثروة والهوائد الخصيبة منها تكثر
بساحانها وافئيتها تثير الحبوب وسواقط الفئات فيزدحم عليها
غواشى النهل والخشاش ويكثر فى سربها الجردان وتاوى

اليه السنابير وتحلق فوقها عصائب الطيور حتى تروح بطانا
وتمتلئ شعبا وريا وبيوت اهل الخصاصة والفقر الكاسدة
ارزاقهم لا يسرى بساحتها دبيب ولا يحلق نحوها طائر
ولا يآوى الى اسراب بيوتها فارة ولا هرّكها قال

يسقط الطير حيث يلتقط الحب ويغشى منازل الكرماء.

فتمل سر الله واعتبر غاشية الاناسى بغاشية العجم من
الحيوانات وفتات الموائد بفضلات الرزق والترف وسهولتها
على من يبذلها لاستغنائهم عنها فى الاكثر بوجود امثالها
لديهم واعلم ان اتساع الاحوال وكثرة النعم فى العمران تابع
لكثرته والله غنى عن العالمين

فصل فى اسعار المدن

اعلم ان الاسواق كلها تشتتل على حاجات الناس فمنها
الضرورى وهو الاقوات من الخنطة والشعير وما فى
معناها كالباقلأ والحمص والجلبيان وسائر حبوب الاقوات
ومصالحاتها كالبصل والثوم واشباهه ومنها الحاجى والكمالى
من الادم والفواكه والملابس والماعون والمراكب وسائر
الصنائع والمبانى فاذا استبحر المصر وكثر ساكنه رخصت
اسعار الضرورى من القوت وما فى معناه وغلت اسعار
الكمالى من الادم والفواكه وما يتبعها واذا قل ساكن المصر

وضعى عمرانہ كان الامر بالعكس من ذلك والسبب فى ذلك ان الحبوب من ضرورات القوت فتوفر الدواى على اتخاذها اذ كل احد لا يهمل قوت نفسه ولا قوت منزله لشهرة او سنته فيعم اتخاذها اهل المصر اجمع او الاكثر منهم فى ذلك المصر او فيما قرب منه لا بد من ذلك وكل متخذ لقوته فيفضل عنه وعن اهل بيته فضلة كثيرة تسد خلّة كثيرين من اهل ذلك المصر فتفضل الاقوات عن اهل المصر من غير شك فترخص اسعارها فى الغالب الا ما يصيبها فى بعض السنين من الآفات السهاوبة ولولا احتكار الناس لها لما يتوقع من تلك الآفات لبذلت دون ثمن ولا عوض لكثرتها بكثرة العمران (واما) سائر المرافق من الادم والفواكه وما اليها فانها لا تعم فيها البلوى ولا يستغرق اتخاذها اعمال اهل المصر اجمعين ولا الكثير منهم ثم ان المصر اذا كان مستنجرا موفور العمران كثير حاجات الترف توفرت حينئذ الدواى على طلب تلك المرافق والاستكثار منها كل بحسب حاله فيقصر الموجود منها عن الحاجات قصورا بالغا ويكثر الهتامون لها وهى قليلة فى نفسها فتزدحم الاغراض ويبذل اهل الترف والرفه اثمانها باسراف فى الغلاء لحاجتهم اليها اكثر من غيرهم فيقع فيها الغلاء كما تراه (واما) الصنائع والاعمال ايضا فى الامصار الموضوعة

العمران فسبب الغلاء فيها امور ثلاثة الاول كثرة الحاجة لمكان
الشرف فى المصر بكثرة عهرانه والثانى اعتزاز اهل الاعمال
بخدمتهم وامتهان انفسهم لسهولة المعاش فى المدينة بكثرة
اقوانها والثالث كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم الى امتهان
غيرهم والى استعمال الصنّاع فى مهنتهم فيبذلون فى ذلك
لاهل الاعمال اكثر من قيمة اعمالهم مزاحمة ومنافسة فى
الاستثمار بها فيعتزّ الفعلة والصنّاع واهل الحرف وتغلا اعمالهم
وتكثر نفقات اهل المصر فى ذلك واما الامصار الصغيرة
القليلة الساكن فاقوانهم قليلة لقلّة العمل فيها وما يتوقعونه
لصغر مصرهم من عدم القوت فيتمسكون بها يحصل منه فى
ايديهم ويحتكرونه فيعتزّ وجوده لديهم وبغلا نهه على مستامه
(واما) مرافقهم فلا تدعو اليها ايضا حاجة لقلّة الساكن
وضعف الاحوال فلا ينفق لديهم سوقه فيختصّ بالرخص
فى سعره وقد يدخل فى قيمة الاقوات ما يفرض عليها
من المكوس والهغام للسلطان فى الاسواق وابواب المصر
وللحياة فى منافع يفرضونها على البياعات لانفسهم
ولذلك كانت الاسعار فى الامصار اغلا من اسعار البادية
اذ المكوس والهغام والفرائض قليلة لديهم او معدومة
والامصار بالعكس سبها فى اواخر الدول وقد يدخل ايضا فى
قيمة الاقوات قيمة علاجها فى الفلح ويحافظ على ذلك

فى اسعارها كما وقع بالاندلس لهذا العهد وذلك انهم لها الجأهم النصارى الى سيف البحر وبلاد المتوعدة الخبيثة الزراعة النكرة النبات وملكوا عليهم الارض الزاكية والبلد الطيب فاحتاجوا الى علاج المزارع والقدن لاصلاح نباتها وفلاحها وكان ذلك العلاج باعمال ذات قيم ومواد من الزبل وغيره لها مؤنة وصارت فى فلاحهم نفقات لها خطر فاعتبروها فى سعرهم واختص قطر الاندلس بالغلاء منذ اضطروهم النصارى الى هذا المعمور بالاسلام مع سواحلها لاجل ذلك ويحسب الناس اذا سمعوا بغلاء الاسعار فى قطرهم انها لقلّة الاقوات والحبوب بارضهم وليس كذلك فهم اكثر اهل المعمور فلاحا فيما علمناه واقومهم عليه وقتل ان يخلو منهم سلطان او سوقة عن فدان او مزرعة او فلاح الا قليل من اهل الصناعات والمهن او الطراء على الوطن من الغزاة والمجاهدين ولهذا يختصهم السلطان فى عطائهم بالعودة وهى اقواتهم وعلوفتهم من المزارع (1) وانما السبب فى غلاء السعر عندهم فى الحبوب ما ذكرناه ولما كانت بلاد البربر بالعكس من ذلك فى زكاء منابتهم وطيب ارضهم ارتفعت عنهم المؤن جملة فى الفلاح مع كثرته وعيونه فصار ذلك سببا لرخص الاقوات ببلدهم والله سبحانه وتعالى مقدّر الليل والنهار

(1) Man. C. et D. الزرع.

فصل فى قصور اهل البادية عن سكنى المصار الكثير العمران

والسبب فى ذلك ان المصر الكثير العمران بكثر ترفه كما قدمناه وتكثر حاجات ساكنه من اجل الترف وتعداد (1) تلك الحاجات لما تدعو اليها فتقلب ضرورات وتصير الاعمال فيه كلها مع ذلك عزبة والمرافق غالية بازدهام الاغراض عليها من اجل الترف وبالمغامر السلطانية التى توضع على الاسواق والبياعات وتعتبر فى قيم الهبيعات ويعظم فيها الغلاء فى المرافق والاقوات والاعمال فتكثر لذلك نفقات ساكنيه كثرة بالغة على نسبة عمرانته ويعظم خرجه فيحتاج حينئذ الى الهال الكثير للنفقة على نفسه وعياله فى ضرورات عيشهم وسائر مؤنهم والبدوى لم يكن دخله كثيرا اذ كان ساكنا بمكان كاسد الاسواق فى الاعمال التى هى سبب الكسب فلم يتأثّل كسبا ولا مالا فيعتذر عليه من اجل ذلك سكنى المصر الكبير لاجل مرافقه وعزّة حاجاته وهو فى بدوه يسدّ خلته باقل الاعمال لانه قليل عوائد الترف فى معاشه وسائر مؤنّه فلا يضطرّ الى المال وكل من يتشوّف الى المصر وسكنائه من اهل البادية فسرّعا ما يظهر عجزه ويفتضح الا من تقدّم

(1) يعتاد. C. et D. مان.

منهم تأييل المال ويحصل له منه فوق الحاجة ويجرى الى
الغاية الطبيعية لاهل العمران من الدعة والترف فحينئذ ينتقل
الى المصر وينتظم حاله مع احوال اهله في عوائدهم وترفعهم
وهكذا شأن بداية عمران الامصار والله بكل شئ محيط

فصل في ان الاقطار في اختلاف احوالها بالرقة والفقرة مثل الامصار

اعلم ان ما توفر عمراناه في الاقطار وتعددت الامم في حهبانه
وكثر ساكنه اتسعت احوال اهله وكثرت اموالهم وامصارهم
وعظمت دولهم وممالكهم والسبب في ذلك كله ما ذكرناه
من كثرة الاعمال وما سيأتى ذكره من انها سبب للثروة بها
يفضل عنها بعد الوفاء بالضرورات في حاجات الساكن
من الفضلة البالغة على مقدار العمران وكثرته فيعود على
الناس كسبا يتأثرونه حسبما نذكر ذلك في فصل المعاش
وبيان الرزق والكسب فيزبد الرقة لذلك وتوسع الاحوال
ويجىء الترف والغنى وتكثر الجباية للدولة بنفاق الاسواق
فيكثر مالها ويشمخ سلطانها ويتفتن في اتخاذ المعاول
والحصون واختطاط المدن وتشيد الامصار واعتبر ذلك
باقطار المشرق مثل مصر والشام وعراق العجم والهند والصين
وناحية الشمال كلها واقطارها وراء البحر الرومى لما كثر

PROLÉGOMÈNES
L'Ém-Khaldoun.

عمرانها كيف كثر المال فيهم وعظمت دولهم وتعددت مدنهم
وحواضرهم وعظمت متاجرهم واحوالهم فالذى نشاهده لهذا
العهد من احوال تجار الامم النصرانية الواردين على المسلمين
بالمغرب فى رفهم واتساع احوالهم اكثر من ان يحيط
به الوصف وكذا تجار اهل المشرق وما يبلغنا من احوالهم
اكثر من ان يحيط وابلغ منها احوال اهل المشرق الاقصى
من عراق العجم والهند والصين (١) فانه يبلغنا عنهم فى باب
الغنى والرفه احوال غرائب يسير الركاب بحديثها ورتما
نتلقى بالانكار فى غالب الامر ويحسب من يسمعها من
العامة ان ذلك لزيادة فى اموالهم او لان المعادن الذهبية
والفضية اكثر بارضهم او لان ذهب الاقدمين من الامم
استأثروا بها دون غيرهم وليس كذلك فعدن الذهب الذى
نعرفه فى هذه الاقطار انما هو ببلاد السودان وهى الى المغرب
اقرب وجميع ما فى ارضهم من البضاعة فانما يجلبونه الى
غير بلادهم للتجارة فلو كان المال عتيذا موفورا لديهم لما
جلبوا بضائعهم الى سواهم يبتغون بها الاموال ولا يستغفوا (2)
عن اموال الناس بالجملة ولقد ذهب المنجمون لما رأوا مثل
ذلك واستغربوا ما فى المشرق من كثرة الاحوال واتساعها
ووفور اموالها فقالوا ان عطايا الكواكب والسهام فى مواليد

(١) Man. A. et B. اليهن.

(2) Man. C. استغفوا

اهل المشرق اكثر منها حصصا في مواليد اهل المغرب وذلك صحيح من جهة المطابقة بين الاحكام النجومية والاحوال الارضية كما قلناه وهم انما اعطوا في ذلك السبب النجومى وبقي عليهم ان يعطوا السبب الارضى وهو ما ذكرناه من كثرة العمران واختصاصه بارض المشرق واقطاره وكثرة العمران نفيد كثرة الكسب بكثرة الاعمال التى هى سببه فلذلك اختص المشرق بالرّفه من بين الآفاق لا ان ذلك بمجرد الاثر النجومى فقد فهمت منها اشرا لك اول انه لا يستقلّ بذلك فان المطابقة بين حكمه وعمران الارض وطبيعتها امر لا بدّ منه واعتبر حال هذا الرّفه من العمران في قطر افريقية وبرقة لما خق ساكنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت احوال اهلها وانتهوا الى الفقر والخصاصة وضعفت جباياتها فقلّت اموال دولها بعد ان كانت دول الشيعة وصنهاجة بها على ما بلغك من الرّفه وكثرة الجبايات واتساع الاحوال في نفقاتهم واعطيانهم حتى لقد كانت الاموال ترفع من القيروان الى صاحب مصر لحاحاند ومهتانه في غالب الاوقات وكانت اموال الدولة بحيث حمل جوهر الكاتب في سفره الى فتح مصر الف حمل من الهال يستعدها لارزاق الجنود واعطيانهم ونفقات الغزاة وقطر المغرب وان كان في القديم دون

افريقية فلم يكن بالقليل فى ذلك وكانت احواله فى دولة الموحدين متسعة وجباياته موفورة وهو لهذا العهد قد اقصر عن ذلك لقصور العمران فيه وتناقص فقد ذهب من عمران البربر فيه اكثره ونقص من معهوده نقضا ظاهرا محسوسا وكاد ان يلحق فى احواله بمثل احوال افريقية بعد ان كان عمرانه متصلا من البحر الرومى الى بلاد السودان فى طول ما بين السوس الاقصى وبرقة وهى اليوم كلها او اكثرها قفار وخلاء وصحارى لا ما هو منها بسيف البحر او ما يقاربه من التلول والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

فصل فى تأكل العقار والضياع فى الامصار وحال فوائدها
ومستغلانها

اعلم ان تأكل العقار والضياع الكثيرة لاهل المدن والامصار لا يكون دفعة ولا فى عصر واحد اذ ليس يكون لاحد منهم من الثروة ما يملك به الاملاك التى يخرج فيها عن الحد ولو بلغت احوالهم فى الرفه ما عسى ان تبلغ وانما يكون ملكهم لها وتأكلهم تدريجا اما بالورثة من ابائهم وذوى رحمهم حتى تتأدى املاك الكثيرين منهم الى الواحد واكثر كذلك او يكون (1) بحوالة الاسواق فان العقار فى اواخر الدولة واول

(1) Man. D. واكثر ذلك ان يكون.

الأخرى عند فناء الحامية وخرق السياج وتدأى المصر الى
 الخراب تقل الغبطة به لقلة المنفعة فيها بتلاشى الاحوال
 فتدخس قيمها وتتملك بالاثمان اليسيرة وتخطى بالميراث
 الى ملك الأخر وقد استجد المصر شبابيه باستفحال الدولة
 الثانية وانتظمت معه احوال حسنة تحصل معها الغبطة فى
 العقار والضياع لكثرة منافعها حينئذ فتعظم قيمها ويكون لها
 خطر لم يكن فى الأول وهذا معنى الحوالة فيها ويصبح
 مالؤها من اغنى اهل المصر وليس ذلك بسعيه
 واكتسابه اذ قدرته تعجز عن مثل ذلك (واما) فوائد (١) العقار
 والضياع فهى غير كافية لمالكها فى حاجات معاشه اذ هى
 لا تفى بعوائد الترف واسبابه وآنها هى فى الغالب لسد
 الخلّة وضرورة المعاش والذى سمعناه من مشيخة البلدان
 ان القصد باقتناء الملك من العقار والضياع أنها هو الخشمية
 على من يترك خلفه من الذرية الضعاف ليكون مبراهاهم
 ورزقهم فيه ونشوئهم بفائدته ما داموا عاجزين عن الاكتساب
 فاذا اقتدروا على تحصيل المكاسب سعوا فيها بانفسهم
 وربما يكون من الولد من يعجز عن التكسب لضعف
 فى بدنه او آفة فى عقله المعاشى فيكون ذلك العقار
 قواما لحاله هذا قصد المترفين فى اقتنائه (واما) التمول

(١) Man. A. et D. ترايد.

منه واجراء احوال المترفين فلا وقد يحصل ذلك منه للقليل
او النادر بحالة الاسواق وحصول الكثرة البالغة منه والتغالى (1)
فى جنسه وقيمته فى المصر الا ان ذلك اذا حصل
فربما امتدت اليه اعيان الامراء والولاة واغتصبوه فى الغالب
او ارادوه على بيعه منهم ونالت اصحابه منه مضار ومعاطب
والله غالب على امره

فصل فى حاجة المتمولين من اهل الامصار الى الجاه (2) والمدافعة

وذلك ان المحصرى اذا عظم تموله وكثر للعقار والضياع
نائله واصبح اغنى اهل المصر ورفقته العيون وانفسحت
احواله فى الترف والعوائد زاحم عليها الاسراء والملوك
وغصوا به ولما فى طباع البشر من العدوان تمتد اعينهم الى
تملك ما بيده وينافسونه فيه ويتحيلون على ذلك بكل
ممكن حتى بحصوله (3) فى رتبة حكم سلطانتى وسبب من
المواخذة ظاهر ينتزع به ماله واكثر الاحكام السلطانية جائرة
فى الغالب اذ العدل المحض انما هو فى الخلافة الشرعية
وهى قليلة اللبث قال صلعم الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم
تعود ملكا عضوصا فلا بد حينئذ لصاحب المال والثروة الشهيرة

(1) Man. A. التغالى. B. et C. العالى.

(2) Man. D. الحماية.

(3) Man. A. محصوله. D. محصولونه.

فى العمران من حامية تذود عنه وجاه ينسحب عليه من
ذى قرابة للهلك او خالصة له او عصبية يتحامها السلطان
فيستظل هو بظلمها ويرتفع (1) فى امنها من طوارق التعدى
وان لم يكن له ذلك اصبح نهبا بوجوه التحيلات واسباب
الحكم والله يحكم لا معقب لحكمه

فصل فى ان الحضارة فى الامصار من قبل الدول وانها
ترسخ باتصال الدولة ورسوخها

والسبب فى ذلك ان الحضارة هى احوال عادية زائدة
على الضرورى من احوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت
الرفه ونفاوت الامم (2) فى الفلة والكثرة تفاوتها غير منحصر
ويقع فيها عند كثرة التفنن فى انواعها واصنافها فيكون
بمنزلة الصنائع ويحتاج كل صنم منها الى القومة عليه المهرة
فيه ويقدر ما يتميز من اصنافها بزيادة اهل صناعتها ويتلون
ذلك الجيل بها ومتى اتصلت الايام وتعاقبت تلك
الصبغات حذق اولئك الصناع فى صناعاتهم ومهروا
فى معرفتها والاعصار بطولها وانفساح امدها وتكرر امثالها
تزيدها استحكما ورسوخا واكثر ما يكون ذلك فى
الامصار لاستبحار العمران وكثرة الرفه فى اهلها وذلك كله

(1) Man. A. et B. يرتفع.

(2) Man. C. et D. الامر.

أما يجئ من قبل الدولة لان الدولة تجمع اموال الرعيّة
وتنفقها فى بطانتها ورجالها وتتسع احوالهم بالجاه اكثر
من اتساعها بالمال فيكون دخل تلك الاموال من الرعايا
وخرجها فى اهل الدولة ثم فيمن تعلق بهم من اهل
المصر وهم الاكثر فتعظم لذلك ثروتهم ويكثر غناهم
وتزيد عوائد الثرى ومذاهبه وتستحكم لديهم الصنائع فى
سائر فنونه وهذه هى الحضارة ولهذا نجد الامصار التى فى
القاصية ولو كانت موفورة العمران فتغلب عليها احوال
البداوة وتبعد عن الحضارة فى جميع مذاهبها بخلاف المدن
المتوسطة فى الاقطار التى هى مركز الدولة ومقرها وما ذلك
الا لمجاورة السلطان لهم وفيض امواله فيهم كالماء يخضر ما
قرب منه مما (1) قرب من الارض الى ان ينتهى الى الجفوف
على البعد (2) وقد قدّما ان السلطان والدولة سوق للعالم
فالبضائع كلها موجودة فى السوق وما قرب منه واذا بعدت
عن السوق افتقدت البضائع جملة ثم انه اذا اتصلت
تلك الدولة وتعاقب ملوكها فى ذلك المصر واحدا بعد
واحد استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخا واعتبر ذلك
فى اليهود لما طال ملكهم فى الشام نحو من الف واربعماية
سنة رسخت حضارتهم وحذقوا فى احوال المعاش وعوائده

(1) Man, A. بها. C.

(2) Man, A. et B. البعيد.

والثغنى فى صناعاته من المطاعم والملابس وسائر احوال
الهنزل حتى انها لتؤخذ عنهم فى الغالب الى اليوم ورسخت
الحضارة ايضا وعوائدهما فى الشام منهم ومن دول الروم
بعدهم ستمائة سنة فكانوا فى غاية الحضارة وكذلك ايضا
القبط دام ملكهم فى الخليقة ثلاثة آلاف من السنين
فرسخت عوائد الحضارة فى بلدهم مصر واعقبهم بها ملك
اليونانيين والروم ثم ملك الاسلام الناسخ للكل فلم تنزل
عوائد الحضارة بها متصلة وكذلك ايضا رسخت عوائد
الحضارة باليمن لاتصال دولة العرب بها منذ عهد العمالة
والتابعة آلاف من السنين واعقبهم ملك مضر وكذلك
الحضارة بالعراق لاتصال دولة النبط والفرس بها من لدن
الكلدانيين والكنينية والكسروية والعرب بعدهم آلاف من
السنين فلم يكن على وجه الارض لهذا العهد احضر من اهل
الشام والعراق ومصر وكذلك ايضا رسخت عوائد الحضارة
بالاندلس لاتصال الدولة العظيمة فيها للقوط ثم ما اعقبها من
ملك بنى امية آلاف من السنين وكلا الدولتين عظيم
فاتصلت فيها عوائد الحضارة واستحكمت واما افريقية
والمغرب فلم يكن فيها قبل الاسلام ملك ضخم انما قطع
الروم والافرنجة الى افريقية البحر وماكوا الساحل وكانت
طاعة البربر اهل الصحابة لهم طاعة غير مستحكمة فكانوا على

قلعة واوفاز (1) واهل المغرب لم تجاورهم دولة وأنما كانوا يبعثون بطاعتهم الى القوط من وراء البحر ولها جاء الله بالاسلام وملك العرب افريقية والمغرب لم يلبث فيهم ملك العرب الا قليلا اول الاسلام وكانوا لذلك العهد في طور البداوة ومن استقر منهم بافريقية والمغرب لم يجد بهما من الحصار ما يقد فيه من سلفه اذ كانوا برابر منغسين في البداوة ثم انتقض برابرة المغرب الاقصى لا قرب العهود على يد ميسرة المظفرى ايام هشام بن عبد الملك ولم يراجعوا امر العرب بعد واستقلوا بامر انفسهم وان بايعوا لادريس فلا تعد دولتهم فيهم عربيّة لان البرابرة هم الذين تولوها ولم يكن من العرب فيها كبير عدد وبقيت افريقية للاغلبة ومن اليهم من العرب فكان لهم من الحصار بعض الشئ بما حصل لهم من ترف الملك ونعيمه وكثرة عمران القيروان وورث ذلك عنهم كتامة ثم صنهاجة من بعدهم وذلك كله قليل لم يبلغ اربعماية سنة وانصرمت دولتهم واستحالت صبغة الحصار بما كانت غير مستحكمة وتغلب بدو العرب الهلاليين عليها وخرّبوها وبقي اثر خفي من حصار العمران فيها والى هذا العهد يونس فيمن سلف له بالقلعة او القيروان او المهديّة سلف فتجد له من احوال

(1) Man. C. قلعه واوفاز. D. قلعة وافان.

الحضارة فى شؤن منزله وعوائد احواله آثارا ملتبسة بغيرها
يميزها الحضرى البصير بها وكذا فى اكثر امصار افريقية
وليس ذلك فى المغرب وامصار لرسم الدولة فى افريقية
اكثر امداً منذ عهد الاغالبة والشيعة وصنهاجة واما المغرب
فانتقل اليه منذ دولة الموحدين من الاندلس حظ كبير من
الحضارة واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من
الاستيلاء على بلاد الاندلس وانتقل الكثير من اهلها اليهم
طوعا وكرها وكانت من اتساع النطاق ما علمت فكان فيها
حظ صالح من الحضارة واستحكامها ومعظمها من اهل
الاندلس ثم انتقل اهل شرق الاندلس عند جالية النصارى
الى افريقية فابقوا بها وبامصارها من الحضارة آثارا معظمها
بتونس امتزجت بحضارة مصر وما ينقله المسافرون من عوائدها
فكانت بذلك للمغرب وافريقية حظ من الحضارة صالح
عفا عليه الخفا ورجع على اعقابه وعاد البربر بالمغرب الى
اديانهم من البداوة والخشونة وعلى كل حال فان الحضارة
بافريقية اكثر منها بالمغرب وامصار لها تداول فيها من الدول
السالفة اكثر من المغرب ولقرب عوائدهم من عوائد اهل
مصر بكثرة المترددين بينهم فتفطن لهذا السر فانه خفى
عن الناس (واعلم) انها امور متناسبة وهى حال الدولة
فى القوة والضعف وكثرة الامة او الجبل وعظم المدينة

او المصر وكثرة النعمة واليسار وذلك ان الدولة والملك صورة الخليفة والعمران وكلها مادة له من الرعايا والامصار وسائر الاحوال واموال الجباية عائدة عليهم ويسارهم في الغالب من اسواقهم ومتاجرهم واذا افاض السلطان عطاءه وامواله في اهلها انبت فيهم ورجعت اليه ثم اليهم منه فهي ذاهبة عنهم في الجباية والخراج عائدة عليهم في العطاء فعلى نسبة مال الدولة يكون يسار الرعايا وعلى نسبة يسار الرعايا ايضا وكثرتهم يكون مال الدولة واصله كله العمران وكثرته فاعتبره وتامله تجده والله سبحانه وتعالى يحكم لا معقب لحكمه

فصل في ان الحضارة غاية للعمران وبهاية لعمره
وانها مؤذنة بفساده

قد بيّنا لك فيما سلف ان الملك والدول غاية للعصبية وان الحضارة غاية للبداءة وان العمران كله من بداءة وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوس كما ان للشخص الواحد من اشخاص المكونات عمرا محسوسا وتبين في العقل والمنقول ان الاربعين للانسان غاية في تزايد قواه ونموها وانه اذا بلغ سن الاربعين وقفت الطبيعة عن اثر النمو والنمو برهة ثم تاخذ بعد ذلك

في الانحطاط فلتعلم ان الحضارة في العمران ايضا كذلك
لانه غاية لا مزيد ورائها وذلك ان الثرف والنعمة اذا
حصل لاهل العمران دعاهم بطبعه الى مذاهب الحضارة
والتخلق بعوائدها والحضارة كما علمت هي التفتن في
الثرف واستجادة احواله والكلف بالصنائع التي تونق (1) من
اصنافه وسائر فنونه كالصنائع المهيأة للطبايح واللباس
او المبانى او الفرش او الآنية ولسائر احوال المنزل وللتأنق
فى كل واحد من هذه صنائع كثيرة لا يحتاج اليها عند البداوة
وعدم التأنق فيها واذا بلغ التأنق فى هذه لاحوال المنزلية
الغاية تبعه طاعة الشهوات فتتلون النفس من تلك العوائد
بالوان كثيرة لا يستقيم حالها معها فى دينها ولا دنياها اما
دينها فلاستحكام صبغة العوائد التي يعسر نزعها واما دنياها
فلكثرة الحاجات والمؤنات التي تطالب بها العوائد ويعجز
الكسب عن الوفاء بها وبيانه ان المصر بالتفتن فى الحضارة
يعظم نفقات اهله والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران فمتى
كان العمران اكثر كانت الحضارة اكمل وقد كنا قدّمنا
ان المصر الكثير العمران يختص بالغلاء في اسواقه واسعا
حاحانه ثم تزبدها الهكوس غلاء لان كمال الحضارة انه
يسكنون عند نهاية الدولة فى استفحالها وهو زمن وضع

(1) Man. D. توتنى.

الهكوس فى الدول لكثرة خرجها حينئذ كما تقدم والهكوس تعود على البياعات بالغلاء لان السوق والتجار كلهم يحسنون على سلعهم وبضائعهم بجميع ما ينفقونه حتى مؤنة انفسهم فيكون المكس لذلك داخلا فى قيم المبيعات وانهاها فتعظم نفقات اهل الحاضرة (1) وتخرج عن القصد الى الاسراف ولا يجدون وليجة عن ذلك لما ملكهم من اسر العوائد وطاعتها وتذهب مكاسبهم كلها فى النفقات ويتتابعون (2) فى الاملاق والخصاصة ويغلب عليهم الفقر ويقل المستامون للبضائع فتكسد الاسواق وتفسد حال المدينة وداعية ذلك كله افراط الحضارة والترف وهذه مفسدتها فى المدينة على العموم فى الاسواق والعمران واما فساد اهلها فى (3) ذواتهم واحدا واحدا على الخصوص فمن الكد والتعب فى حاجات العوائد والتلون بالوان الشر فى تحصيلها وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون اخر من الوانها فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه وتنصرف النفس الى الفكر فى ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له فتجدهم اجرياء على الكذب والمثامرة والغش والخلابة والسرقة والفجور فى الايمان والرباء فى

(1) Man. D. الحضارة.

(2) Ibid. يتنابعون.

(3) Man. A. et B. من.

البياعات ثم تجدهم لكثرة الشهوات والملاذ الناشئة عن
الترف ابصر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه
واطراح الحشمة فى الخوض فيه حتى بين الاقارب وذوى
الارحام والمحارم الذين يقتضى البداوة الحياء منهم فى
الاقداع بذلك ونجدهم ايضا ابصر بالكر والخديعة يدفعون
بذلك ما عساه ينالهم من القهر وما يتوقعونه من العقاب
على تلك القبائح حتى يصير ذلك عادة وخلقا لاكثرهم
الا من عصمه الله ويموج بحر المدينة بالسفلة من اهل
الخلق الذميمة ويجارهم (1) فيها كثير من ناشئة (2) الدولة
وولدانهم مهن اهل عن التأديب واهملته الدولة من عدادها
وغلب عليه خلق الجوار والصحابة (3) وان كانوا اصحابه اهل
انساب واثبات وذلك ان الناس بشر متمائلون وانما
تفاضلوا وتمايزوا بالخلق واكتساب الفضائل واجتناب
الردائل فمن استحكمت فيه صيغة الرذيلة باى وجه كان
وفسدت خلق الخير فيه لم ينفعه زكاء نسبه ولا طيب
منبته ولهذا نجد كثيرا من اعقاب البيوت وذوى الاحساب
والاصالة واهل الدول مطرحين فى الغمار منتحلين
للحرف الدنيّة فى معاشهم بها فسد من اخلاقهم وما
تلوّوا به من صيغة الشر والسفسفة واذا كثر ذلك فى

(1) Man. D. يجارهم.

(2) Mau. G. نسبه.

(3) Man. D. الصحاب.

المدينة او الامة تاذن الله بخرابها وانقراضها وهو معنى قوله تعالى واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ووجهه ان مكاسبهم حينئذ لا تنفى بحاجاتهم لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها فلا تستقيم احوالهم واذا فسدت احوال الاشخاص واحدا واحدا اختل نظام المدينة وخربت وهذا معنى ما يقوله بعض الخواص (1) ان المدينة اذا كثر فيها غرس النارج تاذنت بالخراب حتى ان كثيرا من العامة يتحاشى (2) غرس النارج بالدور تطيرا به وليس المراد ذلك ولا انه طيرة (3) فى النارج وانما معناه ان البساتين واجراء المياه هو من توابع الحضارة ثم ان النارج واللبم والسرو وامثال ذلك مها لا طعم فيه ولا منفعة هو من غايات الحضارة اذ لا يقصد بها فى البساتين الا اشكالها فقط ولا تغرس الا بعد التفقن فى مذاهب الترف وهذا هو الطور الذى بخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلناه ولقد قيل مثل ذلك فى الدفلا وهو من هذا الباب اذ الدفلا لا يقصد بها الا تلون البساتين بنورها ما بين احمر وابيض وهو من مذاهب الترف ومن مفاسد الحضارة ايضا لانهماك فى

(1) Man. A. et B. اهل الخواص. D. اهل الحواصر.

(2) Man. D. يتحاشى.

(3) Man. C. et D. خاصه.

الشهوات ولاسترسال فيها لكثرة الترف فيقع التفنن في شهوات البطن من الماكل وملاذها والمشارب وطيبها ويتبع ذلك التفنن في شهوات الفرج بانواع المناكح من الزناء واللواط فيفضى ذلك الى فساد النوع اما بواسطة اختلاط الانساب كما فى الزناء فيجهل كل احد ابنه اذ هو لغير رشده ولان المياه مختلطة فى الارحام فتفقد الشفقة الطبيعية على البنين والقيام عليهم فيهلكون ويودى ذلك الى انقطاع النوع او يكون فساد النوع بغير واسطة كما فى اللواط المودى الى عدم النسل راسا وهو اشد فى فساد النوع اذ هو يودى الى ان لا يوجد النوع والزناء يودى الى عدم ما يوجد منه ولذلك كان مذهب مالک رحمه الله فى اللواط اظهر من مذهب غيره ودل على انه ابصر بمقاصد الشريعة واعتبارها للمصالح فافهم ذلك واعتبر به ان غاية العمران هى الحضارة والترف وانه اذا بلغ غايته انقلب الى الفساد واخذ فى الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانات بل نقول ان الخلق الحاصلة من الحضارة والترف هى عين الفساد لان الانسان انما هو انسان باقتداره على جلب منفعه ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعى فى ذلك والحضرى لا يقدر على مباشرة حاجاته اما عجزا بها حصل له من الدعة او ترقعا لما حصل له من المربا فى النعيم والترف

وكلا الأمرين ذميم وكذلك لا يقدر على دفع الهزار بما
فقد من خلق البأس بالترف والمربا في قهر التآديب
والتعليم فهو لذلك عيال على الحامية التي تدافع عنه ثم
هو فاسد أيضا في دينه غالبا بما افسدت منه العوائد وطاعاتها
وما تلونت (1) به النفس من ملكاتها كما قررناه ألا في
الأقل النادر وإذا فسد الإنسان في قدرته ثم في أخلاقه ودينه
فقد فسدت إنسانيته وصار مسخا على الحقيقة وبهذا
الاعتبار كان الذين يتقربون من جند السلطان إلى
البدواة والخشونة انفع من الذين يربون على الحضارة
وخلقها وهذا موجود في كل دولة فقد تبين أن الحضارة
سن الوقوف لعمر العالم من العمران والدول والله الواحد
القهار

فصل في أن الأمصار التي تكون كراسي للملوك
تخرب بخراب الدولة وانتقاضها

قد استقر بنا في العمران أن الدولة إذا انتقضت واختلت
فإن المصير الذي يكون كرسيا لسلطانها ينتقض عمرانها
وربما ينتهي في انتقاضه إلى الخراب ولا يكاد ذلك
يتخلف (2) والسبب فيه أمور (الأول) الدولة لا بد في أولها
من البدواة المقتضية للتجافي عن أموال الناس والبعد عن

(1) Man. A. et B. تلونت.

(2) Man. A. يختلف.

التحذلق ويدعو ذلك الى تخفيف الجباية والمغارم التى
 منها مادة الدولة فتقل النفقات ويقصر الترف فاذا صار
 المصر الذى كان كرسيا للملك فى ملكة هذه الدولة المتجددة
 ونقصت احوال الترف فيها نقص الترف فيمن تحت ايديها
 من اهل المصر لان الرعايا تبع للدولة فيرجعون الى خلق الدولة
 اما طوعا بما فى طباع البشر من تقليد متبوعهم او كرها
 بها تدعو اليه خلق الدولة من الانقباض عن الترف فى جميع
 الاحوال وقلة الفوائد التى هى مادة العوائد فتقصر لذلك
 حضارة مصر ويذهب منه كثير من عوائد الترف وهى معنى
 ما نقوله من خراب المصر (الامر الثانى) ان الدولة انما
 يحصل لها الملك والاستيلاء بالغلب وانما يكون بعد
 العداوة والحروب والعداوة تقتضى مناسفة بين اهل
 الدولتين وتكثر احديهما على الاخرى فى العوائد والاحوال
 وغلب احد المنافيين يذهب بالمنافى الاخر فتكون احوال
 الدولة السابقة منكورة عند اهل الدولة الجديدة ومستشعنة (1)
 وقبيحة وخصوصا احوال الترف فتفقد فى عرفهم بنكير
 الدولة لها حتى تنشأ لهم بالتدريج عوائد اخرى من الترف
 يكون عنها حضارة مستأنفة وفيها بين ذلك قصور الحضارة
 الاولى ونقصها وهو معنى اختلال العمران فى المصر (الامر

(1) Man. A. et B. مستشعنة.

الثالث) ان كل أمة لا بد لهم من وطن هو منشأهم ومنه أولية ملكهم وإذا ملكوا وطنا اخر صار تبعا للاول وامصاره تابعة لامصار الاول واتسع نطاق الملك عليهم ولا بد من توسط الكرسى بين تخوم الممالك التى للدولة لانه شبه المركز للنطاق فيبعد مكانه عن مكان الكرسى الاول وتهوى افئدة الناس اليه من اجل الدولة والساطان فينتقل اليه العمران ويخف من مصر الكرسى الاول والحصارة انما هى بوفور العمران كما قدّمنا فنتقص حضارته وتمدّنه وهو معنى اختلاله وهذا كما وقع للساجونية فى عدولهم بكرسيهم عن بغداد الى اصبهان وللعرب قبلهم فى العدول عن الهدائن الى الكوفة والبصرة ولبنى العباس فى العدول عن دمشق الى بغداد ولبنى مرين بالمغرب فى العدول عن مراكش الى فاس وبالجملّة فاتخاذ الدولة الكرسى فى مصر يخلّ بعمران الكرسى الاول (الامر الرابع) ان الدولة المتجدّدة اذا غابت على الدولة السابقة لا بدّ فيها من تتبّع اهل الدولة السابقة واشياعها بتحويلهم الى قطر اخر تؤمن فيه غايلتهم على الدولة واكثر اهل البصر الكرسى اشياع للدولة اما من الحامية الذى نزلوا به اول الدولة او من اعيان البصر لانّ لهم فى الغالب مخالطة فى الدولة على طبقاتهم وتنوّع اصنافهم بل اكثرهم ناشئ فى الدولة فهم شيعة

لها وإن لم يكونوا بالشوكة والعصبية فهم بالميل والمحبة والعقيدة وطبيعة الدولة المتجددة محو آثار الدولة السابقة فتنقلهم من مصر الكرسي الى وطنهم المتكمن في ملكتها فبعضهم على نوع التغرب والحبس وبعض على نوع الكرامة والتلطف بحيث لا يؤدي الى النفرة حتى لا يبقى في مصر الكرسي الا الباعة والهبل من اهل الفلج والعيارة وسواد العامة وينزل مكانهم في حاشيتها واشياعها من تسد به مصر واذا ذهب من مصر اعيانه على طبقاتهم نقص ساكنه وهو معنى اختلال عهرانه ثم لا بد ان يستجد عمراننا اخر في ظل الدولة الجديدة وتحصل فيه حضارة اخرى على قدر الدولة وانما ذلك بمثابة من يملك بيتا داخله البلى والكثير من اوضاعه في بيوته ومرافقه لا توافق مقترحه وله قدرة على تغيير تلك الاوضاع واعادة بنائها على ما يختاره ويقترحه فيخرب ذلك البيت ثم يعيد بناءه ثانيا وقد وقع من ذلك كثير في الامصار التي هي كراسى للملك وشاهدناه وعلمناه والله مقدر الليل والنهار والسبب الطبيعي الاول في ذلك على الجملة ان الدولة والملك لل عمران بمثابة الصورة للمادة وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجودها وقد تقرر في علوم الحكمة انه لا يمكن انفكاك احدها عن الآخر فالدولة دون العمران لا تتصور والعمران

دون الدولة والملك متعذّر بها فى طباع البشر من التعاون الداعى الى الوازع فتستعين السياسة لذلك اما الشريعة او الملكية وهى معنى الدولة واذا كانا لا ينفكان فاحتلال احدهما مؤثر فى اختلال الآخر كما كان عدمه مؤثرا فى عدمه والخلل العظيم اما يكون من خلل الدولة الكلية مثل دولة الفرس او الروم او العرب على العموم او بنى امية او بنى العباس كذلك واما الدول الشخصية مثل دولة انوشروان او هرقل او عبد الملك بن مروان او الرشيد فاشخاصها متعاقبة على العمران حافظة لوجوده وبقائه وقريبة الشبه بعضها من بعض فلا تؤثر كثير اختلال لان الدولة بالحققة الفاعلة فى مادّة العمران اما هى للعصبية والشوكة وهى مستمرة مع اشخاص الدول فاذا ذهبت تلك العصبية ودفعها عصبية اخرى مؤثرة فى العمران فاذهبت اهل الشوكة باجمعهم عظم الخلل كما قرّناه اولا والله قادر على ما يشاء ان يشاء يذهبكم وبات بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز

فصل فى اختصاص بعض الامصار ببعض الصنائع دون بعض

وذلك انه من البين ان اعمال اهل مصر نستدعى بعضها بعضا لما فى طبيعة العمران من التعاون وما يستدعى من

الأعمال يختص ببعض أهل المصر فيقومون عليه
ويستبصرون في صناعته ويختصون بوظيفته ويجعلون معاشهم
فيه ورزقهم منه لعموم البلوى فيه في المصر والحاجة اليه وم
لا يستدعى في المصر يكون غفلا إذ لا فائدة لمنحله في
الاحتراف به وما يستدعى من ذلك لضرورة المعاش فيوجد
في كل مصر كالخيّاط والحذّاد والتّجار وامثالها وما يستدعى
لعوائد الترف واحواله فانها يوجد في المدن المستبجرة في
العمارة الآخذة في عوائد الترف والحضارة مثل الزّجاج
والصّائغ والدهان والطّباخ والصفار والسفّاج والهرّاس والدّبّاج
وامثال هذه وهي متفاوتة (1) ويقدر ما تزيد عوائد الحضارة
وتستدعى احوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع فتوجد
لذلك المصر دون غيره ومن هذا الباب الحمامات لانها
انما توجد في الامصار المستحضرة المستبجرة العمران لما
يدعو اليه الترف والغنى من التّنعّم ولذلك لا يكون في
المدن المتوسطة وان نزع بعض الملوك والروساء اليه
فيخطّطها ويجري احوالها الا انها اذا لم تكن لها داعية من
كافة الناس فسرعان ما تهجر وتخرب وتقرّ عنها القوم لقلّة
فائدتهم ومعاشهم منها والله يقبض ويبسط

(1) Man. A. et B. متقاربة.

فصل فى وجود العصبية فى الامصار وتغلب بعضهم على بعض

من البين ان الالتحام والاتصال موجود فى طباع البشر وان لم يكونوا اهل نسب واحد الا انه كما قدمناه اضعف مما يكون بالنسب وانه تحصل به العصبية بعضا مما يحصل بالنسب واهل الامصار كثير منهم ملتحمون بالصهر يجذب بعضهم بعضا الى ان يكونوا لَحْمًا وَلَحْمًا وقرابة قرابة وتجد بينهم من الصداقة والعداوة ما يكون بين القبائل والعشائر مثله فيفترون شعبا (1) وعصائب فاذا نزل الهرم بالدولة ونقاص الملك عن القاصية احتاج اهل امصارها الى القيام على امرهم والنظر فى حماية بلدهم ورجعوا الى الشورى ويميز العلية عن السفلة والنفوس بطباعها منطولة الى الغلب والرياسة فتطمح المشيخة لجلء الجو من السلطان والدولة القاهرة الى الاستبداد وينازع كل صاحبه ويستوصلون بالاتباع من الموالى والشييع والاحلاف (2) ويبذلون ما فى ايديهم للاوغاد والاولشاب فيعصوب كل صاحبه ويتعين الغلب لبعضهم فيعطف على اكفائه ليغص من اعتنهم ويتبعهم بالقتل والتغريب حتى يخضد منهم الشوكات النافذة ويقلم الاظفار

(1) Man. C. et D. شيعا.

(2) Man. D. لاجلاف.

الخادشة ويستبد بمصره اجمع ويرى انه قد استحدث ملكا يورثه عقبه فيحدث في ذلك الملك الاصغر ما يحدث في الملك الاعظم من عوارض الجدة والهرم وربما يسمو بعض هؤلاء الى منازع الملوك الاعظم اصحاب القبائل والعشائر والعصبيات والرحوف والحروب والاقطار والممالك فيستحلون من الجلوس على السرير واتخاذ الآلة واعداد الدواكب للسير في اقطار البلد والتختم والتحية والخطاب والتمويل ما يسخر منه من يشاهد احوالهم لما انتحلوه من شارات الملك التي ليسوا لها باهل انما دفعهم الى ذلك نقص الدولة والتمحام بعض القرايات حتى صارت عصبية وقد يتنزّه بعضهم عن ذلك ويجرى على مذاهب السذاجة فرارا من التعريض بنفسه للسخرى والعيب ووقع هذا بافريقية لهذا العهد في آخر الدولة الحفصية لاهل بلاد الجريد من طرابلس وقابس وتوزر ونقطة وقفصة وبسكرة والزاب وما الى ذلك سمو الى مثلها عند تقلص ظل الدولة عنهم منذ عقود من السنين فاستغلوا على امصارهم واستبدوا بامرها على الدولة في الاحكام والجبائية واعطوا طاعة معروفة وصفقة ممرضة واقطعوا جانبا من الملاينة والملاطفة والانقياد وهم بمعزل عند واورثوا ذلك اعقابهم لهذا العهد وحدث في خالقهم من الغاظة والتجبر ما يحدث

لاعقاب الهلوك وخلفهم ونظموا انفسهم فى عداد السلاطين على قرب عهدهم بالسوقة وقد كان مثل ذلك وقع فى آخر الدولة الصنهاجية واستقل بامصار الجريد اهلها واستبدوا على الدولة حتى انتزع ذلك منهم شيخ الموحدين وملكهم عبد المؤمن ابن على ونقلهم كلهم من اسارتهم بها الى المغرب ومحا من نلك البلاد آناهم كما نذكر فى اخباره وكذلك وقع بسببة لآخر دولة بنى عبد المؤمن وهذا التغلب يكون غالبا فى اهل السروات والبيوتات المرشحين للمشيحة والرياسة فى المصر وقد يحدث التغلب لبعض السفلة من الدهماء والغوءاء اذا حصلت له العصبية والاتحام بالاوغاد لاسباب بجرها له المقدار فيغلب على المشيحة والعلية اذا كانوا فاقدين للعصابة والله غالب على امره

فصل فى لغات اهل الامصار

اعلم ان لغات اهل الامصار انما تكون بلسان الامة والحيل الغالبين عليها والمختطين لها وكذلك كانت لغات الامصار الاسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربيه وان كان اللسان العربى المضرى قد فسدت ملكته وتغير اعرابه والسبب فى ذلك ما وقع للدولة الاسلامية من الغلب على الامم والدين والملة صورة للوجود وللملك

وكلها مواد له والصورة مقدّمة على المادّة والدين أنّها يستفاد من الشريعة وهى بلسان العرب لها ان النبى صلعم عربى فوجب هجر ما سوى اللسان العربى من اللسان فى جميع ممالكها واعتبر ذلك فى نهى عمر رضى الله عنه عن رطانة الاعاجم وقال انها خب يعنى مكر وخديعة فلما هجر الدين اللغات الاعجميّة وكان لسان القائمين بالدولة الاسلاميّة عربيا هجرت كلها فى جميع ممالكها لان الناس تبع للسلطان وعلى دينه فصار اللسان العربى استعماله من شعائر الاسلام وطاعة العرب وهجر الامم لغاتهم والسننهم فى جميع الامصار والممالك وصار اللسان العربى لسانهم حتى رسخ ذلك لغة فى جميع امصارهم ومدنهم وصارت اللسان الاعجميّة دخيلة فيها وغريبة ثم فسد اللسان العربى بمخالطتها فى بعض احكامه وتغير او اخره وان كان بقى فى الدلالات على اصله وسهى لسانا حضربا فى جميع امصار الاسلام وايضا فاكثر اهل الامصار فى الملة لهذا العهد من اعقاب العرب المالكين لها الهالكين فى ترفها بما كثروا العجم الذين كانوا بها وورثوا ارضهم ودبارهم واللغات متوارثة فبقيت لغة الاعقاب على حيال لغة الآباء وان فسدت احكامها بمخالطة الاعجام شأ فشا وسميت لغتهم حضربة منسوبة الى اهل الحواضر والامصار بخلاف لغة البدو

من العرب فانها كانت اعرق (1) فى العربیة ولما نملك
العجم من الديلم والساجوقیة بعدهم بالمشرق وزاتة والبربر
بالمغرب وصار لهم الملك والاستیلاء على جميع الممالك
الاسلامیة فسد اللسان العربی لذلك وكاد يذهب لولا ما
حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والستة الذين بهما
حفظ الدين وصار ذلك مرجحا لبقاء اللغة الحضریة (2) بالامصار
عربیة فلما ملك الططر والمغل بالمشرق ولم يكونوا على
دين الاسلام ذهب ذلك المرجح وفسدت اللغة العربیة
على الاطلاق ولم يبق لها رسم فى الممالك الاسلامیة
بالعراق وخراسان وبلاد فارس وارض الهند والسند وما وراء
النهر وبلاد الشمال وبلاد الروم وذهبت اساليب اللغة
العربیة من الشعر والكلام الا قليلا يقع تعليمه صناعیًا بالقوانين
المتدايسة من علوم العرب وحفظ كلامهم لمن يتسره الله
لذلك وربما بقيت اللغة العربیة الحضریة بمصر والشام
والاندلس والمغرب لبقاء الدين طالبا لها فانحفظت بعض
الشیء واما فى ممالك العراق وما وراءه فلم يبق له اثر
ولا عين حتى ان كتب العلوم صارت تكتب باللسان
العجمی وكذا تدريسه فى المجالس والله مقدّر الليل والنهار
صلی الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا

(1) Man. C. اغرق.

(2) Man. A. et B. الحضریة.

دائماً ابدا الى يوم الدين والحمد لله رب العالمين
تم الفصل الرابع من الكتاب الاول ويليه الفصل الخامس
فى المعاش ووجوه الكسب

الفصل الخامس من الكتاب الاول فى المعاش ووجوه
من الكسب والصنائع وما يعرض فى ذلك كله من
الاحوال وفيه مسائل

فصل فى حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وان الكسب
هو قيمة الاعمال البشرية

اعلم ان الانسان مفتقر بالطبع الى ما يقوته (١) وبمونه فى
حالته واطواره من لدن نشوءه الى اشده الى كبره والله الغنى
وانتم الفقراء والله سبحانه وتعالى خلق جميع ما فى العالم
للانسان وامتن به عليه فى غير ما اية من كتابه فقال
تعالى خلق لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا
رسخر لكم الشمس والقمر وسخر لكم البحر وسخر لكم
الفلك وسخر لكم الانعام وكثير من شواهد ويد الانسان
مبسوطة على العالم وما فيه بما جعل الله له من الاستخلاف

بمؤمّد D. يفوّد G. مان (١)

وأيدي البشر منتشرة فهي مشتركة في ذلك وما حصل عليه يد هذا امتنع عن الآخر إلا بعوض فالإنسان متى اقتدر على نفسه وتجاوز طور الضعف سعى في اقتناء المكاسب لينفق ما أناء الله منها في تحصيل حاجاته وضروراته بدفع الأعواض عنها قال تعالى فابتغوا عند الله الرزق وقد يحصل له ذلك بغير سعي كالطير المصلح للزراعة وأمثاله إلا أنها إنما تكون معينة ولا بد من سعيه معها كما يأتي فتكون له تلك المكاسب معاشا إن كانت بمقدار الضرورة والحاجة ورياشا وامتولا إن زادت على ذلك ثم إن ذلك الحاصل أو المقننى إن عادت منفعه على العبد وحصلت له ثمرته من انفاقه في مصالحه وحاجاته سمى رزقا قال صلعم إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيته أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت وإن لم ينفع به في شيء من مصالحه ولا حاجاته فلا يسمى رزقا والتملك منه حينئذ بسعي العبد وقد رند سمى كسبا وهذا مثل التراث فإنه يسمى بالنسبة إلى الهالك كسبا ولا يسمى رزقا إذ لم يحصل له به منتفع وبالنسبة إلى الوارثين سمى انتفعوا به يسمى رزقا هذا حقيقة مسمى الرزق عند أهل السنة وقد اشترط المعتزلة في تسميته رزقا أن يكون بحيث يصح تملكه وما لا تهلك عندهم فلا يسمى رزقا

واخرجوا المغصوبات (1) والحرام كله عن ان يسمى شئ
 منها رزقا والله تعالى يرزق الغاصب والظالم والمؤمن والكافر
 ويختص برحمته وهدايته من بشاء ولهم في ذلك حجة
 ليس هذا موضع بسطها ثم اعلم ان الكسب انما يكون
 بالسعي في الاقتناء والقصد الى التحصيل فلا بد في
 الرزق من سعي وعمل ولو في تناوله وابتغائه من وجهه
 قال تعالى فابتغوا عند الله الرزق والسعي اليه انما يكون
 باقدار الله والهامة فالكل من عند الله فلا بد من الاعمال
 الانسانية في كل مكسوب ومتمول لانه ان كان عبدا بنفسه
 مثل الصنائع فظاھر وان كان مقتنى من الحيوان او الثبات
 او المعدن فلا بد فيه من العمل الانساني كما تراه والا لم
 يحصل ولم يقع به انتفاع ثم ان الله سبحانه خلق
 الحجرين المعدنيين من الذهب والفضة قيمة لكل متمول
 وهي الذخيرة والقنية لاهل العالم في الغالب وان اقتنى
 ...واعما في بعض الاحيان فانما هو لقصد تحصيلهما بما يرفع
 في غيرها من حوالة الاسواق التي هما عنها بمعزل فهما
 اصل المكاسب والقنية والذخيرة واذا تقرر هذا كله (فاعلم)
 ان ما يفيد الانسان ويقتنيه من المتمولات ان كان من
 الصنائع فالفاد الهقتنى منه هو قيمة عهله وهو القصد بالقنية

(1) Mau. C. et D. الغصوبات.

اذ ليس هنالك الا العمل وليس بمقصود بنفسه للقيمة وقد يكون مع الصنائع فى بعضها غيرها مثل التجارة والحياكة معها الخشب والغزل الا ان العمل فيها اكثر فقيته اكثر وان كان من غير الصنائع فلا بد فى قيمة ذلك المفساد والقيمة من دخول قيمة العمل الذى حصلت به اذ لو لا العمل لم تحصل قنيتها وقد تكون ملاحظة العمل ظاهرة فى الكثير منها فتجعل له حصّة من القيمة عظمت او صغرت وقد تخفى ملاحظة العمل كما فى اسعار الاقوات بين الناس فان اعتبار الاعمال والنفقات فيها ملاحظة فى اسعار الحبوب كما قدّمناه لكّه خفى فى الاقطار التى علاج الفلاح فيها ومؤبته يسيرة فلا يشعر به الا القليل من اهل الفلاح فقد تبين ان المفادات والمكتسبات كلها او اكثرها انما هى قيّم الاعمال الانسانية وتبين معنى الرزق وانه المنتفع به فقد بان معنى الكسب والرزق وشرح مستأهما (واعلم) انه اذا نقدت الاعمال او قلت بانتفاص العمران تأذن الله برفع الكسب لا ترى الى الامصار القليلة الساكن كيف يقل الرزق والكسب فيها او يفقد لقلة الاعمال الانسانية وكذلك الامصار التى تكون اعمالها اكثر يكون اهلها اوسع احوالا واشد رفاهية كما قدّمناه قبل (ومن) هذا الباب نقول العانة فى البلدان اذا تناقص عمرانها قد ذهب رزقها

حتى ان العيون والانهار ينقطع جريها في القفر لما ان فور
العيون أما يكون بالانباط والامتراء الذي هو عمل انساني
كالحال في شروع الانعام فما لم يكن امتراء ولا انباط نضبت
وغارت بالجملة كما يجفّ الصرع اذا ترك امتراوه وانظره
في البلاد التي يعهد فيها العيون لايام عمرانها ثم يانئ
عليها الخراب كيف تغور مياهها جملة كان لم تكن والله
مقدر الليل والنهار

فصل في وجوه المعاش واصنافه ومذاهبه

اعلم ان المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعى في
تحصيله وهو مفعول من العيش كانه لما كان العيش الذي
هو الحياة لا يحصل الا بهذا جعلت موضعا له على طريق
المبالغة (ثم) ان تحصيل الرزق وكسبه اما ان يكون باخذه
من يد الغير وانتزاعه بالاقتدار عليه على قانون متعارف
ويستى مغرما وحباية واما ان يكون من الحيوان الوحشي
بافراسه واخذه برمته من البر او البحر ويسمى اصطيدا واما
ان يكون من الحيوان الداجن باستخراج فضوله المتعترف
بين الناس في منافعهم كاللبن من الانعام والحبر من دوده
والعسل من نحله او يكون من النبات في الزرع والشجر
بالقيام عابه واعداده لاستخراج ثمرته ويسمى هذا كلده فالحا

وأما ان يكون الكسب من الاعمال الانسانية اما في مواد
بعينها وتسمى الصنائع من كتابة ونجارة وخباطة وحياسة
وفروسيّة وامثال ذلك او في مواد غير معيّنة وهى جميع
الامتهانات والتصرفات وأما ان يكون الكسب من البضائع
واعدادها للاعواز اما بالتغلب بها فى البلاد او احتكارها
وارتقاب حوالة الاسواق فيها ويسمى هذا تجارة فهذه
وجوه المعاش واصنافه وهى معنى ما ذكره المحققون من
اهل الادب والحكمة كالحريزى وغيره قالوا المعاش امارّة
وتجارة وفلاحة وصناعة (فاما الامارة) فليست بمذهب
طبيعى للمعاش فلا حاجة بنا الى ذكرها وقد تقدّم شئ من
احوال الجبايات السلطانية واهلها فى الفصل الثانى (واما
الفلاحة والصناعة والتجارة فهى وجوه طبيعية للمعاش (اما
الفلاحة) فهى متقدمة عليها كلها بالذات اذ هى بسيطة
وطبيعية وفطرية لا تحتاج الى نظر ولا الى علم ولهذا تسب
فى الخليفة الى ادم ابى البشر وانه معلمها والقائم عليها
اشارة الى انها اقدم وجوه المعاش وانسبها الى الطبيعة
(واما) الصنائع فهى ثانيها ومناخرة عنها لانها مركبة وعليه
تصرف فيها الافكار والانظار ولهذا لا توحد غالبا الا فى اهل
الحضر الذى هو متأخر عن البدو وثان عنه ومن هذا المعنى
نسبت الى ادريس الاب الثانى للخليفة وانه مستند بها

لمن بعده من البشر بالوحى من الله تعالى (واما) التجارة وان كانت طبيعيتة فى الكسب فالاكثر من طرقها ومذاهبها انما هى تحيلات فى الحصول على ما بين القيمتين فى الشراء والبيع لتحصل فائدة الكسب من تلك الفصيلة ولذلك اباح الشرع فيه المكائسة لما ائذ من باب المقامرة الا انه ليس اخذا للمال من الغير مجانا فلهذا اختص بالمشروعية والله اعلم

فصل فى ان الخدمة ليست من المعاش الطبيعى

اما السلطان فلا بد له من اتخاذ الخدمة فى سائر ابواب الامارة والملك الذى هو بسبيله من الجندى والشرطى والكاتب وبستكفى فى كل باب بمن يعلم غناه فيه ويتكفل بارزاقهم من بيت ماله وهذا كله مندرج فى الامارة ومعاشها اذ كلهم ينسحب عليهم حكم الامارة والهالك الاعظم هو ينبوع جداولهم واما ما دون ذلك من الخدمة فسببها ان اكثر المترفين يرتفع عن مباشرة حاجانه او يكون عاجزا عنها لما ربى عليه من خلق التنعيم والترف فيتخذ من يتولى ذلك له ويقطعه عليه اجرا من ماله وهذه الحالة غير محدودة بحسب الرجولة الطبيعية للانسان اذ الثقة بكل احد عجز ولانها تزيد فى الوظائف والخراج وتسدل على

العجز والخض الذي ينبغي في مذاهب الرجولة (1) التنزه
عنهما الا ان العوائد تغلب طبائع الانسان الى ما ألوفها فهو
ابن عوائده لا ابن نسبه (ومع) ذلك فالخديم الذي يستكفى
به ويوثق بغنائه كالمفقود اذ الخديم القائم بذلك لا يعدو اربع
حالات (اما) مضطلع بامرء وموثوق فيما يحصل بيده واما
بالعكس فيهما وهو ان يكون غير مضطلع بامرء ولا موثوق فيها
يحصل بيده (واما) بالعكس في احدهما فقط مثل ان يكون
مضطلعا غير موثوق او موثوقا غير مضطلع فاما الاول فهو المضطلع
الموثوق فلا يمكن احدا من استعماله بوجه اذ هو باضطلاع وثقته
غنى عن اهل الرتب الدينية ومحقر لمنال الاجر من
الخدمة لاقتداره على اكثر من ذلك فلا يستعمله الا
الامراء اهل السجاء العربى لعموم الحاجة الى السجاء واما
الصف الثاني وهو من ليس بهضطلع ولا موثوق فلا ينبغي
لعاقل استعماله لانه محبب بخدمته في الامر من معا فيضيع
عليه بعدم الاضطلاع نارة وبذهب ماله بالخيانة اخرى فهو
كل على مولاه فهذان الصنفان لا يطعم احد في استعمالهما
ولم يبق الا استعمال الصنفين الاخرين موثوق غير مضطلع
ومضطلع غير موثوق وللناس في الشرح بينهما مذهبان
ولكل من الترجيحين وجه الا ان المضطلع ولو كان غير

مؤثوق ارجح لانه يؤمن من تضييعه ويحاول على التحرر
من خيانتة جهد الاستطاعة واما الهضيغ ولو كان مأمونا فضرره
بالتضييع اكثر من نفعه فاعلم ذلك واتخذة قانونا فى
الاستكفاء بالخدمة والله قادر على ما يشاء

فصل فى ان ابغاء الاموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعى

اعلم ان كثيرا من ضعفاء العقول فى الامصار يحرصون على
استخراج الاموال من تحت الارض يستغنون الكسب من
ذلك ويعتقدون ان اموال الامم السالفة مخترنة كلها تحت
الارض مختموم عليها بطلاسم سحرية لا يقص ختامها ذلك
الا من عثر على علمه واستحضر ما يحلّه من البخور والدعاء
والقربان فاهل الامصار بافريقية يرون ان الافرنجة الذين
كانوا بها قبل الاسلام دفنوا اموالهم كذلك وادعوها فى
الصحف بالكتاب الى ان يجدوا السبيل الى استخراجها
واهل الامصار بالمشرق يرون مثل ذلك فى امم القبط
والروم والفرس ويتناقلون ذلك فى احاديث تشبه حديث
خرافة من انتهاء بعض الطالبين لذلك الى حفر موضع
المال مدّين لم يعرف طلسمه وخبره فيجدونه حلوا او معمورا
بالدبدبان او يستارف الاموال والجواهر موضوعة والحرس

دونها منتصين سيوفهم او يمتدّ به الارض حتى يظنّه خسفاً
او مثل ذلك من الهذر وتجد كثيراً من طلبة البربر
بالمغرب العاجزين عن المعاش الطبيعيّ واسبابه يتقربون
الى اهل الدنيا بالاوراق المخترمة (1) الحواشي اما بخطوط
اعجميّة او بما ترجم (2) بزعمهم منها من خطوط اهل الدفائن
باعطاء الامارات عليها في (3) اماكنها يبتغون بذلك الرزق منهم
بما يبعثونهم على الحفر والطلب ويموّهون عليهم بانّه انما
حملهم على الاستعانة بهم طلب الجاه في مثل هذا من
منال (4) الحكّام والعقوبات وربما تكون عند بعضهم نادرة
او غريبة من الاعمال السحرية يموّه بها على تصديق ما
بقي (5) من دعواه وهو بمعزل عن السحر وطرقه فيولع الكثير من
ضعفاء العقول بجميع الايدي على الاحتفار والتستّر فيه بظلمات
الليل مخافة الرقاء وعيون اهل الدول فاذا لم يعثروا على
شئ ردّوا ذلك الى الجبل بالطلسم الذي ختم به على
ذلك المال يخادعون به انفسهم عن اخفاق مطامعهم
والذي يحمل على ذلك في الغالب زيادة على ضعف
العقل انما هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعيّة
للكسب من التجارة والفلاح والصناعة فيطلبونه بالوجوه

(1) Man. C. et D. المخترمة.

(2) Man. D. ترجع

(3) Man. A. et B. من

(4) Man. C. مثال.

(5) Man. D. نفى.

المنحرفة وعلى غير الوجه الطبيعيّ من هذا وأمثاله عجزا عن السعى في المكاسب وركونا الى تناول الرزق من غير تعب ولا نصب في تحصيله واكتسابه ولا يعلمون انهم بوقعون انفسهم بابتغاء ذلك من غير وجهه في نصب ومتاعب وجهه شديد اشدّ من الاول ويعرضون انفسهم مع ذلك لهنال العقوبات وربتها يحصل في الاكثر على ذلك زيادة الترف وعوائده وخروجها عن حدّ النهاية حتى تقصر عنها وجوه الكسب ومذاهبه ولا تنفى بمطالبتها فاذا عجز له الكسب بالمجرى الطبيعيّ لم يجد وليجة في نفسه الا التمتي لوجود المال العظيم دفعة من غير كلفة ليفي ذلك بالعوائد التي حصل في اسرها فيحرص على ابتغاء ذلك ويسعى فيه جهده ولهذا اكثر من تراهم يحرصون على ذلك هم المترفون من اهل الدول ومن سكان الامصار الكثيرة الترف المتسعة الاحوال مثل مصر وما في معناها تجد الكثير منهم مغرمين بابتغاء ذلك وتحصيله ومسائلة الركبان عن شواذه كما يحرصون على الكييا هكذا يبلغنا عن اهل مصر في مفاوضة من يلقونه من طلبة المغاربة لعلهم يعثرون منه على دفين او كنز ويزيدون على ذلك البحث عن تغوير المياه لما يرون ان غالب هذه الاموال الدفينة كلها في مجارى النيل وانه اعظم ما يستر دفيننا او مستترنا في تلك الافاق وبمؤ-

عليهم اصحاب تلك الدفانر المستغله فى الاعتذار عن
الوصول اليها بجرية النيل تسترا بذلك من الكسب حتى
يحصل على معاشه فيحصر سامع ذلك منهم على نضوب
الماء بالاعمال السحرية ليحصل ما ابتغاه من بعده كلفا بشأن
السحر متوارثا فى ذلك القطر عن اوليهم فعلموها السحرية
وآثارها باقية بارضهم فى البرابى وغيرها وقصة سحرة فرعون
شاهدة باختصاصهم بذلك (وقد) يتناقل اهل الغرب قصيدة
ينسبونها الى حكماء المشرق يعطى فيها كيفية العمل فى
التغوير بصناعة سحرية حسبما تراه فيها وهى

باطالبا للسرى النغوير اسمع كلام الصديق من حبيب
دع عنك ما قد صنفوا فى كتبهم من قول بهشتان ولفظ عرور
واسمع لصديق مقالتي وصيحتي ان كنت ممن لا يرى بالردور
فاذا اردت تغوير البشر التى حارت لهما الافهام فى التدبير
صور كصورتك التى اوفقتها والرأس رأس الشبل فى النغدير
ويدها ماسكتان للحبل الذى فى الدلو ينسل من فرار الشر
وبصدره ماء كها عاينتها عدد الطلاق احذر من التكرير
ويطاء على الطافات غير ملاس مشى اللبيب الكيس النحرير
ويكون حول الكل (1) خط دائر تربيعه اول من التكوير
واذبح عليه الطير والطخه به واخذ غيب الذبح بالشبحير
بالسندروس وباللبان وميعة والتسقط والبسه بنوب حرير
من احمر او اصفر او ازرق (2) لا اخضر وميه ولا تسكدير
وسدّه خيطان صوف ابيض او احمر من خالص السحير

(1) Man. D شكل

(2) Man. C. et D. لا ازرق.

والطالع الاسد الذى قد بينوا ويكون بدور الشهر غير منير
والبدور متصل بسعد عطارد فى يوم سبت ساعة التدبير

يعنى تكون الطّائات بين قدميه كأنه يمشى عليها وعندى
ان هذه القصيدة من تمويهات المخترقين فلهم فى ذلك
احوال غريبة واصطلاحات عجيبة وتنتهى المخرقة
والكذب بهم الى ان يسكنوا المنازل المشهورة والدور
المعروفة بهتل هذا ويحتفرون بها الحفر ويضعون فيها
المطابق والشواهد التى يكتبونها فى صحائف كتبهم ثم
يقصدون ضعفاء العقول بامثال هذه الصحائف ويبعثونه على
اكتراء ذلك المنزل وسكنائه وبوهونه ان به دفيناً من المال
لا يعبر عن كثرته ويطالبونه بالمال لاكتراء العقابر والبحورات
لحلّ الطلاسّم وبعدونه بظهور الشواهد التى قد اعدّها هنالك
بانفسهم ومن فعلهم فينبعث بما يراه من ذلك وهو قد خدع
ولبس عليه من حيث لا يشعر وبينهم فى ذلك اصطلاح
فى كلامهم يلبسون به عليهم لتخفى عنهم محاورتهم فيها
بتساولونه من حفر وبخور وذبح حيوان وامثال ذلك (واما
الكلام) فى ذلك على الحقيقة فلا اصل له فى علم ولا خبر
واعلم ان الكنوز وان كانت توجد لكتّابها فى حكم النادر وعلى
وجه الاتفاق لا على وجه القصد اليها وليس ذلك بامر تعمّ به
البلى حتى يذخر الناس غالباً اموالهم تحسّت الارض

ويختصمون عليها بالطلاسم لا في القديم ولا في الحديث (والركاز) الذي ورد في الحديث وفرضه الفقهاء وهو دفن الجاهلية انما يوجد بالعثور والاتفاق لا بالقصد والطلب وايضا فمن اخترن ماله وختم عليه بالاعمال السحرية فقد بالغ في الخفاء فكيف ينصب عليه الامارات والادلة لمن ينتغيه ويكتب ذلك في الصحائف حتى يطلع على ذخيرته اهل الاعصار والآفاق هذا يناقض قصد الاخفاء وايضا فافعال العقلاء لا بد ان تكون لغرض مقصود في الانتفاع ومن اخترن المال فانما يختزنه لولده او قريبه او من يؤثره به واما ان يقصد اخفاء بالكلية عن كل احد وانما هو للبلى والهلاك او لمن لا يعرفه بالكلية ممن سيأتي من الاسم فهذا ليس من مقاصد العقلاء بوجه (واما) قولهم اين اموال الاسم من قبلنا وما علم فيها من الكثرة والوفور فاعلم ان الاموال من الذهب والفضة والجواهر والامثلة انها هي معادن ومكاسب مثل الحديد والنحاس والرصاص وسائر العقارات والمعادن والعمران يظهرها بالاعمال الانسانية ويزيد فيها او ينقصها وما يوجد منها بايدى الناس فهو متناقل متوارث وربما انتقل من قطر الى قطر ومن دولة الى اخرى بحسب اعواضه والعمران الذى يستدعيه فان نقص المال في المغرب وافريقية فلم ينقص في بلاد الصقالبة والافرنجة

وان نقص فى مصر والشام فلم ينقص فى الهند والصين وأما
هى آلات ومكاسب والعمران يوفرها او ينقصها مع ان المعادن
يدركها البلاء كما يدرك سائر الموجودات ويسرع الى
اللؤلؤ والجوهر اعظم مما يسرع الى غيره وكذا الذهب والفضة
والنحاس والحديد والرصاص والقصدير يبالغها من البلاء
والفناء ما يذهب باعيانها لا قرب وقت (واما) ما وقع فى
مصر من امر المطالب والكنوز فسببه ان مصر كانت فى
ملكة القبط منذ الفين اثنين (1) او تزيد من السنين وكان
موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة والجواهر
واللؤلؤ على مذهب من تقدم من اهل الدول فلما انقرضت
دولة القبط وملك الفرس بلادهم نفروا (2) عن ذلك (3) من
قبورهم وكشفوا عنه فاحذوا من قبورهم ما لا يوصف كالاهرام من
قبور الملوك وغيرها وكذا فعل اليونانيون من بعدهم وصارت
قبورهم مظنة لذلك لهذا العهد ويعثر على الدفين فيها فى
كثير من الاوقات اما ما يدفنونه من اموالهم او ما يكرمون
به موتاهم فى الدفن من اوعية وتوابيت من الذهب
والفضة معدة لذلك فصارت قبور القبط منذ آلاف من
السنين مظنة لوجود ذلك فيها فلذلك غنى (4) اهل مصر

(1) Man. C. et D. منذ الف

(2) Man. D. نفروا.

(3) Man. C. et D. فى.

(4) Man. C. غنى.

بالبحث عن المطالب لوجود ذلك فيها واستخراجها حتى
أتهم حين ضربت المكوس على الأصناف آخر الدول ضربت
على أهل المطالب وصارت ضريبة على من يشتغل بذلك
من الحمقى والمهوسين فوجد بذلك المتعاطون له من
أهل الأطماع الذريعة إلى الكشف عنه والزعم باستخراجه
وما حصلوا إلا على الخيبة في جميع مساعيهم نعوذ بالله
من الخسران فيحتاج من دفع إلى شيء من هذا الوسواس
أو ابتلى به أن يتعوذ بالله من العجز والكسل في طلب
معاشه كما تعوذ رسول الله صلعم عن ذلك وينصرف
عن طرق الشيطان ووسواسه ولا يشغل نفسه بالمصالحات
والكاذب من الحكايات والله يرزق من يشاء بغير حساب

فصل في أن الجاه مفيد للمال

وذلك أنا نجد صاحب الجاه والخطوة في جميع اصناف
المعاش أكثر يسارا وثروة من فاقد الجاه والسبب في ذلك أن
صاحب الجاه مخدوم بالاعمال يتقرب بها إليه في سبيل
الترفل والحاجة إلى جاهه فالناس معينون له بأعمالهم في
جميع حاجاته من ضروري أو حاجي أو كمالي فتحصل
قيمة تلك الاعمال كلها من كسبه وجميع ما شأنه أن
تبذل فيه الأعاوض من العمل يستعمل فيها الناس من غير

عوض فتتوفر قيم تلك الاعمال عليه فهو بين قيم للاعمال
بكتسبها وقيم اخرى. تدعوه الضرورة الى اخراجها فتتوفر عليه
والاعمال لصاحب الجاه كثيرة فيفيد الغنى لاقرب وقت
ويزداد مع الايام يسارا وثروة ولهذا المعنى كانت الامارة احد
اسباب الهعاش كما قدّمناه (وفاقد) الجاه بالكليّة ولو كان
صاحب مال فلا يكون يساره الا بهقدار ماله وعلى نسبة
سعيه وهؤلاء هم اكثر التجار ولهذا نجد اهل الجاه منهم
يكونون ايسر بكثير (ومما) يشهد لذلك انا نجد كثيرا من
الفقهاء واهل الدين والعبادة اذا اشتهر حسن الظن بهم
واعتقد الجمهور معاملته الله في ارفادهم فاخلص الناس في
اعانتهم على احوال دنياهم والاعتقال في مصالحهم اسرعت
اليهم الثروة واصبحوا مياسير من غير مال مقتنى الا ما
يحصل لهم من قيم الاعمال التي وقعت الهعونة بها من
الناس لهم رايانا من ذلك اعدادا في الامصار والمدن
وفي البدو يسعى لهم الناس في لفلح والتجر وهو قاعد في
منزله لا يبرح من مكانه فينمو ماله ويعظم كسبه ويتنازل
الغنى من غير سعي ويعجب من لا يفتن لهذا السر في
حال ثروته واسباب غناه ويساره والله يرزق من يشاء بغير
حساب

فصل فى ان السعادة والكسب انما تحصل غالبا لاهل
المخسوع والملق وان هذا الخلق من اسباب السعادة

وقد سبق لنا فيها سلف ان الكسب الذى يستفيدة البشر
انما هو قيم اعمالهم ولو قدر احد عابلا عن العمل جملة لكان
فاقد الكسب بالكيفية وعلى قدر عمله وشرفه بين الاعمال
وحاجة الناس اليه يكون قدر قيمته وعلى قدر ذلك
نمو كسبه او نقصانه (وقد) بيتنا آنفا ان الجاه يفيد المال
بما يحصل لصاحبه من تقرب الناس اليه باعمالهم
وباموالهم فى دفع المضار وجلب المنافع وكان ما يتقربون
بد من عمل او مال عوض عما يحصلون عليه بسبب الجاه
من كثير الاعراض فى صالحه او طالح وتصير تلك
الاعمال فى كسبه وقيمها اموال وثروة فيستفيد الغنى
واليسار فى اقرب وقت (ثم) ان الجاه متوزع فى الناس
ومترتب فيهم طبقة بعد طبقة ينهى فى العلو الى الهلوك
الذين ليس فوقهم يد غالبية وفى السفلى الى من لا يهلك
ضرا ولا نفعا بين ابناء جنسه وبين ذلك طبقات متعددة
حكمة من الله فى خليقته بها ينتظم معاشهم وتيسر
مصلحتهم ويتم بعلومهم (لان) النوع الانسانى لها كان لا يتم
وجوده وبقاؤه لا بتعاون ابناءه على مصلحتهم لانه قد تقرر

ان الواحد منهم لا يتم وجوده وانه وان نذر ذلك في صورة مفروضة فلا يصح بقاؤه ثم ان هذا تعاون لا يحصل الا بالاكراه عليه لجهلهم في الاكثر بمصالح النوع ولها جعل الله لهم من الاختيار وان افعالهم انها تصدر بالفكر والروية لا بالطبع فقد يمتنع من المعونة فيتعين حملها عليها فلا بد من حامل يكره ابناء النوع على مصالحهم لتتم الحكمة الالهية في بقاء هذا النوع وهذا معنى قوله وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون (فقد) تبين ان معنى الجاه هو القدرة الحاصلة للبشر على التصرف فيهم تحت ايديهم من ابناء جنسهم بالاذن والضع والتسلط فيهم بالقهر والغلبة ليجعلهم على دفع مضارهم وجلب منافعهم في العدل وابعاد الشرائع او السياسة وعلى اغراضه فيما سوى ذلك لكن الاول مقصود في العناية الربانية بالذات والثاني داخل فيها بالعرض كسائر الشرور الداخلة في القضاء الالهي لانه قد لا يتم وجود الخير الكثير الا بوجود شر يسير من اجل الهوآ فلا يفوت الخير بذلك بل يقع على ما ينطوى عليه من الشر اليسير وهذا معنى وقوع الظلم في الخليقة قنقهم (ثم) ان كل طبقة من طباق اهل العمران من مدينة او اقليم لها قدرة على من دونها من الطباق وكل واحد من الطبقة السفلى يستمد هذا الجاه من

اهل الطبقة التى فوقه ويزداد كاسبه تصرفا فيمن تحت يده على قدر ما يستفيد منه والجاه مع ذلك داخل على الناس فى جميع ابواب العاش ويتسع ويضيق بحسب الطبقة والطور الذى فيه صاحبه فان كان الجاه متسعا كان الكسب الناشئ عنه كذلك وان كان ضيقا وقليل فمثله وفائد الجاه ولو كان له مال فلا يكون يساره الا بمقدار عمله او ماله وعلى نسبة سعيد ذاهبا وجائيا فى تنميته كاكثر التجار واهل الفلاحة فى الغالب واهل الصنائع كذلك اذا فقدوا الجاه واقتصروا على فوائد صنائعهم فانهم يصيرون الى الفقر والخصاصة فى الاكثر ولا تسرع اليهم ثروة انما يرمقون العيش ترميقا ويدفعون ضرورة الفقر مدافعة (واذا نقرر ذلك) وان الجاه متوزع وان السعادة والخير مقترنان بحصوله علمت ان بذله وافادته من اعظم النعم واجلها وان باذله من اجل المنعمين وانما يبذله لمن تحت يده فيكون بذله بيد عالية وعن عزة فيحتاج طالبه ومبتغيه الى خضوع وتملق كما يسأل اهل العز والملوك والآ فيسعدز حصوله فلذلك قلنا ان الخضوع والتملق من اسباب حصول هذا الجاه المحصل للسعادة والكسب وان اكثر اهل الثروة والسعادة بهذا الخلق ولهذا نجد الكثير منهن يتخلق بالترقع والشهم لا يحصل لهم غرض من الجاه

فيقتصرون في التكتسب على اعيالهم ويصيرون الى الفقر والخصاصة (واعلم) ان هذا الكبر والترفع من الخلق المذمومة انما يحصل من توهم الكمال وان الناس يحتاجون الى بصاعته من علم او صناعة كالعالم المتبحر في علمه والكاظم المجيد في كتابته والشاعر البليغ في شعره وكل محسن في صناعته يتوهم ان الناس محتاجون الى ما بيده فيحدث له الترفع عليهم بذلك وكذا يتوهم اهل الانساب متى كان في آباءه ملك او عالم مشهور او كامل في طور يغترون (1) فيما رأوه او سمعوه من حال ابائهم في المدينة ويتوهمون انهم استحقوا مثل ذلك بقرابتهم اليهم وورائتهم عنهم فهم مستمسكون في الحاضر بالامر المعلوم اذ الكمال لا يورث وكذلك اهل الحكمة والتجارب والبصر بالامور قد ييؤهم بعضهم كمالا في نفسه بذلك واحتياجا اليه ونجد هؤلاء الاصناف كلهم مترفعين لا يخضعون لصاحب جاد ولا ينملقون لمن هو اعلى منهم ويستصغرون من سواهم لاعتقادهم الفضل على الناس فيستكف احدهم عن الخضوع ولو كان للهلك ويعده مذلة وهوانا وسفها ويحاسب الناس في معاملتهم آياه بهقدار ما يتوهم في نفسه ويحقد على من قصر له في شئ مما يتوهمه من ذلك

(1) Man. C. يعتزون.

وربما يدخل على نفسه الهموم والاحزان من تقصيرهم فيه ويستمر في غناء عظيم من ايجاب الحق لنفسه واباية الناس له من ذلك ويحصل له اليقوت في الناس لها في طباع البشر من التأله وقل ان يسلم احد منهم لاحد في الكمال والترفع عليه الا ان يكون ذلك بنوع من القهر والغلبة والاستطالة وهذا كله في ضمن الجاه فاذا فقد صاحب هذا الخلق الجاه وهو مفقود له كما تبين لك مقتته الناس بهذا الترفع ولم يحصل له حظ من احسانهم ففقد الجاه لذلك من اهل الطبقة التي هي اعلى منه لاجل المقت وما يحصل له بذلك من القعود عن تعاهدهم وغشيان منازلهم ففسد معاشه وبقي في خصاصة وفقر او فوق ذلك بقليل واما الشروة فلا تحصل له اصلا ومن هذا اشتهر بين الناس ان الكامل في المعرفة محروم من الحظّ وانه قد حوسب بما رزق من المعرفة واقتطع له ذلك من الحظّ وهذا معناه ومن خلق لشيء يسر له والله المقدر لا رب سواه (ولقد) يقع في الدول اضطراب في المراتب من اجل هذا الخلق ويرتفع فيها كثير من السفلا وينزل كثير من العلية بسبب ذلك وذلك ان الدول اذا بلغت غايتها من التغلب والاستيلاء وانفرد منها منبت الهلك بهلكهم وسلطانهم ويُس سواهم من ذلك وانها صاروا في مراتب

دون مرتبة الملك وتحت يد السلطان وكانهم خول له
 فاذا استمرت الدولة وشهخ الهلك تساوى حينئذ في
 الهزلة عند السلطان كل من انتمى الى خدمته وتقرب اليه
 بنصيحته واصطنعه السلطان لغناؤه في كثير من مهماته فتجد
 كثيرا من السوق يسعى في التقرب من السلطان بجده
 ونصح وبتزلفى اليه بوجوه خدمته ويستعين على ذلك
 بعظيم من الخضوع والتملق ولحاشيته واهل نسبه حتى يرسخ
 قدمه معهم وينظمه السلطان في جملة فيحصل له بذلك
 حظ عظيم من السعادة وينتظم في عداد اهل الدولة وناشئة
 الدولة حينئذ من ابناء قومها الذين ذلوا صعا بها ومهدوا
 اكنافها مغترون بما كان لابائهم في ذلك من الالباء
 وتشتمح به نفوسهم على السلطان ويعتدون بانثاره ويجرون
 في مضمار الدالة بسببه فيمقتهم السلطان لذلك ويباعدهم
 ويميل الى هؤلاء المصطنعين الذين لا يعتدون بقديم ولا يذهبون
 الى دالة ولا ترفع انما دأبهم الخضوع له والتملق
 والاعتبال في غرضه متى ذهب اليه فيتسع جاههم وتعلو
 منازلهم وتنصرف اليهم الوجوه والخواص بها يحصل لهم
 من ميل السلطان والمكانة عنده ونبقى ناشئة السلطان فيما
 هم فيه من الترفع والاعتداد بالقديم لا يزيدهم ذلك الا بعدا
 من السلطان ومقتا وإيثارا الى هؤلاء المصطنعين عليهم الى ان

تنقرض الدولة وهذا امر طبيعي في الدول ومنه جاء شأن
الهيطنعين في الغالب والله فقال لها يريد

فصل في ان القائمين بامور الدين من القضاء والفتيا
والتدريس والامامة والخطابة والاذان ونحو ذلك
لا تعظم ثروتهم في الغالب

والسبب في ذلك ان الكسب كما قدّمناه قيمة الاعمال
وانها متفاوتة بحسب الحاجة اليها فان كانت الاعمال
ضرورية في العمران عامة البلوى فيه كانت قيمتها اعظم
وكانت الحاجة اليها اشدّ واهل هذه الصنائع الدينية لا تضطر
اليها عامة الخلق وانما يحتاج الى ما عندهم الخواص
ممن اقبل على دينه وان احتيج الى القضاء والفتيا في
الخصومات فليس على وجه الاضطراب والعموم فيقع الاستغناء
عن هؤلاء في الاكثر وانما يهتم بهم وباقامة مراسمهم
صاحب الدولة لما له من النظر في الصالح فيقسم لهم
حظاً من الرزق على نسبة الحاجة اليهم على النحو الذي
قرّناه لا يساويهم باهل الشوكة ولا باهل الصنائع الضرورية
وان كانت بضاعتهم اشرف من حيث الدين والمراسم
الشرعية لكنه يقسم بحسب عهدهم الحاجة وضرورة اهل
العمران فلا يصح في قسمتهم الا القليل وهم ايضا لشرف

بضاعتهم اعزّة على الخلق وعند نفوسهم فلا يخضعون لاهل
الجاه حتى ينالوا منه حظًا يستدرون به الرزق بل ولا تفرغ
اوقانهم لذلك لما هم فيه من الشغل بهذه البضائع الشريفة
المشتملة على الفكر والتدبّر بل ولا يسعهم ابتذال انفسهم
لاهل الدنيا لشرف بضائعهم فهم بمعزل عن ذلك فلذلك
لا تعظم ثروتهم في الغالب (ولقد) باحثت بعض الفضلاء
ونكر ذلك على وقوع بيدي اوراق مخرومة من حسابات
الدواوين بدار المامون تشتمل على كثير من الدخل والخرج
يومئذ وكان فيما طالعت فيه ارزاق القضاة والايّمة والمؤذنين
فوقفت عليه وعلم منه صحة ما قلته ورجع اليه وقصينا
العجب من اسرار الله في خليقته وحكمته في عوالمه والله
الخالق المقدر

فصل في ان الفلاحة من معاش المستضعفين واهل
العافية من البدو

وذلك لانه اصل في الطبيعة وبسيط في منجاء ولهذا
لا نجده ينتحله احد من اهل الحضرة في الغالب ولا من
المترفين ويختص منتحله بالمذلة قال صلعم وقد رأى السكة
ببعض دور الانصار ما دخلت هذه دار قوم الا دخله الذل
وحمله البخارى على الاستكثار منه وترجم عليه باب

ما يحذر من عواقب الاشتغال بألة الزرع او تجاوز الحد الذى امر به والسبب فيه والله اعلم ما يتبعها من المغرم المفضى الى التحكم واليد الغالبة فيكون الغارم ذليلا بائسا بها يتناوله ايدي القهر والاستطالة قال صلعم لا تقوم الساعة حتى تعود الزكاة مغرما اشارة الى الملك العضوض القاهر للناس الذى معه التسلط والجور ونسيان حقوق الله تعالى فى الممتلكات واعتبار الحقوق كلها مغارم للملوكة والسدول والله قادر على ما يشاء

فصل فى معنى التجارة ومذاهبها وعنايفها

اعلم ان معنى التجارة محاولة على الكسب بتبعية المال فى شراء السلعة بالرخص وبيعها بالغلاء ما كانت السلعة من رقيق او زرع او حيوان او سلاح او قماش وذلك القدر النامى يسمى ربحا والمحاولة لذلك الربح اما بان نختزن السلعة ويتجسّن بها حوالة السوق من الرخص الى الغلاء فيعظم ربحه واما بان ينقله الى بلد اخر تنفق فيه تلك السلعة اكثر من بلده الذى اشتراها فيه فيعظم ربحه ولذلك قال بعض الشيوخ من التجار لطالب الكشف عن حقيقة التجارة انا اعلمكها فى كلمتين اشتر الرخيص وبع الغالى وقد حصلت التجارة اشارة بذلك الى المعنى

الذى قرّره والله الرزاق ذو القوة المتين

فصل فى نقل التاجر للسلع

التاجر البصير بالتجارة لا ينقل من السلع إلا ما تَعَمُّ الحاجة إليه من الغنى والفقر والسلطان والسوقة اذ فى ذلك نفاق سلعته واما اذا اختَصَّ نقله بما يحتاج اليه البعض فقط فقد يتعذر نفاذ سلعته حينئذ باعواز الشراء على ذلك البعض لعارض من العوارض فيكسد سوقه وتفسد ارباحه وكذلك اذا نقل السلعة المحتاج اليها فانما ينقل الوسط من صنفها فان الغالى من كل صنف من السلع انما يختص به اهل الثروة وحاشية الدولة وهم الاقل وانما يكون الناس اسوة فى الحاجة الى الوسط من كل صنف فليتحَرَّ ذلك جهده ففيه نفاق سلعته او كسادها وكذلك نقل السلع من البلد البعيد المسافة او فى شدة الخطر فى الطرقات يكون اكثر فائدة للتجار واعظم ارباحا واكفل بحالة الاسواق لان السلع المنقولة حينئذ تكون قليلة معوزة لبعد مكانها او شدة الغرر فى طريقها فيقل حاملوها ويعزّ وجودها واذا قلت وعزّت غلت اثمانها واذا كان البلد قريب المسافة والطريق سابل بالامن فانه حينئذ يكثر ناقلوها فتكثر وترخص اثمانها (ولهذا) تجد التجار الذين

يولعون بالدخول الى بلاد السودان ارفه الناس واكثرهم
اموالا لبعد طريقهم ومشقته واعتراض المفازة الصعبة المخطرة
بالخوف والعطش لا يوجد فيها الماء الا فى اماكن
معلومة يهتدى اليها ادلاء الركاب فلا يرتكب هذا الطريق
وبعد الاقل من الناس فتجد سلع بلاد السودان قليلة لدينا
فتختص بالغلاء وكذا سلعا لديهم فتعظم بضائع التجار من
تناقلها ويسرع اليهم الغنى والثروة من اجل ذلك وكذلك
المسافرون من بلادنا الى المشرق لبعء المشقة (١) ايضا واما
المترددون فى الافق الواحد ما بين امصاره وبلدانه ففأندتهم
قليلة وارباحهم تافهة لكثرة السلع وكثرة ناقلها والله
الرزاق ذو القوة المتين

فصل فى الاحتكار

ومما اشتهر عند ذوى البصر والتجربة فى الامصار ان احتكار
الزرع لتحسين اوقات الغلاء به مشؤم وانه يعود على فائده
بالتلف والخسران وسببه والله اعلم ان الناس لحاجتهم الى
الاوقات مضطرون الى ما يبذلون فيها من المال اضطرارا
فتبقى النفوس متعلقة به فى تعلق النفوس بما لها شر كبير
فى وباله على من ياخذة مجانا (ولعله) الذى اعتبره

(١) Man. C. الشقة.

الشارع فى اخذ اموال الناس بالباطل وهذا وان لم يكن
 سجانا (١) فالنفوس متعلقة به لاعطائه ضرورة من غير سعة فى
 العذر فهو كالمكره وما عدا الاقوات والمأكولات من المبيعات
 لاضطرار الناس اليها وانما يبعثهم عليها الثقتن فى الشهوات
 فلا يبذلون اموالهم فيها الا باختيار وحرص فلا يبقى لهم
 تعلق بما اعطوه فلهذا يكون من عرف الاحتكار تجتمع
 القوى النفسانية على متابعته بما ياخذها من اموالهم فيفسد
 ربحه والله اعلم (وسمعت) فيما يناسب ذلك حكاية طريفة
 عن بعض مشيخة المغرب اخبرنى شيخنا ابو عبد الله الابلجى (٢)
 قال حضرت عند القاضي بفاس لعهد السلطان ابو سعيد
 وهو الفقيه ابو الحسن الهليلي وقد عرض عليه ان يختار
 بعض الالقاب المخزنية لجرايته فاطرق مليا ثم قال لهم من
 مكس الخمر فاستضحك الحاضرون من اصحابه وعجبوا
 وسائلوه عن حكمة ذلك فقال اذا كانت الجبايات كلها
 حراما فاختار منها ما لا تتابعه نفوس معطيه والخمر قل ان
 يبذل احد فيها ماله الا وهو طرب مسرور يوجد انه غير
 اسف عليه ولا متعلق به وهذه ملاحظة غريبة والله تعالى
 اعلم

(١) Man. D. باطلا محضا.

(٢) Man. A. C. الابلجى.

فصل فى ان رخص الاسعار مضرّ بالمحترفين بالرخص

وذلك ان الكسب والمعاش كما قدّمناه انما هو بالصنائع او التجارة والتجارة هى شراء البضائع والسلع وادخالها لتحسين بها حوالة الاسواق بالزيادة فى ائمانها ويسمى ربها ويحصل منه الكسب والمعاش للمحترفين بالتجارة دائها فاذا استديم الرخص فى سلعة او عرض من مأكول او ملبوس او متمول على الجملة ولم يحصل للتاجر حوالة الاسواق فيه فسد الربح والنماء بطول تلك الهدّة وكسدت سوق ذلك الصنف ولم يحصل للتاجر الآعلى العناء فيقعد التجار عن السعى فيها وتفسد رؤس اموالهم (واعتبر) ذلك مثلاً بالزرع اذا استديم رخصد كيف تفسد احوال المحترفين به فى سائر اطواره من الفلح والزراعة لقلّة الربح فيه ونزارته او فقده فيفقدون النماء فى اموالهم او يجدونه على قلّة ويعودون بالانفاق على رؤس اموالهم وتفسد احوالهم ويصيرون الى الفقر والخصاصة ويتبع ذلك فساد حال المحترفين ايضاً بالطحن والخبز وسائر ما يتعلّق بالزرع من الحرف من لدن زراعته الى مصيره مأكولا وكذا يفسد حال الحند اذا كانت ارزاقهم من السلطان عند اهل الفلح زرعاً بالاقطاع فانهم ينقل جبايتهم من ذلك ويعجزون عن اقامة الجندية

التي هم بسببها ويرزقون من السلطان عليها فيقطع عنهم
الرزق وتفسد احوالهم وكذا اذا استدبم الرخص في العسل
والسكر فسد جميع ما يتعلق به وقعد المحترفون به عن
التجارة فيه وكذا حال الملبوسات اذا استدبم فيها الرخص
ايضا فاذن الرخص المفرط يحجب معاش المحترفين بذلك
الصنف الرخيص (وكذا الغلاء المفرط) ايضا وربما يكون في
النادر سببا لنماء الهال بسبب احتكاره وعظم فائدته وانما
معاش الناس وكسبهم في التوسط من ذلك وسرعة حوالة
الاسواق ومعرفة ذلك يرجع الى العوائد المتقررة بين اهل
ال عمران وانما يحدد الرخص في الزرع من بين المبيعات
لهيوم الحاجة اليه واضطرار الناس الى الاقوات من بير
الغنى والفقير والعالة من الخلق هم الاكثر في العمران
فيعم الرفق بذلك ويرجع جانب القوت على جانب
التجارة في هذا الصنف الخاص والله الرزاق ذو القوة المتين

فصل في اتي اصناف الناس ينتفع بالتجارة واتيهم
ينبغي له تركها

قد نقدم لنا ان معنى التجارة تنمية المال بشراء البضائع
ومحاولة بيعها باغلا من ثمن الشراء اما بانظار حوال
الاسواق او نقلها الى بلد هي فيه انفق واغلا او بيعه

بالغلاء على الآجال وهذا الربح بالنسبة الى اصل المال
نزر بسير لان المال ان كان كثيرا عظم الربح لان القليل فى
الكثير كثير (ثم) لا بدّ فى محاولة هذه التمنية الذى هو
الربح من حصول هذا المال بايدى الباعة فى شراء البضائع
وبيعها وتقاضى ائمانها واهل النصفة منهم قليل فلا بدّ من
العش والتطيف المحجف بالبضائع والمطل فى الائمان
المحجف بالربح لتعطيل المحاولة فى تلك المدة وبها نماءه
ومن الجحود والانكار المسحت لرأس المال ان لم يقيّد
بالكتاب والشهادة وغناء الحكام فى ذلك قليل لان
الحكم انما هو على الظاهر فيعانى التاجر من ذلك احوالا
صعبة ولا يكاد يحصل على ذلك النافه من الربح الا بعظم
العناء والمشقة او لا يحصل ويتلاشا رأس ماله فان كان
جربا على الخصومة بصيرا بالحسبان شديد المباحكة
مقداما على الحكام كان ذلك اقرب له الى النصفة منهم
بجرائه وسماحته وآلا فلا بدّ له من جاه يدع به فيوقع له
الهيبة عند الباعة ويحمل الحكام على انصافه من غمائه
فيحصل له بذلك النصفة واستخلاص ماله منهم طوعا فى
الاول وكرها فى الثانى واما من كان فاقد الجراءة والاقدام
من نفسه وفاقد الجاه من الحكام فينبغى له ان يجتنب
التجارة لانه يعرض بهاله للذهاب والهضيعة ويصيره مأكدة

للباعة ولا يكاد ينتصف منهم لان الناس فى الغالب متطلعون الى ما فى ايدي الناس ولولا وازع احكام ما سلم لاحد شئ متا فى يده وخصوصا الباعة وسفلة الناس ورعاعهم (1) ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين

فصل فى ان خلق التجار نازلة عن خلق الرؤساء
وبعيدة عن المروءة

قد قدّمنا فى الفصل قبله ان التاجر مدفوع الى معاناة البيع والشراء وجلب الفوائد والارباح ولا بدّ فى ذلك من المكايسة والمهاكة والتحذلق وممارسة الخصومات واللجاج وهى عوارض هذه الحرفة وهذه الاوصاف تغضّ من الدكاء والمروءة وتحدج فيها لان الافعال لا بدّ من عود آثارها على النفس فافعال الخير تعود بآثار الخير والزكاء وافعال الشرّ والسفسفة تعود بضدّ ذلك فتتمكّن وترسخ ان سبقت وتكرّرت وتنقص من خلال الخير ان تأخّرت عنها بما ينطبع من آثارها المذمومة فى النفس شأن الملكات الناشئة عن الافعال وتتفاوت هذه الآثار بتفاوت اصناف التجار فى اطوارهم فمن كان منهم سافل الطور مخالطا لشرار الباعة اهل

(1) Man. A. رعاتهم D.

الغش والخلافة والخديعة والفجور في الايمان على البيعات
والانمان اقرارا وانكارا كانت ردة تلك الخلق عنده اشد
وغلبت عليه السفسفة وبعد عن المروآت واكتسابها
بالجملة والآ فلا بد له من تأثير المكايسة والمهاكمة في مروته
وفقدان ذلك فيهم بالجملة قليل ووجود الصنف الثاني
منهم الذى قدّمنا فى الفصل قبله أنهم يدعون (1) بالسجاء
وبعوض لهم من مباشرة ذلك فيهم نادر واقل من النادر
وذلك ان يكون المال قد توفر عنده دفعة بنوع غريب
او ورثه عن احد من اهل بيته فحصلت له ثروة تعينه على
الاتصال باهل الدولة وتكسبه ظهورا وشهرة بين اهل عصره
فيترقع عن مباشرة ذلك بنفسه وبدفعه الى من يقوم له به
من وكلائه وحشمه ويسهل لهم الحكم النصفة (2) فى حقوقهم
بما يونسونه من بزه وانحافد فيبعدون عن تلك الخلق
بالبعد عن معاناة الافعال المقتضية لها كما مر فتكون مروتهم
ارسخ وابعد عن المخدجات (3) الا ما يسرى من آثار تلك
الافعال من وراء الحجاب فانهم يضطرون الى مشاركة احوال
اولئك الوكلاء ووافقهم او خلافهم فيما يأتون وبذرون من
ذلك الا انه قليل ولا يكاد يظهر اثره والله خلقكم وما تعلمون

(1) Man. C et D. بررعون

(2) Man. C et D. الصنف

(3) Man. B المحرجات C. المحرجات D. المحرجات

فصل فى ان الصنائع لا بد لها من المعلم (1)

PROLÉGOMÈNES
d'Ibn Khaldoun

اعلم ان الصناعة هي ملكة في امر عملي فكري وبكونه
عمليا هو جسماني محسوس والاحوال الجسمانية المحسوسة
نقلها بالمباشرة اوعب لها واكمل لان المباشرة في الاحوال
الجسمانية المحسوسة اتم فائدة والملكة صفة راسخة
نحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد اخرى
حتى ترسخ صورته وعلى نسبة الاصل نكون الملكة ونقل
المعينة اوعب واتم من نقل الخبر والعلم فالملكة
الحاصلة عنه اكمل وارسخ من الملكة الحاصلة عن الخبر
وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حذق المتعلم
في الصناعة وحصول ملكته ثم ان الصنائع منها البسيط
ومنها المركب والبسيط هو الذي يختص بالضروريات
والمركب هو الذي يكون للكماليات والمتقدم منها
في التعليم هو البسيط لبساطته اولا ولانه يختص بالضروري
الذي تتوفر الدواعي على نقله فيكون سابقا في التعليم
وبكون تعليمه لذلك ناقضا ولا يزال الفكر تخرج اصنافها
ومركباتها من القوة الى الفعل بالاستنباط شأنا على
التدرج حتى تكمل. ولا يحصل ذلك دفعة وانما يحصل

(1) Man. C. معلم

فى ازمان واجيال اذ خروج الاشياء من القوة الى الفعل
لا يكون دفعة لاسيما فى الامور الصناعيّة ولا بدّ له اذا من
زمان ولهذا نجد الصنائع فى الامصار الصغيرة ناقصة
ولا يوجد منها الا البسيط فاذا تزيّدت حضارتها ودعت امور
الترف فيها الى استعمال الصنائع خرجت من القوة الى
الفعل والله اعلم

فصل فى ان الصنائع انما تكمل بكمال العمران الحضرى وكثرته

والسبب فى ذلك ان الناس ما لم يستوف العمران الحضرى
ونستدرك المدينة انما همهم فى الضرورى من المعاش وهو
بحصيل الاقوات من الحنطة وغيرها فاذا نهتت المدينة
وتزيّدت فيها الاعمال ووفت بالضرورى وزادت عليه صرف
الرائد حينئذ الى الكمالات من المعاش (ثم) ان الصنائع
والعلوم انما هى للانسان من حيث فكره الذى يتميز به عن
الحيوانات والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية فهو
متقدّم لضرورته على العلوم والصنائع وهى متأخرة عن
الضرورى وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنيق
فيها حينئذ وجودة ما يطلب منها بحسب دواعى الترف
والثروة واما العمران البدوى او القليل فلا يحتاج من

الصنائع لا البسيط خاصة المستعمل فى الضرورات من
تجار او حداد او خياط او جزار او حائك واذا وجدت
هذه بعد فلا توجد فيه كاملة ولا مستجادة وانما يوجد منها
بمقدار الضرورة اذ هى كلها وسائل الى غيرها وليست
مقصودة لذاتها واذا زخر بحر العمران وطلبت فيها الكمالات
كان من جملة التائق فى الصنائع واستجاداتها فكمملت
بجميع متماتها وتزيدت صنائع اخرى معها مما تدعو اليه
عوائد الترف واحواله من خراز ودباغ وحرار وصائغ وامثال
ذلك (وقد) تنتهى هذه الاصناف اذا استبحر العمران
ان يوجد فيها كثير من الكمالات ويتائق فيها فى الغاية
ونكون من وجوه المعاش فى الهصر لمنتحلها بل تكون
فائدها من اعظم فوائد الاعمال لما يدعو اليه الترف فى
المدينة مثل الدقان والصفار والحمامى والطباخ والسفاج
والهتراس ومعلم الغناء والرقص وقرع الطبول على التوقيع ومثل
الروافين الذين يعانون صناعة انتساح الكتب ونجليدها
ومصاحفها فان هذه الصناعة انما يدعو اليها الترف فى
المدينة من الاشتغال بالامور الفكرية وامثال ذلك وقد
تخرج عن الحد اذا كان العمران خارجا عن الحد كما
بلغنا عن اهل مصر ان فيهم من يعلم الطيور العجم
والحمر الانسية ويخيل اشياء من العجائب بايهام قلب

الاعيان وتعليم الحدا والرقص والمشى على السخيوط فى
الهواء ورفع الانتقال من الحيوانات والحجارة وغير ذلك
من الصنائع التى لا توجد عندنا بالمغرب لان عمران امصاره
لم يبلغ عمران مصر والقاهرة والله الحكيم العليم

فصل فى ان رسوخ الصنائع فى الامصار برسوخ الحضارة وطول امدها

والسبب فى ذلك ظاهر وهو ان هذه كلها عوائد للعمران
والوان والعوائد انما ترسخ بكثرة التكرار وطول الامد فتستحكم
صبغة ذلك ورسوخ فى الاجيال واذا استحكمت الصبغة
عسر نزعها ولهذا فانما نجد الامصار التى كانت استبحرت
فى الحضارة لما تراعى عمرانها ونناقص بقيت فيها
انما من هذه الصنائع ليست فى غيرها من الامصار المستحدثة
العمران ولو بلغت مبالغها فى الوفور والكثرة وما ذاك
الا لان احوال تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة
بطول الاحقاب وتداول الاحوال وتكررها وهذه لم تبلغ الغاية
بعد وهذا كالحال فى الاندلس لهذا العهد فانما نجد فيها
رسوم الصنائع قائمة واحوالها مستحكمة راسخة فى جميع ما
ندعو اليه عوائد امصارها كالمباني والطبخ واصناف الغناء واللهو
من الآلات والوانار والرقص ونصييد الفرش فى القصور

وحسن الترتيب والاوزاع فى البناء وصوغ الآنية من المعادن
والخزف وجميع المواعين واقامة الولائم والاعراس وسائر
الصنائع التى يدعو اليها النرف وعوائده فتجدهم اقوم الناس
عليها وابصر بها وتجد صنائعها مستحكمة لديهم فهم على
حصّة موفورة من ذلك وحظّ متميّز بين جميع الامصار
وان كان عمرانها قد نناقص والكثير منه لا يساوى عمران
غيرها من بلاد العدو وما ذاك الا لما قدّمناه من رسوم
الحضارة بينهم برسوخ الدولة الاموية وما قبلها من دولة
القوط وما بعدها من دولة الطوائف الى هلم فبلغت الحضارة
فيها مبلغا لم تبلغه فى قطر الا ما ينقل عن العراق والشام
ومصر ايضا لطول آماذ الدول فيها فاستحكمت فيها الصنائع
وكملت جميع اصنافها على الاستجادة والتنميق وبقيت
صغتها ثابتة فى ذلك العمران لا تفارقه الى ان ينتقص
بالكلية حال الصبغ اذا رسخ فى الشوب وكذا ايضا حال
نونس فيما حصل فيها من الحضارة بالدول الصنهاجية
والموحدين من بعدهم وما استكمل لها ذلك من الصنائع
فى سائر الاحوال وان كان ذلك دون الاندلس الا انه
متضاعف برسوم منها تنتقل اليها من مصر لقرب المسافة
وبردد المسافرين من قطرها الى فطر مصر فى كل سنة وربما
سكن اهلها هنالك عصورا فينقلون من عوائد ترفهم

ومحكم صنائعهم لما يقع لديهم موقع الاستحسان فصارت
احوالها في ذلك متشابهة من احوال مصر لما ذكرناه ومن
احوال الاندلس لما ان اكثر ساكنها من شرق الاندلس
حين الجلاء لعهد المائة السابعة ورسخ فيها من ذلك
احوال وان كان عمرانها ليس يناسب لذلك لهذا العهد
الا ان الصبغة اذا استحسنت فقليل ما تحول الا بزوال محلها
وكذلك نجد بالقيروان ومراكش وقلعة ابن حماد انرا
باقيا من ذلك وان كانت هذه كلها اليوم خرابا او في
حكم الخراب ولا يتفطن لها الا البصير من الناس فيجد
من هذه الصنائع اثارا تدلّه على ما كان بها كثر الخطأ
الممحو في الكتاب والله الخلاق

فصل في ان الصنائع انما تستجد وتكثر اذا كثر
طالبها

والسبب في ذلك ان الانسان لا يسمح بعمله ان يقع
مجانا لانه كسبه ومنه معاشه اذ لا فائدة له في جميع
عمره في شئ مما سواه فلا يصرفه الا فيما له قيمة في
مصره ليعود عليه بالنفع واذا كانت الصناعة مطلوبة
ويوجه اليها النفاق كانت حيسد الصناعة بمثابة السلعة التي
نقق سوقها وتجلب للبيع فيجتهد الناس في المدينة لتعلم

تلك الصناعة ليكون منها معاشهم وإذا لم تكن الصناعة مطلوبة لم ينفق سوقها ولا يوجه قصد الى تعلمها فاختصت بالنزك وفقدت للاهمال (ولهذا) يقال عن على كرم الله وجهه قيمة كل امرء ما يحسنه بمعنى ان صناعته هي قيمته اى قبيحة عمله الذى هو معاشه وايضا فهنا سر اخر وهو ان الصنائع واجادتها انما تطلبها الدولة فهى التى تنفق من سوقها وتوجه الطلبات اليها وما لم تطلبه الدولة وانما يطلبه غيرها من اهل المصر فليس على نسبتها لان الدولة هي السوق الاعظم وفيها نفاق كل شئ والقليل والكثير فيها على نسبة واحدة فها نفق فيها كان اكثرياً ضرره والسوقة وان طلبوا الصناعة فليس صلبهم بعام ولا سوقهم بنافقة والله قادر على ما يشاء

فصل فى ان الامصار اذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع

وذلك لما بيتاه من ان الصنائع انما تستجد اذا احتسرها اليها وكثر طالبيها فاذا ضعفت احوال المصر واخذ فى الهرم بانتقاص عمرانها وقلة ساكنه تناقص فيه الترف ورجعوا الى الاقتصار على الضرورى من احوالهم فتقل الصنائع التى كانت من نوابع الترف لان صاحبها حينئذ لا يصير

له بها معاش فيفر (١) الى غيرها او يموت ولا يكون خلف منه فيذهب رسم تلك الصنائع جملة كما يذهب النقاشون والصوّافون والكتّاب والنساخ وامثالهم من الصّناع لحاجات الترف ولا تزال الصناعات فى تناقص ما دام المصر فى تناقص الى ان يضمحل والله الخلاق العليم

فصل فى ان العرب ابعد الناس عن الصنائع

والسبب فى ذلك أنّهم اعرق (٢) فى البدو وابتعد عن العمران الحضريّ وما يدعو اليه من الصنائع وغيرها والعجم من اهل المشرق وامم النصرانية عدوة البحر الرومى اقوم الناس عليها لانهم اعرق فى العمران الحضريّ وابتعد عن البدو وعمرانه حتى ان الابل التى اعانت العرب على التوحش فى القفر والاعراق فى البدو مفقودة لديهم بالجملة ومفقودة مراعيها والرمال المهية لتساجها ولهذا انجد اوطان العرب وما ملكوه فى الاسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب اليه من قطر اخر وانظر بلاد العجم من الصين والهند وارض الترك وامم النصرانية كيف استكثرت فيها الصنائع واستجلبها لامم من عندهم وعجم المغرب من البربر بمثابة العرب فى ذلك لرسوخهم فى البداوة منذ احقاب من

(١) Man. D ففتر

(٢) Man. D اعرق

السنين ويشهد لك بذلك قلة الامصار بقطرهم كما قدمناه
 فالصنائع بالمغرب لذلك قليلة وغير مستحكمة الا ما كان
 من صناعة الصوف في نسجه والجلد في خرزة ودبغه فانهم
 لما استحضروا بلغوا فيها المبالغ لعموم البلوى بها وكون
 هذين اغلب السلع في قطرهم لما هم عليه من حال
 البداوة واما المشرق فقد رسخت الصنائع فيه منذ ملك
 الامم الاقدمين من الفرس والنبط والقبط وبنى اسرائيل ويونان
 والروم احقابا متطاولة فرسخت فيهم احوال الحضارة ومن
 جملتها الصنائع كما قدمناه فلم يمس رسمها واما اليمن
 والبحرين وعمان والجزيرة وان ملكها العرب الا انهم
 تداولوا ملكه الآفا من السنين في اسم كثيرين منهم واختطوا
 ايضا امصاره ومدنه وبلغوا المبالغ من الحضارة والترف مثل
 عاد وثمود والعمالقة وحير من بعدهم والتبابعة والاذواء فطال
 امد الملك والحضارة واستحكمت صبغتها ونوقرت الصنائع
 ورسخت فلم نبلى ببلى الدولة كما قلناه فبقيت مستحكمة
 حتى الآن واختصت بذلك الموطن كصناعة الوشى
 والعصب وما يستجد من حوك الثياب والحريز فيها والله
 وارث الارض وما عليها

فصل فى ان من حصلت له ملكة فقل ان يجيد
بعدها ملكة اخرى

ومثال ذلك الخياط اذا اجاد ملكة الخياطة واحكمها
ورسخت فى نفسه فلا يجيد من بعدها ملكة النجارة
او البناء الا ان نكون الاولى لم تستحكم بعد ولم ترسـ
صغقتها والسبب فى ذلك ان الملكات صفات للنفس
والوان فلا تزدحم دفعة ومن كان على الفطرة كان اسهل
لقبول الملكات واحسن استعدادا لحصولها فاذا تلونت
النفس بالملكة خرجت عن الفطرة وضعف فيها الاستعداد
باللون الحاصل من هذه الملكة فكان قبولها للملكة الاخرى
اضعف وهذا يتبين يشهد له الوجود فقل ان نجد صاحب
صناعة يحكمها فيحكم من بعدها اخرى ويكون فيها معا
على رتبة واحدة من الاجادة حتى ان اهل العلم الذين
ملكتمهم فكرية فهم بهذه المثابة ومن حصل منهم على
ملكة علم من العلوم واجادها فى الغاية فقل ان يجيد
ملكة علم اخر على نسبته بل يكون مقصرا فيه ان طلبه
الا فى الاقل النادر من الاحوال ومبنا سببه على ما ذكرناه
من شأن الاستعداد وتلوينه بلون الملكة الحاصلة فى النفس
والله اعلم

فصل فى الإشارة الى اتمهات الصنائع

اعلم ان الصنائع فى النوع الانسانى كثيرة لكثرة الاعمال المتداولة فى العمران فهى بحيث تشدّ عن الحصر ولا ياخذها العدد الا ان منها ما هو ضرورى فى العمران او شريف بالموضوع فنخصّصها بالذكر ونترك ما سواها فاما الضرورى فكالقلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياسة واما الشريف بالموضوع فكالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب فاما التوليد فانها ضرورية فى العمران وعامة البلوى اذ بها نحصل حياة المولود وستم غالبا وموضوعها مع ذلك المولودون وامنهم (واما) الطب فهو حفظ الصحة للانسان ودفع المرض عنه ويسفر عن علم الطبيعة وموضوعه مع ذلك بدن الانسان واما الكتابة وما يتبعها من الوراقاة فهى حافظة على الانسان حاجته ومقيدة لها عن الشيطان ومباعدة ضائير النفس الى البعيد الغائب ومخلدة نتائج الافكار والعلوم فى الصحف ورابعة رتب الوجود للمعانى (واما) الغناء فهو نسب الاصوات ومظهر جمالها للاسماع وكل هذه الصنائع الثلاثة داع الى مخالطة الملوك الاعاظم فى خلوانهم ومجالس انسهم فلها بذلك شرف ليس غيرنا وما سوى ذلك من الصنائع فتاعة ومتهينة فى

الغالب وقد يختلف ذلك باختلاف الأغراض والدواى والله
الخالق العليم

فصل فى صناعة الفلاحة

هذه الصناعة ثمرتها اتخاذ الاقوات والحبوب بالقيام على
اثارة الارض لها وازدراعها وعلاج نباتها وتعاوده بالسقى
والتنمية الى بلوغ غايته ثم حصاد سنبله واستخراج حبه من
غلافه واحكام الاعمال لذلك وتحصيل اسبابه ودوايه وهى
اقدم الصنائع لما آتتها محصلة للقوت المكمل لحياة
الانسان غالبا اذ يمكن وجوده من دون جميع الاشياء الا من
دون القوت ولهذا (1) اختصت هذه الصناعة بالبدو اذ قدّمنا انه
اقدم من الحضرة وسابق عليه فكانت هذه الصناعة بذلك
بدوية لا يقوم عليها الحضرة ولا يعرفونها لان احوالهم كلها
ثانية عن البداية فصنائعهم ثانية عن صنائعها ونابعة لها
والله الخالق العليم

فصل فى صناعة البناء

هذه اول صنائع العمران الحضرى واقدمها وهى معرفة
العمل فى اتخاذ البيوت والبنازل للسكن (2) والماوى وذلك

(1) Man. C. et D. ما

(2) Man. D. لكن (1) Man. D. A. B.

ان الانسان بما جبل عليه من الفكر فى عواقب احواله لا بد له ان يفكر فى موانع اذاية الحر والبرد عنه باتخاذ البيوت ذوات الحيطان والسقف الحائلة دون من جهاته والبشر مختلفون فى هذه الجبلۃ الفكرية التى هى معنى الانسانية فالمقيدون فيها ولو على التفاوت يتخذون ذلك باعتدال كاهل الاقليم الثانى وما بعده الى الاقليم السادس واما اهل الاول والسابع فيبعدون عن اتخاذ ذلك لانحرافهم وقصور افكارهم عن كيفية العمل فى الصنائع الانسانية فياؤون الى الغيران والكهوف كما يتناولون الاغذية من غير علاج ولا نصيح (ثم) المعتدلون المتخذون للبيوت للماوى قد يتكاثرون فتكثر بيوتهم فى البسيط الواحد بحيث يتناكرون ولا يتعارفون فيخشى من طروق بعضهم بعضا بيانا فيحتاجون الى حفظ مجتمعهم بادارة سياج الاسوار التى تحوطهم ويصير جميعها مدينة ومصر واحد يحوطهم فيه الحكماء بدفاع بعضهم عن بعض وقد يحتاجون الى الاعتصام من العدو ويتخذون المعاقل والحصون لهم ولمن تحت ايديهم وهؤلاء مثل الهلوك ومن فى معانهم من الامراء وكبراء القبائل (ثم) يختلف احوال البناء فى الپدن كل مدينة على ما يتعارفون ويصطاحون عليه ويناسب مزاج هوائهم واختلاف احوالهم فى الغنا والفقر وكذا حال اهل المدينة الواحدة فمنهم من

يتخذ القصور والمصانع العظيمة الساحة الهشتملة على عدة الدور والبيوت والغرف لكثرة ولده وحشمه وعياله وتابعه ويؤسس جدرانها بالحجارة ويأحم بينها بالكلس ويعال عليها بالاصبغة والجص ويبالغ في كل ذلك بالتنجيد والتنميق اظهارا للبسطة (١) في العناية بشأن الماوى ويهني مع ذلك الاسراب والمطامير لاختزان اقواته والاصطبلات لربط مقرباته ان كان من اهل الجنود وكثرة التابع والفاشنة كالامراء ومن في معانهم ومنهم من بنى الدويرة والبوابة لنفسه وسكنه وولده لا يبتغى ما وراء ذلك لقصور حاله عنه واقتصاره على الكنّ الطبيعى للبشر وبين ذلك مراتب غير منحصرة (وقد) يحتاج الى هذه الصناعة ايضا عند تأسيس الهلوك واهل الدول المدن العظيمة والهيكل المرتفعة ويبالغون في انقار الاوضاع وعلو الاجرام مع الاحكام لتبلغ الصناعة مبالغها وهذه الصناعة هي التى تحصل الدواى لذلك كله واكثر ما تكون هذه الصناعة فى الاقاليم المعتدلة من الرابع وما حوله اذ الاقاليم المنحرفة لا بناء فيها وانما يتخذون البيوت حظائر من القصب والطين او يآوون الى الكهوف والغيران واهل هذه الصناعة القائمون عليها متفاوتون فمنهم البصير الهاهر ومنهم القاصر (ثم) هي تتنوع انواعا كثيرة

فمنها البناء بالحجارة المنجدة (1) او بالاجر يقام بها الجدران ملصقا بعضها الى بعض بالطين والكلس الذى يعقد معها فتلتحم كأنها جسم واحد ومنها البناء بالتراب خاصة تقام منه الحيطان بان يتخذ له لوحان من الخشب مقدران طولاً وعرضاً باختلاف العادات فى التقدير واوسطه اربعة اذرع فى ذراعين فيصبان على اساس وقد بوعد ما بينهما على ما يراه صاحب البناء فى عرض الاساس ويوصل بينهما باذرع من الخشب يربط عليها بالحبال والجدل وتسد الجبهتان الباقيتان من ذلك الخلاء (2) بينهما بلوحيين اخرين صغيرين ثم يوضع فيه التراب مختلطاً بالكلس وببساط بالمراكز المعدة لذلك حتى ينعم ركزه وتختلط اجزأؤه بالكلس ثم يزد التراب نانيا وثالثاً الى ان يبتلى ذلك الخلاء (3) بين اللوحيين فقد تداخلت اجزاء الكلس والتراب وصارت حسماً واحداً ثم يعاد نصب اللوحيين على الصورة الاولى ويكرر كذلك الى ان يتم وينتظم الألواح كلها سطراً فوق سطر الى ان ينتظم الحائط كله ملتصقاً كانه قطعة واحدة ويسمى الطابية وصانعه الطواب (ومن) صنائع البناء ايضا ان تجلل الحيطان بالكلس بعد ان يحل بالماء ويخمّر اسبوعاً او اسبوعين على قدر ما يعتدل مزاجه عن افراط النارية

(1) Man. C. المنجدة

(2) Man. A. et B. الغضاء.

(3) Ibid. الغضاء

المفسدة للالحام فاذا تم له ما يرضاه من ذلك علاه من فوق الحائط وذلكه الى ان يلتحم (ومن) صنائع البناء عهل السقف بان تهدّ الخشب المحكمة النجارة او الساذجة على حائط البيت ومن فوقها الالواح كذلك موصولة بالداستر ويصبّ عليها التراب والكلس ويبلط بالمراكز حتى تتداخل اجزائها وتلتحم ويعالا عليه الكلس كما عوى على الحائط ومن صناعة البناء ما يرجع الى التنسيق والترتيب كما تصنع من فوق الحيطان الاشكال المجسمة من الجص يعقد بالماء ثم يرفع مجسدا وفيه بقية البلبل فيشكل على التناسب تخريما يثاقب الحديد الى ان يبقى له رونق ورواء وربما عوى على الحيطان ايضا بقطع الرخام او الاجر او الخزف او الصدف او السجج يفصل اجزاء متجانسة او مختلفة وتوضع فى الكلس على نسب واوزاع مقدرة عندهم يبدو به الحائط لليان كانه قطع الرصاص المنمنمة الى غير ذلك من بناء الجباب والصهاريج لسيح الماء بعد ان تعدّ فى البيوت قصاع الرخام القورا المحكمة الخروط بالفوهات فى وسطها لنسب الماء الجارى الى الصهريج يجلب اليها من خارج فى القنوات المفضية به الى البيوت وامثال ذلك من انواع البناء ويختلف الصناع فى جميع ذلك باختلاف الحنق والبصر ويعظم عمران

المدينة ويتسع فيكثر (ورثها) يرجع الحكام الى نظر هولاء فيها هم ابصر به من احوال البناء وذلك ان الناس فى المدن الكثيرة (١) الازدحام والعيان يتشاقون حتى فى الفضاء والهواء للاعلى والاسفل فى الانتفاع بظاهر البناء مما يتوقع معه حصول الضرر فى الحيطان فيمنع جاره من ذلك الا ما كان له فيه حق ويختلفون ايضا فى استحقاق الطرق والمنافذ للمياه الجارية والفضلات المسربة فى القنوات ورثما بدى بعضهم على بعض فى حائط او علوه او قنانه لتضايق الجوار او يدعى بعض على جاره اعتلال حائطه وخشية سقوطه ويحتاج الى الحكم عليه بهدمه ودفع ضرره عن جاره عند من يراه او يحتاج الى قسمة دار او عرصه بين شريكين بحيث لا يقع معهما فساد فى الدار ولا اهل لمنفعتها وامثال ذلك ويخفى جميع ذلك الا على اهل البصر بالبناء العارفين باحوال المسندلين عليها بالمعاقد والقبط ومراكز الخشب وميل الحيطان واعتدالها وقسم المساكن على نسبة اوضاعها ومنافعها وتسريب المياه فى القنوات مجاورة ومدفوعة بحيث لا تضر بها مرت عليه من البيوت والحيطان وغير ذلك فلهم بهذا كد البصر والخبرة التى ليست لغبرهم وهم مع ذلك يختلفون بالجودة والقصور فى

(١) Man. G. et D. الكثرة.

الاجيال باعتبار الدول وقوتها فانا قدما ان الصنائع وكمالها
انما هو بكمال الحضارة وكثرتها بكثرة الطالب لها فلذلك
عند ما تكون الدولة بدوية في اول امرها تفتقر في امر
البناء الى غير قطرها كها وقع للوليد بن عبد الهلک حين
اجيع بناء مسجد المدينة والقدس ومسجده بالشام فبعث الى
ملك الروم بالقسطنطينة في الفعلة المهرة في البناء فبعث
اليه منهم بهن كمل له غرضه من تلك المساجد (وقد) يصرف
صاحب هذه الصناعة اشياء من الهندسة مثل تسوية
الحيطان بالوزن واجراء المياه باخذ الارتفاع وامثال ذلك
فيحتاج الى البصر بشئ من مسائله وكذلك في جرّ
الانقال بالهندام فان الاجرام العظيمة اذا شيدت بالحجارة
الكبيرة نعجز قدر الفعلة عن رفعها الى مكانها من الحائط
فيحيل لذلك بمضاعفة قوة الحبل بادخاله في المعالق
من انقباب مقدرة على نسب هندسية يصير الثقيل عند
معاناة الرفع خفيفا وتسمى آلة لذلك بالمخال فيتم المراد
من ذلك بغير كلفة وهذا انما يتم باصول هندسية معروفة
متداولة بين البشر وبمثلها كان بناء الهياكل المائلة لهذا
العهد التي يحسب الناس انها من بناء الجاهلية وان ابدانهم
كانت على نسبتها في عظم الجثمان وليس كذلك
وانها يتم لهم ذلك بالحيل الهندسية كما ذكرناه

فتفهم ذلك والله يخلق ما يشاء

فصل فى صناعة النجارة

هذه الصناعة من ضرورات العمران ومادتها الخشب وذلك ان الله سبحانه وتعالى جعل للادمى فى كل مكون من المكونات منافع تكمل بها ضروراته او حاجاته وكان منها الشجر فان له فيه من المنافع ما لا ينحصر مّا هو معروف لكل احد ومن منافعها اتخاذها خشبا اذا يبست واول منافع الخشب ان يكون وقودا للنيران فى معاشهم وعصيا فى الاتكاء والدود وغيرها من ضروراتهم ودعائم لما يخشى ميله من اثقالهم ثم بعد ذلك منافع اخرى لاهل البدو والحضر فاما اهل البدو فيتخذون العمد والاوناد لخيامهم والحدوج لطعائهم والرماح والقسيّ والسهام لسلحهم واما اهل الحضر فالسقف لبيوتهم والاعلاق لابوابهم والكراسى لجلوسهم وكل واحدة من هذه فالخشب مادة لها ولا يصير الى الصورة الخاصة بها الا بالصناعة والصناعة المتكفلة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها هى النجارة على اختلاف رتبها فيحتاج صاحبها الى تفصيل الخشب اولا اما بخشب اصغر منه او بالواح ثم تركيب تلك الفصائل بحسب الصورة المصلوبة فهو فى كل ذلك يحاول بصنغته

اعداد تلك الفصائل بالانتظام الى ان تصير اعضاء لذلك الشكل المخصوص والقائم على هذه الصناعة هو التجار وهو ضروري في العمران ثم اذا عظمت الحضارة وجاء الترف وتأنق الناس فيما يتخذونه من كل صنف من سقف او باب او كرسي او ماعون حدث التأنق في صناعة ذلك واستجاداته بغرائب من الصنعة كمالية ليست من الضروري في شئ مثل التخطيط في الابواب والكراسي ومثل تهية القطع من الخشب بصناعة الخراط يحكم بريها وتشكيلها ثم تولف على نسب مقدرة وتلحم بالداثر فتبدو لمراى العين مالتحمة وقد اخذ منها اختلاف الاشكال على تناسب بصنع هذا في كل شكل يتخذ من الخشب فيجئ انق ما يكون وكذلك في جميع ما يحتاج اليه من الآلات المتخذة من الخشب من اتي نوع كانت وكذلك قد تحتاج الى هذه الصناعة في انشاء السفن البحرية ذات الالواح والدرسر وهى اجرام هندسية صنعت على قالب الحوت واعتبار سبجه في الماء بقواده وكلعله ليكون ذلك الشكل اعون لها على مصادمة الماء وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التى للسمك تحريك الرياح وربما اعينت بحركة المجاذيف كما فى الاساطيل وهذه الصناعة من اصلها محتاجة الى جزء كبير من الهندسة فى جميع

اصنافها لان اخراج الصور من القوة الى الفعل على وجه
الاحكام محتاج الى معرفة التناسب فى المقادير اما عموما
او خصوصا وتناسب المقادير لا بد من الرجوع فيه الى
المهندس ولهذا كانت ائمة الهندسة اليونانيين كلهم ائمة فى
هذه الصناعة فكان اوقليدس صاحب كتاب الاصول فى
الهندسة نجارا وبها كان يعرف وكذلك ابلونيوس
صاحب كتاب المخروطات وميلاوش وغيرهم
وفيما يقال ان معلّم هذه الصناعة فى الخليقة هو
نوح صلعم وبها انشأ سفينة النجاة التى بها كانت معجزته
عند الطوفان وهذا الخبر وان كان ممكنا اعنى كونه نجارا
الا ان كونه اول من عملها لا دليل يقوم عليه لبعد الآماد
وانما معناه الاشارة الى قدم التجارة لانه لم تصح حكاية
عها قبل خبر نوح صلعم فجعل كانه اول من تعلمها فتفهم
اسرار الصنائع فى الخليقة والله الخلاق العليم

فصل فى صناعة الحياكة والخياطة

اعلم ان المعتدلين من البشر فى معنى الانسانية لا بد لهم
من الفكر فى الدفء كالفكر فى الكثر ويحصل الدفء
باشتمال المنسوج للوقاية من الحر والبرد ولا بد لذلك من
الحام الغزل حتى يصير ثوبا واحدا وهو النسج والحياكة

فان كانوا بادية اقتصروا عليه وان مالوا الى الحضارة فصلوا تلك المنسوجة قطعاً يقدرون منها ثوبا على البدن بشكله وتعدد اعضائه واختلاف نواحيها ثم يلائمون بين تلك القطع بالوصلات حتى تصير ثوبا واحدا على البدن ويلبسونها والصناعة المحصلة لهذه الملائمة هي الخياطة وهاتان الصنعتان ضرورتان في العمران لما يحتاج اليه الشر من الدفء فالاولى لنسج الغزل من الصوف والقطن سدوا في الطول والحاما في العرض واحكاما لذلك النسج بالاتحام الشديد فتتم منها قطع مقدرة فمنها الأكسية من الصوف للاشتمال ومنها الثياب من القطن والكتان للباس (والصناعة الثانية) لتقدير المنسوجات على اختلاف الاشكال والعوائد تفصل اولا بالمقراض قطعاً مناسبة للاعضاء البدنية ثم تاحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلا او حبكا او تنبيتا او نقتيجا على حسب نوع الصناعة وهذه الثانية مختصة بالعمران الحضري لما ان اهل البدو يستغنون عنها وانما يشتملون الاثواب اشتمالا وانما تفصيل الثياب وتقديرها والحامها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها وتفهم هذا في سرّ تحرير المخيط في السجّ لما ان مشروعية السجّ شتملة على نبذ العلائق الدنيوية كلها والرجوع الى الله تعالى كما خلقنا اول مرة حتى لا يعلق العبد قلبه بشئ من عوائد

ترفه لا طيبا ولا نساء ولا مخيطا ولا خفا ولا يعرض لصيد
ولا لشيء من عوائده التي تلونت بها نفسه وخلقه مع انه
يفقدها بالموت ضرورة وإنما يجئ كانه وارد على المحشر
ضارعا بقلبه مخلصا لربه فكان جزاءه ان تم له اخلاصه
فى ذلك ان يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه سبحانه
ما ارفقك بعبادك وارحمك بهم فى طلب هدايتهم
اليك وهاتان الصناعتان قديمتان فى الخليقة لها ان
الدفع ضرورى للبشر فى العمران المعتدل واما المنحرف
الى الحر فلا يحتاج اهله الى دفع ولهذا يبلغنا عن اهل
الاقليم الاول من السودان انهم عراة فى الغالب ولقدّم هذه
الصنائع تنسبها العامة الى ادريس عليه السلام وهو اقدم
الانبياء عليهم السلام وربما ينسبونها الى هرمس وقد يقال
ان هرمس هو ادريس والله الخلاق العليم

فصل فى صناعة التوليد

وهى صناعة يعرف بها العمل فى استخراج المولود من بطن
أمه من الفرق فى اخراجه من رحمها وتهيئة اسباب ذلك
ثم ما يصلحه بعد الخروج على ما يذكر وهى مختصة
بالنساء فى غالب الامر لما اتهم الظاهرات بعضهن على
عورات بعض وتسمى القائمة على ذلك منهن القابله

استعير فيه معنى الاعطاء والقبول كان النفساء تعطيها الجنين
وكأنها تقبله وذلك ان الجنين اذا استكمل خلقه فى
الرحم وطواره وبلغ الى غايته والمدّة التى قدر الله لمكته وهى
تسعة اشهر فى الغالب فيطلب الخروج بما جعل الله فيه
من النزوع لذلك ويضيق عليه المنفذ فيعسر وربما مزق
بعض جوانب الفرج بالضغط وربما انقطع (1) ما كان فى
الاعشية من الالتصاق والالتحام بالرحم وهذه كلها آلام يشتدّ
لها الوجع وهو معنى الطلق فتكون القابلة معينة فى ذلك
بعض الشئ بغمز الظهر والوركين وما يحاذى الرحم من
الاسفل تساوق بذلك فعل الدافعة فى اخراج الجنين
وتسهيل ما يصعب منه بما يمكنها وعلى ما تهتدى الى
معرفة عسره (ثم) اذا خرج الجنين بقيت بينه وبين الرحم
الوصلة التى كان يتغذى منها متصلة من سترته ببعاءه وتلك
الوصلة عضو فضلى لتغذية المولود خاصّة فتقطعها القابلة
من حيث لا يتعدّى مكان الفضلة ولا يضّر ببعاءه ولا برحم
أمه ثم تدمل مكان الجراحة مند بالكى او بما تراه من
وجوه الاندمال (ثم) ان الجنين عند خروجه من ذلك
المنفذ الضيق وهو رطب العظام سهل الانعطاف والانثناء
فربما تتغير اشكال اعضائه واوضاعها (2) لقرب التكوّن

(1) Man. C. et D. انقطع.

(2) Man. A. et B. اوضاعه واعضائه.

ورطوبة المواد فتتناوله القابلة بالغمر والاصلاح حتى يرجع كل عضو الى شكله الطبيعى ووضعه المقدر له ويرتد خلقه سويتا (ثم) بعد ذلك تراجع النفساء وتحاذيها بالغمر والملاينة لخروج اغشية الجنين لانها ربما تتأخر عن خروجه قليلا ويخشى عند ذلك ان تراجع الماسكة حالها الطبيعية قبل استكمال خروج الاغشية وهى فضلات فتتعفن ويسرى عنفها الى الرحم فيقع الهلاك فتحاذر القابلة هذا وتحاول فى اعانة الدفع الى ان تخرج تلك الاغشية ان كانت قد تأخرت ثم ترجع الى المولود فتخرج اعضاءه بالادهان والذبور القابضة لشدّها وتجفف رطوبات الرحم وتحنكه لرفع لهاته ونسعطه لاستفراغ بطون دماغه وتغرغره باللعوق لدفع السدد من معاه وتجويفها عن الالتصاق ثم تداوى النفساء بعد ذلك من الوهن الذى اصابها بالطلق وما لحق رحمها من الم لانفصال اذ المولود وان لم يكن عضوا طبيعيا فحالة التكوين فى الرحم صيرته بالالتحام كالعضو المتصل فلذلك كان فى انفصاله الم يقرب من الم القطع وتداوى مع ذلك ما باحق الفرج من جراحة التمزيق عند الضغط فى الخروج وهذه كلها ادواء نجد هولاء القوابل ابصر بدوائها وكذلك ما يعرض للمولود مدة الرضاع من ادواء فى بدنه الى حين الفصال نجدهن ابصر بها من الطبيب الماهر وما ذاك

ألا لان بدن الانسان فى تلك الحالة أنما هو بدن انسانى بالقوة فقط فاذا جاوز الفصال صار بدنا انسانيا بالفعل فكانت حاجته حينئذ الى الطبيب اشدّ فهذه الصناعة كما تراه ضرورية فى العمران للنوع الانسانى لا يتمّ كون اشخاصه فى الغالب دونها وقد يعرض لبعض اشخاص النوع الاستغناء عن هذه الصناعة أما بخلق الله ذلك لهم معجزة وخرقا للعادة كما فى حق الانبياء صلعم او بالهام وهداية يلهم لها المولود ويفطر عليها فيتمّ وجودهم من دون هذه الصناعة (فاما) شأن المعجزة من ذلك فقد وقع كثيرا ومنه ما روى ان النبى صلعم ولد محتونا مسرورا واضعا يديه على الارض شاخصا ببصره الى السماء وكذلك شأن عيسى فى المهد وغير ذلك (وامّا شأن الالهام فلا ينكر واذا كانت الحيوانات العجم تختصّ بغرائب من الالهامات كالنحل وغيرها فما ظنك بالانسان المفضل عليها وخصوصا من اختصّ بكرامة الله (ثم) الالهام العام للمولودين فى الاقبال على التدبى من اوضح شاهد على وجود الالهام لهم فشأن العناية الالهية اعظم من ان يحاط به ومن هنا يفهم بطلان رأى الفارابى وحكماء الاندلس فيما احتجوا به لعدم انقراض الانواع واستحالة انقطاع المكوّنات وخصوصا فى النوع الانسانى وقالوا لو انقطعت اشخاصه لاستحال وجودها بعد

ذلك لتوقفه على وجود هذه الصناعة التي لا يتم كون الانسان الا بها اذ لو قدرنا مولودا دون هذه الصناعة وكفالتها الى حين الانفصال لم يتم بقاؤه اصلا ووجود الصنائع دون الفكر ممتنع لانها ثمرته وتابعة له وتكلف ابن سينا في الرد على هذا الراى لمخالفته اياه وذهابه الى امكان انقطاع الانواع وخراب عالم التكوين ثم عوده ثانية لاقتضات فلكية وارضوع غريبة تندرج في الاحقاب بزعمه فتقتضى تخمير طينة مناسبة لمزاجه بحرارة مناسبة فيتم كونه انسانا ثم يقبض له حيوان يخلق فيه الالهام لتربيته والحنو عليه الى ان يتم وجوده وفصاله واطنب فى بيان ذلك فى الرسالة التى سماها برسالة حى بن يقطان وهذا الاستدلال غير صحيح وان كنا نوافقه على انقطاع الانواع لكن من غير ما استدلل به فان دليله مبنى على استناد الافعال الى العلة الموجبة ودليل القول بالفاعل المختار يرد عليه ولا واسطة على القول بالفاعل المختار بين الافعال والقدرة القديمة ولا حاجة الى هذا التكلف ثم لو سلمناه جدلا فغاية ما بنى عليه اطراد وجود هذا الشخص بخلق الالهام لتربيته فى الحيوان الاعجم وما الضرورة الداعية لذلك واذا كان الالهام يخلق فى الحيوانات العجم فما المانع من خلقه للمولود نفسه كما قررناه اولا وخلق الالهام فى شخص

لمصالح نفسه اقرب من خلقه فيه لمصالح غيره فكلما
المذهبين شاهدان على انفسهما بالبطلان فى مناحيهما
لها قررتك لك والله الخلاق العليم

فصل فى صناعة الطب وأنها محتاج إليها فى الحواضر
والامصار دون البادية

هذه الصناعة ضرورية فى المدن والامصار لما عرف من
فائدتها فان ثمرتها حفظ الصحة للاصحاء ودفع المرض عن
المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من ادوائهم واعلم
ان اصل الامراض كلها انما هو من الاغذية كما قال صلعم
فى الحديث الجامع للطب كما ينقل بين اهل الصناعة
وان طعن فيه العلماء وهو قوله المعدة بيت الداء والحمية
رأس الدواء واصل كل داء البردة فاما قوله المعدة بيت
الداء فظاهر واما قوله الحمية رأس الدواء فالحمية الجوع
وهو الاحتشاء عن الطعام والمعنى ان الجوع هو الدواء العظيم
الذى هو اصل الادوية واما قوله اصل كل داء البردة فمعنى
البردة ادخال الطعام على الطعام فى المعدة قبل ان يتم هضم
الاول (وشرح) هذا ان الله سبحانه وتعالى خلق الانسان
وحفظ حياته بالغذاء يستعمله بالاكل وينفذ فيه القوى
الهاضمة والغاذية الى ان يصير دما ملأئما لاجزاء البدن من

اللحم والعظم ثم تأخذ النامية فينقلب لحما وعظما ومعنى
 الهضم طبخ الغذاء بالحرارة الغريزية طورا بعد طور حتى
 يصير خراء بالفعل من البدن وتفسيره ان الغذاء اذا حصل
 فى الفم ولاكتته الاشداق أثرت فيه حرارة الفم طبخا يسيرا
 وقلبت مزاجه بعض الشئ كما تراه فى اللقمة اذا تناولتها
 طعاما ثم اجدها مضغا فترى مزاجها غير مزاج
 الطعام ثم يحصل فى المعدة فتطبخه حرارة المعدة الى
 ان يصير كيموسا وهو صفوة (1) ذلك المطبوع وترسله الى
 الكبد وترسل ما يرسب منه فى المعاء ثفلا ينفذ الى
 المخرجين ثم تطبخ حرارة الكبد ذلك الكيموس الى ان
 يصير دما غبيطا وتطفو عليه رغو من الطبخ هى الصفراء
 وترسب منه اجزاء يابسة هى السوداء ويقصر الحار الغريزى
 بعض الشئ عن طبخ الغليظ منه فهو البلغم ثم ترسلها
 الكبد كلها فى العروق والجداول وبأخذها طبخ الحار
 الغريزى هنالك فتكون عن الدم الخالص بخار حار رطب
 يمد الروح الحيوانى وتأخذ النامية مأخذها فى الدم فيكون
 لحما ثم غليظة عظما ثم يرسل البدن ما يفضل عن حاجته
 من ذلك فضلات مختلفة من العرق واللعاب والمخاط
 والدمع هذه صورة الغذاء وخروجه من القوة الى الفعل لحما

(1) Man. C. et D. صفو.

ثم ان اصل الامراض ومعظمها هي الحميات وسببها ان الحار الغريزي قد يضعف عن تهام النضج في طبخه في كل طور من هذه فيبقى ذلك الغذاء دون نضج وسببه غالبا كثرة الغذاء في المعدة حتى يكون اغلب على الحار الغريزي او ادخال الطعام الى المعدة قبل ان يستوفى طبخه الاول فيشتغل به الحار الغريزي ويترك الاول بحاله او يتوزع عليها فيقصر عن تمام الطبخ والنضج وترسله المعدة كذلك الى الكبد فلا تقوى حرارة الكبد ايضا على انضاجه وربما بقى في الكبد من الغذاء السابق فضلة غير ناضجة ويرسل الكبد جميع ذلك الى العروق غير ناضج كما هو فاذا اخذ البدن حاجته الملائمة ارسله مع الفضلات الاخرى من العرق والدمع واللعب ان اقتدر على ذلك وربما يعجز عن الكثير منه فيبقى في العروق والكبد والمعدة ويتزائد مع الايام وكل ذى رطوبة من الممتزجات اذا لم ياخذ الطبخ والنضج تعفن فيتعفن ذلك الغذاء غير الناضج وهو المسمى بالخلط وكل منعقن فيه حرارة غريبة وتلك هي الهسامة في بدن الانسان بالحمى واعتبر ذلك في الطعام اذا تركت حتى يتعفن وفي الزبل اذا تعفن كيف تنبعث فيه الحرارة وتأخذ مأخذها فهذا معنى الحميات في الابدان وهي راس الامراض واصلها كما وقع في الحديث ولهذه

الحميات علاجات بقطع الغذاء عن المريض اسابيع معلومة
ثم تناوله الاغذية الملائمة حتى يتم برؤه وكذلك فى حال
الصحة له علاج فى التحفظ من هذا المرض وغيره وقد يكون
ذلك التعفن فى عضو مخصوص فيتولد عنه مرض فى
ذلك العضو او تحدث جراحات فى البدن اما فى
الاعضاء الرئيسة او فى غيرها وقد يمرض العضو ويحدث
عنه مرض القوى الموجودة له هذه كلها جماع الامراض
واصلها فى الغالب من الاغذية (وهذا) كله مدفوع الى
الطبيب ووقع هذه الامراض فى اهل الحضرة والامصار اكثر
لخصب عيشهم وكثرة ماكلهم وقلة اقتصارهم على نوع
واحد من الاغذية وعدم توفيتهم لتناولها وكثرة ما يخلطون
بالاغذية من التوابل والبقول والفواكه رطبا ويابسا فى سبيل
العلاج بالطبخ ولا يقتصرون فى ذلك على نوع ولا انواع
فربما عددنا فى اللون الواحد من الوان الطبخ اربعين نوعا
من النبات والحيوان فيصير للغذاء مزاج غريب وربما يكون
بعيدا عن ملائمة البدن واجزائه (ثم) ان الاهوية فى الامصار
تفسد بمخالطة الابخرة العفنة من كثرة الفضلات والاهوية
منشطة الارواح ومقوية بنشاطها لاثار الحار الغريزي فى
الهضوم ثم الرياضة مفقودة لاهل لامصار اذ هم فى الغالب
وادعون ساكنون لا تاخذ منهم الرياضة شأ ولا تؤثر اثر

فكان وقوع الامراض كثيرا في المدن والامصار وعلى قدر وقوعه كانت حاجتهم الى هذه الصناعة (فاما) اهل البدو فاكلهم قليل في الغالب والجوع اغلب عليهم لقلة الحبوب حتى صار ذلك لهم عادة وربما يظن انها جبلة لاستمرارها ثم لادم قليلة لديهم او مفقودة بالجملة وعلاج الطبخ بالتوابل والفواكه اتما يدعو اليه ترف الحضارة الذي هم عنه بمعزل فيتناولون اغذيتهم بسيطة بعيدة عما يخالطها ويغرب مزاجها من ملاتمة البدن واما اهوتهم فقليلة العفن لقلة الرطوبات والعفونات ان كانوا اهليين او لاختلاف الاهوية ان كانوا طواعن ثم ان الرياضة موجودة فيهم من كثرة الحركة في ركض الخيل او الصيد او طلب الحاجات او مهنة انفسهم في حاجاتهم فيحسن بذلك الهضم كله ويجود ويفقد ادخال الطعام على الطعام فتكون امزجتهم اصلح وابتعد عن الامراض فتقل حاجتهم الى الطب ولهذا لا يوجد الطبيب في البادية بوجه وما ذاك الا للاستغناء عنه اذ لو احتيج اليه لوجد لانه يكون له بذلك في البدو معاش يدعو الى سكناه ستة الله في عباده ولن تجد لسته الله تبديلا

فصل فى ان الخطّ والكتابة من عداد الصنائع الانسانية

وهو رسوم واشكال حرفيّة تدلّ على الكلمات المسموعة الدالّة على ما فى النفس فهونانى رتبة عن الدلالة اللغويّة وهو صناعة شريفة اذ الكتابة من خواصّ الانسان التى يتميّز بها عن الحيوان وايضا فهى تطلع على ما فى الضمائر وتتأدّى بها الاغراض الى البلد البعيد فتقضى الحاجات وقد دفعت مؤنة المباشرة لها ويطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الاولين وما كتبوه فى علومهم واخبارهم فهى شريفة بجميع هذه الوجوه والمنافع وخروجها فى الانسان من القوة الى الفعل اتّما يكون بالتعليم وعلى قدر الاجتماع والعمران والتناغى (١) فى الكمالات والطلب لذلك تكون جودة الخطّ فى المدينة اذ هو من جملة الصنائع وقد قدّمنا ان هذا شأنها وانها تابعة للعمران ولهذا نجد اكثر البدو اقبطين لا يقرؤون ولا يكتبون ومن قرأ منهم او كتب فيكون خطّه قاصرا وقرآنه غير نافذة ونجد تعليم الخطّ فى الامصار الخارج عمرانها عن الحدّ ابلغ واسهل واحسن طريقا لاستحكام الصبغة (٢) فيها كما يحكى لنا عن مصر لهذا العهد وان بها معلّمين منتصبين لتعليم الخطّ يلقون على المتعلّم قوانين واحكاما فى وضع كل حرف ويزيدون الى ذلك

(١) Man. D. التناهى.

(٢) Man. D. الصبغة.

الباشرة بتعليم وضعه فتعصّد لديه رتبة العلم والحسن فى التعليم وتأتى ملكته على اتم الوجوه وأنما اتى هذا من كمال الصنائع ووفورها بكثرة العمران وانفساح الاعمال وليس الشأن فى تعليم الخط بالاندلس والمغرب كذلك فى تعلّم كل حرف بانفراده على قوانين يلقيها المعلم للمتعلّم وأنها يتعلّم بمحاكاة الخط من كتابة الكلمات جملة ويكون ذلك من المتعلّم ومطالعة المعلم له الى ان يحصل له الاجادة ويتمكن فى بنائه الملكة فيسمى مجيدا (وقد) كان الخط العربى بالغاً مبالغه من الاحكام والانقاف والجودة فى دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والثرف وهو المسمى بالخط الحميرى وانتقل منهم الى الحيرة لما كان بها من دولة آل المندرساء التبابعة فى العصبية والمجديدين لملك العرب بارض العراق ولم يكن الخط عندهم من الاجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين فكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها فاصرة عن ذلك ومن الحيرة لقنه اهل الطائف وقريش فيما ذكر (يقال) ان الذى تعلّم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن امية وقيل حرب بن امية واخذها من اسلم بن سدرّة وهو قول ممكن واقرب ممّن ذهب الى انهم تعلّموها من اياد اهل العراق لقول شاعرهم

قوم لهم ساحة العراق اذا ساروا جميعا والخط والقلم

وهو قول بعيد لان اياها ولو نزلوا ساحة العراق فلم يزلوا على شأنهم من البداوة والخط من الصنائع الحضريّة وآتيا معنى قول الشاعر انهم اقرب الى الخط والعلم من غيرهم من العرب لقربهم من ساحة الامصار وضواحيها فالقول بان اهل الحجاز آتيا لقنوها من الحيرة ولقنها اهل الحيرة من التبابعة والحمير هو الاثيق من الاقوال (ورایت) في كتاب التكملة (١) لابن الابار عند التعريف بابن فروخ القيرواني الفارسي الاندلسي من اصحاب مالك رضي الله عنه واسمه عبد الله بن فروخ بن عبد الرحمن بن زياد بن انعم عن ابيه قال قلت لعبد الله بن عباس يا معشر قريش خبروني عن هذا الكتاب العربي هل كنتم تكتبونه قبل ان يبعث الله محمدا صلعم تجمعون منه ما اجتمع وتفرقون منه ما افترق مثل الالف واللام والهم والنون قال نعم قلت وممن اخذتموه قال من حرب بن امية قلت وممن اخذه حرب قال من عبد الله بن جدعان قلت وممن اخذه عبد الله بن جدعان قال من اهل الانبار قلت وممن اخذه اهل الانبار قال من طارطا عليهم من اهل اليمن قلت وممن اخذه ذلك الطاري قال من الخلاجان بن القسم كانت الوحي لهود النبي صلعم وهو الذي يقول

(١) التكملة. Man. A.

افى كل عام سنة تحدثونها وراى على غير الطريق يعبر
وللموت خير من حياة نسبنا بها جرحهم فيمن يسب وجير

انتهى ما نقله ابن الابار فى كتاب التكملة (1) وزاد فى
آخرة حدثنى لذلك ابو بكر بن ابى حميرة (2) فى كتابه
عن ابى بحر بن العاصى عن ابى الوليد الوقشى عن ابى
عمر الظلمنى بن ابى عبد الله بن مفرح ومن خطّه نقلته
عن ابى سعيد بن يونس عن محمد بن موسى بن النعمان
عن يحيى بن محمد بن حشيش بن عمر بن ايوب الهافرقى
التونسى عن بهلول بن عبيدة الحمى عن عبد الله بن
فروخ انتهى (وكان) لحمير كتابة تسمى المسند حروفها
منفصلة وكانوا يمنعون من تعليمها الا باذنهم ومن حمير
تعلمت مضر الكتابة العربية الا انهم لم يكونوا مجيدين لها
شان الصنائع اذا وقعت بالبدو فلا تكون محكمة المذاهب
ولا مائلة الى الاتقان والتنميق لبون ما بين البدو والصناعة
واستغناء البدو عنها فى الاكثر فكانت كتابة العرب
بدوية مثل او قريبة من كتابتهم لهذا العهد او نقول ان
كتابتهم لهذا العهد احسن صناعة لان هؤلاء اقرب الى
الحصارة ومخالطة الامصار والدول (واما مضر) فكانوا اعرق
فى البدو وابتعد عن الحضر من اهل اليمن والشام ومصر

(1) Man. A. التكملة.

(2) Man. A. حرة.

واهل العراق وكان الخطّ العربى لاول الاسلام غير بالغ الى
 الغاية من الاحكام والانتقان والاجادة ولا الى التوسط لهكان
 العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع وانظر ما
 وقع لاجل ذلك فى رسم المصحف حيث كتبه الصحابة
 بخطوطهم وكانت غير مستحكمة فى الاجادة فخالق الكثير
 من رسومهم ما اقتضته اقيسة رسوم صناعة الخطّ عند اهلها
 ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبرّكا بها رسمه
 اصحاب رسول الله صلعم وخير الخلق من بعده المتلقون
 لوحيه من كتاب الله وكلامه كما يقتضى لهذا العهد خطّ
 ولى او عالم تبرّكا ويتبع رسمه خطاء او صوابا واين نسبة
 ذلك من الصحابة وما كتبه فاتبع ذلك واثبت رسما
 ونبه العلماء بالرسم على مواضع ولا تلتفتن فى ذلك الى
 ما يزعمه بعض المغفلين من انهم كانوا محكمين لصناعة الخطّ
 وان ما يتخيّل ومن مخالفة خطوطهم لاصول الرسم ليس
 كما يتخيّل بل لكلها وجه ويقولون فى مثل زيادة الالف
 فى لا اذبحه انه تنبيه على ان الذبح لم يقع وفى زيادة
 الباء فى قوله بأبيد انه تنبيه على كمال القدرة الربانية
 وامثال ذلك ممّا لا اصل له الا التحكم المحض وما حملهم على
 ذلك الا اعتقادهم ان فى ذلك تنزيها للصحابة عن
 نوهم النقص فى قلة اجادة الخطّ وحسبوا ان ذلك الخطّ

كمال فنزّهوهم عن نقصه ونسبوا اليهم الكمال باجادته وطبوا
تعليل ما خالف الاجادة من رسمه وذلك ليس بصحيح
(واعلم) ان الخطّ ليس بكمال فى حقهم اذ الخطّ من جملة
الصنائع الهندية المعاشية كما رأيت فيها مّر والكمال فى الصنائع
اضافى وليس بكمال مطلق اذ لا يعود نقصه على الذات فى
الدين ولا فى الخلل وانما يعود على اسباب المعاش وبحسب
ال عمران والتعاون عليه لاجل دلالة على ما فى النفوس وقد
كان النبى صلعم اميا وكان ذلك كمالا فى حقه وبالنسبة
الى مقامه وتنزّهه عن الصنائع العملية التى هى اسباب
المعاش وال عمران كلها وليست الامية كمالا فى حقنا نحن
اذ هو منقطع الى ربه ونحن متعاونون على الحياة الدنيا
شأن الصنائع كلها حتى العلوم الاصطلاحية فان الكمال فى
حقه هو تنزّهه جملة بخلافنا (ثم) لما جاء الملك للعرب
وفتحوا الامصار وملكوا الممالك ونزلوا البصرة والكوفة
واحتاجت الدولة الى الكتاب استعمالوا الخطّ وطلبوا صناعته
وتعلّموه وتداولوه فترقت (1) الاجادة فيه واستحكم وبلغ فى
الكوفة والبصرة رتبة من الاتقان الا انها كانت دون الغاية
والخطّ الكوفى معروف الرسم لهذا العهد ثم انشرت العرب
فى الاقطار والممالك وافتتحوا افريقية والاندلس واحتطّ بنو

(1) Man. B. et D. فتفرقت.

العباس بغداد وترقت الخطوط فيها الى الغاية لها استبحرت
 فى العيران وكانت دار الاسلام ومركز الدولة العربية وخالفت
 اوضاع الخط ببغداد اوضاعه بالكوفة فى الليل الى اجادة الرسوم
 وجهال الرنق وحسن الرواء واستحكمت هذه المخالفة فى
 الاعصار الى ان رفع رايته ببغداد على بن مقله الوزير ثم
 تلاه فى ذلك على بن هلال الكاتب الشهير بابن البواب
 ووقف سند تعليمها عليه فى الهاية المألثة وما بعدها وبعدت
 رسوم الخط البغدادى واوضاعه عن الكوفة حتى انتهى الى
 الهبانية ثم ازدادت المخالفة بعد تلك العصور بنفث الجهابذة
 فى احكام رسومه واوضاعه حتى انتهت الى المتأخرين مثل
 ياقوت والولى على العجمى ووقف سند تعليم الخط عليهم
 وانتقل ذلك الى مصر وخالفت طريقة العراق بعض
 الشئ ولقنها العجم هنالك فظهرت مخالفة لخط اهل مصر
 او مبانة (وكان) الخط الافريقى المعروف رسمه القديم لهذا
 العهد يقرب من اوضاع الخط المشرقى وتحيّز ملك
 الاندلس بالامويين فتميزوا باحوالهم من الحضارة والصنائع
 والخطوط فتميز صنف خطهم الاندلسى كها هو معروف
 الرسم وطما بحر العيران والحضارة فى الدول الاسلامية فى
 كل قطر وعظم الملك ونفقت اسواق العلوم وانتسخت
 الكتب واجيد كتبها وتحليدها وملئت بها القصور والخزائن

الملوكية بها لا كفاء له وتنافس اهل الاقطار فى ذلك
وتناغوا فيه (ثم) لها انحلال نظام الدولة للاسلامية وتناقضت
تناقض ذلك اجمع ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة
فانتقل شأنها من الخط والكتاب بل والعلم الى مصر
والقاهرة فلم تنزل اسواقه بها نافقة لهذا العهد وللخط بها
معلمون يرسون للتعلم الحروف بقوانين فى وضعها واشكالها
متعارفة بينهم فلا يلبث المتعلم او يحكم اشكال تلك الحروف
على تلك الاوضاع وقد لقنها حسا وحذق فيها دربة وكتابتا
واخذها قوانين عليّة فتجى احسن ما يكون (واما
اهل الاندلس) فافترقوا فى الاقطار عند تلاشى ملك العرب
بها ومن خلفهم من البربر وتعلبت عليهم امم النصرانية
فانتشروا فى عدوة المغرب وافريقية من لدن الدولة
المتونية الى هذا العهد وشاركوا اهل العمران بما لديهم
من الصنائع وتعلقوا باذيال الدولة فغلب خطهم على الخط
الاfricanى وعفا عليه ونسى خط القيروان والمهدية بنسيان
عوائدهما وصنائعهما وصارت خطوط اهل افريقية كلها على الرسم
الاندلسى بتونس وما اليها لتوفر اهل الاندلس بها عند الجالية من
شرق الاندلس وبقي منه رسم ببلاد الجريد الذين لم يخالطوا
كتاب الاندلس ولا تلمسوا بجوارهم اذ انما كانوا يقدرّون (1)

(1) Man. C. et D. يغرون.

على دار الملك بتونس فصار خط اهل افريقية من جنس خطوط اهل الاندلس حتى اذا تقلص ظل الدولة اليهودية بعض الشيء وتراجع امر الحضارة والترف بتراجع العمران نقص حينئذ حال الخط وفسدت رسومه وجعل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقض العمران وبقيت فيه آثار الخط الاندلسي تشهد بما كان لهم من ذلك لما قدمناه من ان الصنائع اذا رسخت بالحضارة فيعسر محوها (1) (وحصل) في دولة بنى مرين بعد ذلك بالمغرب الأقصى لون من الخط الاندلسي لقرب جوارهم وسقوط من خرج منهم الى فاس قريبا واستعمالهم اياهم سائر الدولة ونسى عهد الخط فيما بعد عن سدة الملك وداره كان لم يعرف فصارت الخطوط بافريقية والمغربيين مائلة الى الرداءة بعيدة عن الجودة وصارت الكتب ان انتسخت فلا فائدة تحصل لمتصفحها منها الا الغناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الاشكال الخطية عن الجودة حتى لا تكاد تقرا الا بعد عسر ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول والله يحكم لا معقب لحكمه وللاستاذ ابي الحسن على بن هلال الكاتب البغدادي الشهير بابن البواب قصيدة من بحر البسيط على روى الرءاء

(1) Man. A. et B. رفعها.

يذكر فيها صناعة الخط وموادها من احسن ما كتب في
لكل رايث اثباتها في هذا الكتاب من هذا الباب
ليستفيع بها من يريد تعلم هذه الصناعة واولها

يا من يريد اعادة التحرير
ان كان عزمك في الكتابة صادقا
اعدد من الاقلام كل مشقفي
واذا عهدت لبريه فتوخه
انظر الى طرفيه فاجعل بريه
واجعل لجلفته قواما عادلا
والشق وسطه لبقى بريه
حتى اذا اتقنت ذلك كله
فاصرف لراى القط عزمك كله
لا تطمعن في ان ابوح بسره
لكس جملة ما اقول بانه
والق دوانك بالدخان مدبرا
واصف اليه مغرة قد صولت
حتى اذا ما خمرت فاعمد الى
فاكبسه بعد القطع بالمعصار كى
ثم اجعل التهيل دابك صابرا
ابدا به في اللوح منتصيا له
لا تخجل من الردى تخطه
فالامر يصعب ثم يرجع هينا
حتى اذا ادركت ما املتته
فاشكر الهك واتبع رضوانه
وارغب لكفك ان تخط بنانها
فجيع فعل المرء يلقاه غدا

ويروم حسن الخط والتصوير
فارغب الى مولاك في التيسير
صلب يصوغ صناعة التحرير
عند القياس باوسط التقدير
من جانب التدقيق والتخصير
لا بخلو عن التطويل والتقصير
من جانيبه مشاكل التقدير
اتقان طب بالمراد خبير
فالقط فيه جملة التدبير
اتى اصن بسرة المستور
ما بين تحريرى الى تدوير
بالخمل وبالحصر المعصور
مع اصفر الزربنج والكافور
الورق النقى الناعم المخبر
ينأى عن التشيعث والتفسير
ما ادرك المامول مثل صبور
عزما تجرده عن التشهير
في اول التهيل والتسطير
ولرب سهل جاء بعد عسير
اصحيت رب مسرة وحبور
ان لاله يجيب كل شكور
خييرا تخلفه بدار غرور
عند التقاء كتابه المنشور

(واعلم) ان الخطّ بيان عن القول والكلام كما ان القول والكلام بيان عمّا فى النفس والضمير من المعانى فلا بدّ لكل منهما ان يكون واضح الدلالة قال الله تعالى خلق الانسان علمه البيان وهو يشتمل بيان الادلّة كلها فالخطّ المجود كماله ان تكون دلالتة واضحة بابانة حروفه المتواضعة واجادة وضعها ورسها كل واحد على حدة متبيّز عن الاخر الا ما اصطاح عليه الكتاب من ايصال حرف الكلمة الواحدة بعضها ببعض سوى حروف اصطاحوا على قطعها مثل الالف المتقدمة فى الكلمة وكذا الراء والزاي والذال وغيرها بخلاف ما اذا كانت متاخّرة وهكذا الى آخرها ثم ان المتاخّرين من الكتاب اصطاحوا على وصل كلمات بعضها ببعض وحذف حروف معروفة عندهم لا يعرفها الا اهل مصطلحهم فتستعجم على غيرهم وهؤلاء كتاب دواوين السلطان وسجلات القضاة كانهم انفردوا بهذا الاصطلاح عن غيرهم لكثرة موارد الكتابة عليهم وشهرة كتابتهم واحاطة كثير من دونهم بمصطلحهم فان كتبوا ذلك لمن لا خبرة له بمصطلحهم فينبغى ان يعدلوا عن ذلك الى البيان ما استطاعوه والا كان بيثابة الخطّ الاعجميّ لانتهاها بمنزلة واحدة فى عدم التواضع عليه وليس بعذر فى هذا القدر الا كتاب الاعمال السلطانيّة فى الاموال والجيوش لانهم مطلوبون

بكتمان ذلك عن الناس فانه من الاسرار السلطانية التى
يجب اخفاؤها فيبالغون؛ فى رسم اصطلاح خاص بهم ويصير
بمثابة المعنى وهو الاصطلاح على العبارة عن الحروف
بكلمات من اسماء الطيب والفواكه والطيور او الازهار ووضع
اشكال اخرى غير اشكال الحروف المتعارفة يصطلح عليها
المتخاطبون لتأدية ما فى ضمائرهم بالكتابة ورتبها وضع
الكتاب للعثور على ذلك وان لم يضعوه اولا قوانين
بمقائيس استخراجها لذلك يهداركهم يستونها فك المعنى
وللناس فى ذلك دواوين مشهورة والله العليم الحكيم

فصل فى صناعة الوراقة

كانت العناية قديما بالدواوين العلمية والسجلات فى
سخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط وكان سبب
ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة وقد
ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدول وتناقص
العمران بعد ان كان منه فى الملة الاسلامية بحر زاهر بالعراق
ولاندلس اذ هو كله من توابع العمران واتساع نطاق الدول
ونفاق اسواق ذلك لديها فكثرت التواليف العلمية
والدواوين وحرص الناس على تناقلها فى الآفاق والاعصار
فانتسخت وجلدت وجاءت صناعة الوراقين المعانيين

لانتساح والتصحيح والتجليد وسائر امور الكتب والدواوين واختصت بالانصار العظيمة العمران وكانت السجلات اولا لانتساح العلوم وكتب الرسائل السلطانية ولاقطاعات والصكوك في الرقوق الهيئة بالصناعة من الجلد لكثرة الرغد وقلة التواليف صدر الهلة كما نذكره وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك فاقصروا على الكتاب في الرق تشريفا للكتوبات وميلا بها الى الصحة والانقان ثم طما بحر التواليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرق عن ذلك فاشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغذ وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه واتخذها الناس من بعده صحفا لمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الاجادة فى صناعته ما شاءت (ثم) وقفت عناية اهل العلوم وهم اهل الدول على ضبط الدواوين العلمية وتصحيحها بالرواية المسندة الى مؤلفيها وواضعيها لانه الشأن الاهم من التصحيح والضبط فبذلك تسند الاقوال الى قائلها والفتيا الى الحاكم بها المجتهد فى طريق استنباطها وما لم يكن تصحيح المتن باسنادها الى مدونيتها فلا يصح اسناد قول لهم ولا فتيا وهكذا كان شأن اهل العلم وحملته فى العصور والاجيال والآفاق حتى لقد قصرت فائدة الصناعة الحديثية فى الرواية على هذه فقط اذ ثمرتها الكبرى من

معرفة صحيح الأحاديث وحسنها ومسندها ومرسلها ومقطوعها وموقوفها من موضوعها قد ذهبت وتمحضت زبدة ذلك في الاتّهمات المتلقاة بالقبول عند الأئمة وصار القصد الى ذلك لغوا من العمل ولم يبق نمرة الرواية والاشتغال بها الا في صحيح تلك الاتّهمات الحديثية وسواها من كتب الفقه للفتيا وغير ذلك من الدواوين والتواليف العلمية واتّصال سندها بمولفها ليصحّ النقل عنهم والاسناد اليهم وكانت هذه الرسوم بالمشرق والأندلس معيدة الطرق واضحة المسالك ولقد تجد الدواوين المنتسخة لذلك العهد في اقطارهم على غاية من الاتقان والصحة ومنها لهذا العهد بايدي الناس في العالم اصول عتيقة تشهد ببلوغ الغاية لهم في ذلك واهل الآفاق يتناقلونها الى الآن ويشدون عليها يد الضمانة ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جملة بالمغرب واهله لانقطاع صناعة الخط والصبط والرواية منه بانتقاص عمرانه وبداءة اهله وصارت الاتّهمات والدواوين تنتسخ بالخطوط البدوية ينسخها طلبة البربر صحائف مستعجمة برداءة الخط وكثرة الفساد والتصحيف فتستغلق على متصفّحها ولا يحصل منها فائدة الا في الاقلّ النادر (وايضا) فقد دخل الخلل من ذلك في الفتيا فان غالب الاقوال المعزوة غير مروية عن ائمة الازهر واما تتلقى من تلك الدواوين

على ما هي عليه وتبع ذلك ايضا ما يتصدى اليه بعض
أئمتهم من التأليف لقلّة بصرهم بصناعته وعدم الصنائع
الوافية بمقاصده ولم يبق من هذا الرسم الا اثاره بالاندلس
خفية بالامحاض وهي على الاضحلال فقد كاد العلم ان ينقطع
بالكلية من المغرب والله غالب على امره وبلغنا لهذا
العهد ان صناعة الرواية قائمة بالمشرق وتصحيح الدواوين
لمن يرومه بذلك سهل على مبتغيه لنفاق اسواق العلوم
والصنائع كما ذكره بعد الا ان الخط الذي بقى من الاجادة
فى الاستنساخ هنالك انما هو للعجم وفى خطوطهم واما
النسخ بصر ففسد كما فسد بالمغرب واشد والله غالب
على امره

فصل فى صناعة الغناء

هذه الصناعة هي تلحين الاشعار الموزونة بنقطيع الاصوات
على نسب منتظمة معروفة توقع على كل صوت منها
توقيعا عند قطعه فتكون نغمة ثم تؤلف تلك النغم
بعضها الى بعض على نسب متعارفة فيلذّ سماعها لاجل
التناسب وما يحدث عنه من الكيفية فى تلك الاصوات
وذلك انه تبين فى علم الموسيقى ان الاصوات
تناسب فيكون صوت نصى صوت وربع اخر وخميس
اخر وجزء من احد عشر من اخر واختلاف هذه النسب

عند تأديتها الى السمع يخرجها عن البساطة الى التركيب وليس كل تركيب منها ملذوذا عند السمع بل تراكيب خاصة هي التي حصرها اهل علم الموسيقى وتكلموا عليها كما هو مذكور في موضعه وقد يساق ذلك التالحين في النغمات الغنائية بتقطيع اصوات اخرى من الجمادات اما بالقرع او النفخ في آلات تتخذ لذلك فتزيدها لذّة عند السمع فمنها لهذا العهد بالمغرب اصناف منها المزمار يستونه الشباب وهي قصبة جوفاء بابخاش في جوانبها معدودة ينفخ فيها فتصوت ويخرج الصوت من جوفها على سداة من تلك الابخاش ويقطع الصوت بوضع الاصابع من اليدين جميعا على تلك الابخاش وضعا متعارفا حتى تحدث النسب بين الاصوات فيه وتتصل كذلك متناسبة فيلتذّ السمع بادراكها للتناسب الذي ذكرناه ومن جنس هذه الآلة آلة الزمر التي تسمّى الزلامي وهي شكل القصبة منحوتة الجانبين من الخشب جوفاء من غير تدوير لاجل ائتلافها من قطعتين منفودة كذلك بابخاش معدودة ينفخ فيها بقصبة صغيرة نوصل فينفذ النفخ بواسطتها اليها وتصوت بنغمة حادة ويجرى فيها من تقطيع الاصوات من تلك الابخاش بالاصابع مثل ما يجري في الشبابة ومن احسن آلات الزمر لهذا العهد البوق وهو بوق من نحاس اجوف في مقدار

الذراع يتسع الى ان يكون انفراج مخرجه في مقدار دور الكف على شكل برى القلم وينفخ فيه بقصبة صغيرة تودى الريح من الفم اليه فيخرج الصوت ثخيناً دوتاً وفيه الخشاش ايضاً معدودة وتقطع نغمة منها كذلك بالاصابع على التناسب فيكون ملذوداً ومنها الآت الاوتار وهي جوفاء كلها اما على شكل قطعة من الكرة كالربط والرباب او على شكل مربع كالقانون توضع الاوتار على بسائطها مشدودة في راسها الى دساتر جائلة لينتأى رخوها عند الحاجة اليها بادارتها ثم تقرع الاوتار اما بعود او بوتر مشدود بين طرفى قوس يمر عليها بعد ان يطلى بالشمع والكندر ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد في امراره او بنقله من وتر الى وتر واليد اليسرى مع ذلك في جميع الآت الاوتار توقع باصابعها على اطراف الاوتار فيما يقرع او يحك بالوتر فتحدث الاصوات متناسبة ملذودة (وقد يكون القرع فى الطسوت بالقضبان او فى الاعواد بعضها ببعض على توقيع متناسب يحدث عنه التذاذ بالمسموع ولنبين لك السبب فى اللذة الناشئة عن الغناء وذلك ان اللذة كما تقرر فى موضعه هى ادراك الملائم والمحسوس انما تدرك منه كيفة فاذا كانت مناسبة للمدرك وملائمة كانت ملذودة واذا كانت منافية له منافرة له كانت مؤلمة فالملائم من الطعوم ما ناسبت

كيفية حساسة الذوق في مزاجها وكذا الملائم من الملموسات وفي الروائح ما ناسب مزاج الروح القلبى البخارى لانه المدرك واليه تؤديه الحاسة ولهذا كانت الرياحين والازهار العطريات احسن رائحة واشد ملائمة للروح لغلبة الحرارة فيها التى هى مزاج الروح القلبى واما المربيات والمسهوعات فاللائم فيها تناسب الاوضاع فى اشكالها وكيفياتها فهو انسب عند النفس واشد ملائمة لها فاذا كان المرئ متناسبا فى اشكاله وتخطيطه التى له بحسب مادته بحيث لا يخرج عما تقتضيه مادته الخاصة من كمال المناسبة والوضع وذلك هو معنى الجمال والحسن فى كل مدرك كان ذلك حينئذ مناسبا للنفس المدركة فتلذذ بادراك ملائمتها (1) ولهذا نجد العاشقين المستهترين (2) فى المحبة يعبرون عن غاية محبتهم وعشقهم بامتزاج ارواحهم بروح المحبوب ومعناه من وجه اخر ان الوجود يشرك بين الموجودات كما يقوله الحكماء فتود ان تمتزج بما شهدت فيه الكمال لتتحد به (ولما) كان انسب الاشياء الى الانسان واقربها الى مدرك الكمال فى تناسب موضوعها هو شكله الانسانى فكان ادراكه للجمال والحسن فى تخطيطه واصوانه من المدارك التى هى اقرب الى فطرته فيلهمج كل انسان بالحسن فى

(1) Man. A. et B. ملائمتها.

(2) Man. A. et B. المستهترين.

الهرى أو المسموع بمقتضى الفطرة والحسن فى المسموع
 أن تكون الاصوات متناسبة لا متنافرة وذلك أن الاصوات
 لها كصفات من الهمس والجهر والرخاوة والشدة والقلقلة
 والضغط وغير ذلك والتناسب فيها هو الذى يوجب لها
 الحسن فاولا أن لا يخرج من الصوت الى صده دفعة بل
 بتدرىج ثم يرجع كذلك وكذلك الى الهل بل لا بد
 من توسط المغائر بين الصوتين وتامل هذا من استقباح
 اهل اللسان التراكيب من الحروف المتنافرة او المتقاربة
 المخارج فانه من بابه وثانيا تناسبها بالاجزاء كما مر اول
 الباب فيخرج من الصوت الى نصفه او ثلثه او جزء من كذا
 منه على حسب ما يكون التنقل مناسبا على ما حصره اهل
 صناعة الموسيقى فاذا كانت الاصوات على تناسب فى
 الكيفيات كما ذكره اهل تلك الصناعة كانت ملائمة ملذودة
 (ومن) هذا التناسب ما يكون بسيطا ويكون الكثير من
 الناس مطبوعين عليه لا يحتاجون فيه الى تعليم ولا صناعة
 كما نجد المطبوعين على الموازين الشعرية وتوقيع الرقص
 وامثال ذلك وتسمى العامة هذه القابلية بالمضمار وكثير من
 القراء بهذه المثابة يقرؤون القرآن فيجيدون فى تلاحين اصوانهم
 كأنها الهزامير فيطربون بحسن مساقهم وتناسب نغماتهم
 ومن هذا التناسب ما يحدث بالتركيب وليس كل الناس

يستوى في معرفته ولا كل الطبائع توافق صاحبها في العمل به اذا علم وهذا هو التلحين الذى يتكفل به علم الموسيقى كما نشرحه بعد ذكر العلوم (وقد) انكر مالك رضى الله عنه القراءة بالتلحين واجازها الشافعى رضى الله عنه وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعى فانه لا ينبغى ان يختلف فى حطره اذ صناعة الغناء مبأنة للقران لان القراءة والاداء يحتاج الى مقدار من الصوت يتعين اداء الحروف به من حيث اشباع الحركات فى مواضعها ومقدار المد عند من يطيله او يقصره وامثال ذلك والتلحين ايضا يتعين له مقدار من الصوت لا يتم الا به من اجل التناسب الذى قلناه فى حقيقة التلحين فاعتبار احدهما قد يخل بالآخر اذا تعارضا وتقديم التلاوة متعين فرارا من تغيير الرواية المنقولة فى القران (1) فلا يمكن اجتماع التلحين والاداء المعتبر فى القران بوجه وانها المراد من اختلافهم التلحين البسيط الذى يهتدى اليه صاحب المصمار بطبعه كما قدمناه فيردّد اصواته ترديدا على نسب يدركها العالم بالغناء وغيره هذا هو محل الخلاف والظاهر تنزيه القران عن هذا كما ذهب اليه الامام رحمه الله لان القران هو محل خشوع بذكر الموت وما بعده وليس مقام التذاذ بادراك الحسن من الاصوات وهكذا

(1) Man. A. et B. ٣ القرأ.

كانت قراءة الصحابة كما فى اخبارهم (فاما) قوله صلعم
لقد اوتى زميلا من زمير آل داود فليس المراد به التريـد
والتلحين وانما معناه حسن الصوت واداء القراءة والابانة فى
مخارج الحروف والنطق بها واذا قد ذكرنا معنى الغناء
(فاعلم) انه يحدث فى العمران اذ توفر وتجاوز حد الضرورى
الى الحاجى ثم الى الكمالى وتفتنوا فيه فتحدث هذه
الصناعة لانها لا يستدعيها الا من فرغ عن جميع حاجاته
الضرورية والمهمة من العاش والمنزل وغيره فلا يطلبها
الا الفارغون عن سائر احوالهم تفتنوا فى مذاهب المـلذوات
(وكان) فى سلطان العجم قبل الملة منها بحمر زاهر فى
امصارهم ومدنهم وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به
حتى لقد كان لملوك الفرس اهتمام باهل هذه الصناعة ولهم
مكان من دولتهم وكانوا يحضرون مشاهدهم ومجامعهم
وبغنون فيها وهذا شأن العجم لهذا العهد فى كل اقل من
افاقهم ومملكة من ممالكهم (واما العرب) فكان لهم اولا فن
الشعر يؤلفون فيه الكلام اجزاء متساوية على تناسب بينها
فى عدة حروفها المتحركة والساكنة ويفصلون الكلام فى تلك
الاجزاء تفصيلا يكون كل جزء منها مستقلا بالافادة لا ينعطف
على الآخر ويسمونه البيت فيلائم الطبع بالتجزئة اولائهم
بتناسب الاجزاء فى المقاطع والمبادئ ثم بتادية المعنى

المقصود وتطبيق الكلام عليه فلهجوا به وامتاز من بين كلامهم بحظ من الشرف ليس لغيره لاجل اختصاصه بهذا التناسب وجعلوه ديوانا لآخبارهم وحكمهم وشرفهم ومحكما لقرائهم في اصابة المعاني واجادة الاساليب واستمروا على ذلك وهذا التناسب الذى من اجل الاجزاء والمتحرك والساكن من الحروف قطرة من بحر من تناسب الاصوات كما هو معروف فى كتاب الموسيقى الا انهم لم يشعروا بما سواه لانهم حينئذ لم يتحلوا علما ولا عرفوا صناعة وكانت البداءة اغلب محلهم (ثم) تغنى الحداء منهم فى حياء ابلهم والفتيان فى قضاء خلواتهم فرجعوا الاصوات وترنموا وكانوا يستمّون الترنم اذا كان بالشعر غناء واذا كان بالتهليل او نوع القراءة تغييرا بالغين المعجمة والباء الموحدة وعللها ابو اسحق الزجاج بانها تذكر بالغابر وهو الباقي اى باحوال الآخرة وربما ناسبوا فى غنائهم بين النغمات مناسبة كما ذكره ابن رشيق فى آخر كتاب العمدة وغيره وكانوا يستمّونه السناد وكان اكثر ما يكون منهم فى الخفيف الذى برقص عليه ويهشى بالدق والهزمار فيطرب ويستخف الحلوم وكانوا يستمّون هذا الهزج وهذا البسيط كله من الثلاثين هو من اوائلها ولا يبعد ان يتفطن له الطباع من غير تعليم شأن البسائط كلها من الصنائع ولم يزل هذا شأن

العرب فى بداوتهم وجاهليتهم (فلما) جاء الاسلام واستولوا على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم وغلّبوهم عليه وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التى عرفت لهم مع غضاضة (1) الدين وشدته فى ترك احوال الفراغ وما ليس بنافع فى دين ولا معاش فهجر ذلك شأ ما ولم يكن الملهوذ عندهم الا ترجيع القراءة (2) والترنم بالشعر الذى كان ديدنهم ومذهبهم فلما جاء الترف وغلّب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الامم صاروا الى نصارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ (وافترق) المغتّون من الفرس والروم فوقعوا الى الحجاز وصاروا موالى للعرب وغنّوا جميعا بالعيّدان والطنابير والمعازف والمزامير وسمع العرب تلحينهم الاصوات فاحنوا عليها اشعارهم وظهر بالمدينة نشيط الفارسى وطويس وسائب خائرمولى عبد الله بن جعفر فسمعوا شعر العرب ولحنوه واجادوا فيه وطار لهم ذكر ثم اخذ عنهم معبد وطبقته وابن شريح وانظاره وما زالت صناعة الغناء تتدرج الى ان كهلت ايام بنى العباس عند ابراهيم بن المهدي وابراهيم الموصلى وابنه اسحق وابنه حماد وكان من ذلك فى دولتهم ببغداد ما تبعه الحديث به وبمجالسه (3) لهذا العهد وامعنوا فى اللهو واللعب واتخذت الآت الرقص فى الملبس

(1) Man. D. عصارة. C. عصارة. (2) Man. A. et B. القرآن. (3) Man. D. بحالسه.

والقضبان والاشعار التي يترنم بها عليه وجعل صنفا وحده
 واتخذت الآت اخرى للرقص تسمى بالكرج (1) وهي تماثيل
 خيل مسرجة من الخشب معلقة باطراف اقبية تلبسها
 النسوان ويحاكون بها امتطاء الخيل فيكروون ويفقروون ويتشاقفون
 وامثال ذلك من اللعب المعدة للولائم والاعراس وايام
 الاعياد ومجالس الفراغ واللهو وكثر ذلك ببغداد وامصار
 العراق وانتشر منها فيما سواها (وكان) للموصليين غلام
 اسمه زرياب اخذ عنهم الغناء فاجاد فصرفوه الى المغرب
 غيره به فالحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل
 امير الاندلس فبالغ في تكريمته وركب للقائه واسنى له
 الجوائز والاقطاعات والجراريات واحله من دولته وندمائه
 بمكان فاورث بالاندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه الى
 ازمان الطوائف وطما منها باشبيلية بمر زاهر وتناقل منها
 بعد ذهاب غضارتها الى بلاد العدو بافريقية والمغرب وانقسم الى
 امصارها وبها الآن منها صباية على تراجع عمرانها وتناقص
 دولها وهذه الصناعة آخر ما يحصل في العمران من الصنائع
 لاتها كمالية في غير وظيفة من الوظائف الا وظيفة الفراغ
 والفرح وهي ايضا اول ما ينقطع من العمران عند اختلاله
 وتراجعه والله الخلاق

1) Man D الكرج

فصل فى ان الصنائع تكسب صاحبها عقلا وخصوصا الكتابة والحساب

وقد ذكرنا فى الكتاب ان النفس الناطقة للانسان انما توجد فيه بالقوة وان خروجها من القوة الى الفعل انما هو بتجدد العلوم والادراكات من المحسوسات اولاً ثم ما يكتسب بعدها بالقوة النظرية الى ان يصير ادراكها بالفعل وعقلا محصيا فتكون ذاتا روحانية وتستكمل حينئذ وجودها فوجب لذلك ان يكون كل نوع من العلم والنظر يفيدها عقلا مزيدا والصنائع ابدا يحصل عنها وعن ملكتها قانون علمي مستفاد من تلك الملكة فلها كانت الحنكة فى التجربة تفيد عقلا والملكات الصناعية تفيد عقلا والحصارة الكاملة تفيد عقلا لانها مجتمعة من صنائع فى شأن تدبير المنزل ومعاشرة ابناء الجنس وتحصيل الآداب فى مخالطتهم ثم القيام بامور الدين واعتبار آدابها وشرائطها وهذه كلها قوانين تنتظم علومها فتحصل منها زيادة عقل (والكتابة) من بين الصنائع اكثر افادة (1) لذلك لانها تشمل على علوم وانظار بخلاف الصنائع وبيانه ان فى الكتابة انتقالا من صور الحروف الخطية الى الكلمات اللفظية فى الخيال ومن الكلمات اللفظية فى الخيال الى المعانى التى فى

(1) Man. A. et B. فائدة.

النفس فهو ينتقل ابدا من دليل الى دليل ما دام ملتبسا
 بالكتابة وتعود النفس ذلك دائما فيحصل لها ملكة
 الانتقال من الأدلة الى المدلولات وهو معنى النظر العقلي
 الذى يكتسب به العلوم المجهولة فتكتسب بذلك ملكة
 من التعقل تكون زيادة عقل ويحصل به مزيد فطنة وكيس فى
 الأمور بما تعودوه من ذلك الانتقال وكذلك قال كسرى
 فى كتابه لما رآهم بتلك الفطنة والكيس فقال ديوانه
 اى شياطين وجنون قالوا وذلك اصل اشتقاق الديوان
 لاهل الكتابة ويلحق بذلك الحساب فان فى صناعة
 الحساب نوع تصرف فى العدد بالضم والتفريق يحتاج فيه
 الى استدلال كبير فيبقى متعودا للاستدلال والنظر وهو معنى
 العقل والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شأ وجعل
 لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون

الفصل السادس من الكتاب الاول فى العلوم واصنافها
 والتعليم وطرقه وما يعرض فى ذلك كله من الاحوال
 وفيه مقدمة ولواحق

(فالمقدمة) فى الفكر الانسانى الذى تميز به البشر عن
 الحيوانات واهتدى به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بابناء

جنسه والنظر في معبوده وما جاءت به الرسل من عنده
فصار جميع الحيوانات في طاعته وملكت قدرته وفضله
به على كثير خلقه

فصل في الفكر الانساني

(اعلم) ان الله سبحانه وتعالى مميّز البشر عن سائر الحيوانات
بالفكر الذي جعله مبداء كماله ونهاية فضله على الكائنات
وشرفه وذلك ان الادراك وهو شعور المدرك في ذاته
بما هو خارج عن ذاته هو خاص بالحيوان فقط من بين سائر
الكائنات والموجودات فالحيوانات تشعر بما هو خارج عن
ذاتها بما ركب الله فيها من الحواس الظاهرة (السمع والبصر
والشم والذوق واللمس) ويزيد الانسان من بينها انه يدرك
الخارج عن ذاته بالفكر الذي وراء حسه وذلك بقوى
جعلت له في بطن دماغه ينتزع بها صور المحسوسات
ويجول بذهنه فيها فيجترّد منها صورا اخرى والفكر هو
التصرّف في تلك الصور وراء الحس وجولان الذهن فيها
بالانتزاع والتركيب وهو معنى الافئدة في قوله تعالى جعل
لكم السمع والابصار والافئدة والافئدة جمع فؤاد وهو هنا الفكر
وهو على مراتب (الاولى) تعقل الامور المرتبة في الخارج
ترتيبها طبيعيا او وضعيا ليقصد ايقاعها بقدرته وهذا الفكر اكثر

تصوّرات وهو العقل التمييزيّ الذى يحصل منافع ومعايشه ويدفع مضارّه (الثانية) الفكر الذى يفيد به الآراء والآداب فى معاملة أبناء جنسه وسياستهم وأكثرها تصديقات تحصل بالتجربة شئاً شئاً الى ان تتم الفائدة منها وهذا هو المسهّى بالعقل التجريبى (الثالثة) الفكر الذى يفيد العلم او الظن بمطلوب وراء الحس لا يتعلّق به عمل فهذا هو العقل النظرى وهو تصوّرات وتصديقات تنتظم انتظاماً خاصاً على شروط خاصّة يفيد معلوماً آخر من جنسها فى التصوّر او التصديق ثم ينتظم مع غيره يفيد علوماً آخر كذلك وغاية افادته تصوّر الوجود على ما هو عليه باجناسه وفصوله واسبابه وعمله فيكمل بالفكر بذلك فى حقيقته ويصير عقلاً محضاً ونفساً مدركة وهو معنى الحقيقة الانسانية

فصل فى ان عالم الحوادث الفعلية أنها يتم بالفكر

اعلم ان عالم الكائنات يشتمل على ذوات محضة كالعناصر وأثارها والمكونات الثلاثة عنها التى هى المعدن والنبات والحيوان وهذه كلها متعلّقات القدرة الالهية وعلى افعال صادرة عن الحيوانات واقعة بمقصودها متعلّقة بالقدرة التى جعل الله لها عليها فمنها منتظم مرتّب وهى الافعال البشرية ومنها غير منتظم ولا مرتّب وهى افعال الحيوانات غير البشر

وذلك الفكر يدرك الترتيب بين الحوادث بالطبع او
 بالوضع فاذا قصد ايجاد شئ من الاشياء فلاجل الترتيب
 بين الحوادث لا بد من التفطن بسببه او علته او شرطه وهي
 على الجملة مبادئه اذ لا يوجد الا ثانيا عنها ولا يمكن
 ايقاع المتقدم متأخرا ولا المتأخر متقدما وذلك المبدأ قد
 يكون له مبدأ آخر من تلك المبادئ لا يوجد الا متأخرا عنه
 وقد يرتقى ذلك او ينتهى فاذا انتهى الى آخر المبادئ
 فى مرتبتين او ثلاث او ازيد وشرع فى العمل الذى يوجد
 به ذلك الشئ بدأ بالمبدأ الاخير التى انتهى اليه الفكر
 فكان اول عمله ثم تابع ما بعده الى آخر المسببات التى
 كانت اول فكرته مثلا لو فكر فى ايجاد سقف يكتنه انتقل
 بذهنه الى الحائط الذى يدعمه ثم الى الاساس الذى يقف
 عليه الحائط فهو آخر الفكر ثم يبدأ فى العمل بالاساس ثم
 بالحائط ثم بالسقف وهو آخر العمل (وهذا) معنى قولهم اول
 العمل آخر الفكرة واول الفكرة آخر العمل فلا يتم فعل الانسان
 فى الخارج الا بالفكر فى هذه المراتب لتوقف بعضها على
 بعض ثم يشرع فى فعلها واول هذا الفكر هو المسبب الاخير
 وهو آخرها فى العمل واولها فى العمل هو المسبب الاول وهو
 آخرها فى الفكر ولجل العثور على هذا الترتيب يحصل
 الانتظام فى الافعال البشرية (واما الافعال) الحيوانية لغير

البشر فليس فيها انتظام لعدم الفكر الذى يعثر به الفاعل على الترتيب فيما يفعل اذ الحيوانات انما تدرك بالحواس ومدركاتها متفرقة حليّة من الربط لانه لا يكون الا بالفكر ولما كانت الحواس المعبرة فى عالم الكائنات هى المنتظمة وغير المنتظمة انما هى تبع لها اندرجت حينئذ افعال الحيوانات فيها فكانت مستخرة للبشر واستولت افعال البشر على عالم الاحداث بما فيه فكان كله فى طاعته ونسخره وهذا معنى الاستخلاف المشار اليه فى قوله تعالى آتى جاعل فى الارض خليفة فهذا الفكر هو النخاسة البشرية التى تميز بها البشر عن غيره من الحيوان وعلى قدر حصول الاسباب والمسببات فى الفكر مرنية تكون انسانيته فمن الناس من تتوالى له السببية فى مرتبتين او ثلاث ومنهم من لا يتجاوزها ومنهم من ينتهى الى خمس او ست فتكون انسانيته اعلا واعتبر ذلك بلاعب الشطرنج فان فى اللاعبين من يتصور الثلاث حركات والخمس الذى ترتيبها وضعى ومنهم من يقصر عن ذلك لقصور ذهنه وان كان هذا المثال غير مطابق لان لعب الشطرنج بالملكة ومعرفة الاسباب والمسببات بالطبع لكنه مثال يحتذى به الناظر فى تعقل ما يورد عليه من القواعد والله خلق الانسان وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا

فصل فى العقل التجريبي وكيفية حدوثه

أنتك تسمع فى كتب الحكماء قولهم ان الانسان هو مدنى
الطبع يذكرونه فى اثبات النبوات وغيرها والنسبة فيه الى المدينة
وهى عندهم كناية عن الاجتماع البشرى ومعنى هذا القول
انه لا تمكن حياة المنفرد من البشر ولا يتم وجوده الا مع
ابناء جنسه وذلك لما هو عليه من العجز عن استكمال
وجوده وحياته فهو محتاج الى المعاونة فى جميع حاجاته
ابدا بطبعه وتلك المعاونة لا بد فيها من المفاوضة اولاً ثم
المشاركة وما بعدها وربما تفضى المعاملة عند اتحاد الاعراض
الى المنازعة والمشاجرة فتنشأ المنافرة والهولفة والصدقة
والعداوة ويؤل الى الحرب والسلم بين الامم والقبائل وليس
ذلك اى على وجه اتفق كما بين الهمل من الحيوانات
بل للبشر بما جعل الله فيهم من انتظام الافعال وترتيبها
بالفكر كما تقدم جعل منتظماً فيهم ويسرهم لايقاعه
على وجوه سياسية وقوانين حكيمية ينكبون فيها عن المفساد
الى المصالح وعن الحسن الى القبيح بعد ان يميزوا القبائح
والمفسدة بما ينشأ عن الفعل من ذلك عن تجربة صحيحة
وعوائد معروفة بينهم فيفارقون الهمل من الحيوان وتظهر
عليهم نتيجة الفكر فى انتظام الافعال وبعدها عن المفساد

(هذه) المعانى التى يحصل بها ذلك لا تبعد عن الحس كل البعد ولا يتعقّق فيها الناظر بل كلّها تدرك بالتجربة وبها يستفاد لانها معانى جزئية تتعلّق بالمحسوسات وصدقها وكذبها يظهر قريبا فى الواقع فيستفيد طالبها حصول العلم بها من ذلك ويستفيد كل واحد من البشر القدر الذى يسر له منها مقتنصا له بالتجربة بين الواقع فى معاملة ابناء جنسه حتى يتعيّن له ما يجب وينبغى فعلا وتركها وتحصل فى ملابسة الملكة فى معاملة ابناء جنسه ومن تتبّع ذلك سائر عمره حصل له العثور على كل قضية قضية ولا بدّ بها تسعه التجربة من الزمن وقد يسهل الله على كثير من البشر تحصيل ذلك فى اقرب من زمن التجربة اذا قلّد فيها الآباء والمشيخة والاكابر ولقن عنهم وورّع تعليمهم فيستغنى عن طول المعاناة فى تتبّع الوقائع واقتناص هذا المعنى من بينها ومن فقد العلم فى ذلك والتقليد فيه او اعرض عن حسن استماعه واتباعه طال عناؤه فى التأديب بذلك فيجرى فى غير مألوف ويدركها على غير نسبة فتوجد آدابه ومعاملاته سيئة الاوضاع بادية الخلل ويفسد حاله فى معاشه بين ابناء جنسه وهذا معنى القول المشهور من لم يؤدّب والده آدبه الزمان اى من لم يلقن الآداب فى معاملة البشر من والديه وفى معانها المشيخة والاكابر

ويتعلم ذلك منهم رجع الى تعلمه بالطبع من الواقعات على توالى الايام فيكون الزمان معلّمه ومؤدّبه لضرورة ذلك بضرورة المعاونة التي فى طبعه (وهذا) هو العقل التجريبيّ وهو يحصل بعد العقل التمييزيّ الذى يقع به الافعال كما بيّناه وبعد هذين مرتبة العقل النظرى الذى تكفل بتفسيره اهل العلوم فلا يحتاج الى تفسيره فى هذا الكتاب والله جعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون

فصل فى علوم البشر وعلوم الملائكة

انا نشهد فى انفسنا بالوجدان الصحيح وجود ثلاثة عوالم (اولها) عالم الحسّ ونعتبره بمدارك الحسّ الذى شاركنا فيه الحيوانات بالادراك (ثم) نعتبر الفكر الذى اختصّ به البشر فنعلم منه وجود النفس الانسانية علما ضرورياً بها بين جنبينا من مداركها العلمية التى هى فوق مدارك الحسّ فتراه عالماً اخر فوق عالم الحسّ (ثم) نستدلّ على عالم ثالث فوقنا بما نجد فينا من آثاره التى تلقى فى افئدتنا كالارادات والوجهات نحو الحركات الفعلية فنعلم ان هناك فاعلا يبعثنا عليها من عالم فوق عالمنا وهو عالم الارواح والملائكة وفيه ذوات مدركة لوجود آثارها فينا مع ما بيننا وبينها من المغايرة وربّها يستدلّ على هذا العالم

الاعلى الروحاني وذواته بالروياء وما نجد في النوم ويلقى
الينا فيه من الامور التي نحن في غفلة عنها في اليقظة
وتطابق الواقع في الصحيحة منها فنعلم انها حق ومن
عالم الحق واما اضغاث الاحلام فصور خيالية يخزنها الادراك
في الباطن ويجول فيها الفكر بعد الغيبة عن الحس ولا نجد
على هذا العالم الروحاني بزهانا اوضح من هذا فنعلمه
كذلك على الجملة ولا ندرك له تفصيلا (وما يزعمه)
الحكماء الالهيون في تفصيل ذواته وترتيبها المسماة
عندهم بالعقول فليس شيء من ذلك بيقيني لاختلال شرط
البرهان النظري فيه كما هو مقرر في كلامهم في المنطق
لان من شرطه ان تكون قضاياه اولية ذاتية وهذه الذوات
الروحانية مجهولة الذاتيات فلا سبيل للبرهان فيها ولا يبقى
لنا مدرك في تفاصيل هذه العوالم الا ما نقتبس من الشرعيات
التي يوضحها الايمان ويحكمها واقعد هذه العوالم في مدركنا
عالم البشر لانه وجداني مشهود في مداركنا الجسمانية
والروحانية ويشترك في عالم الحس مع الحيوانات وفي
عالم العقل والارواح مع الهلائكة الذين ذواتهم من جنس
ذواته وهي ذوات مجردة عن الجسمانية والمادة وعقل
صرف يتحد فيه العقل والعقل والمعقول وكانه ذات حقيقها
الادراك والعقل فعلومهم حاصلة دائما مطابقة بالطبع

للمعلوماتهم لا يقع فيها خلل البتة (وعلم) البشر هو حصول صورة المعلوم في ذواتهم بعد ان لا تكون حاصلة فهو كله مكتسب والذات التي يحصل فيها صور المعلومات وهي النفس مادة هيولانية تلبس صور الوجود بصور المعلومات الحاصلة فيها شأ شأ حتى تستكمل ويصح وجودها بالموت في مادتها وصورتها فالمطلوبات فيها مترددة بين النفي والاثبات دائما بطلب احدهما بالوسط الرابط بين الطرفين فاذا حصل وصار معلوما افتقر الى بيان المطابقة وربما اوضحها البرهان الصناعي لكنه من وراء الحجاب وليس كالمعاينة التي في علوم الهلانة وقد ينكشف ذلك الحجاب فيصير الى المطابقة بالعيان الادراكى فقد تبين ان البشر جاهل بالطبع للتردد الذي في علمه وعالمه بالكسب والصناعة لتحصيله المطلوب بفكره بالشروط الصناعية وكشف الحجاب الذي اشرنا اليه انما هو بالرياضة بالاذكار التي افضلها صلاة انتهى عن الفحشاء والمنكر وبالنزعة عن المتناولات المهمة ورأسها الصوم وبالوجهة الى الله بجميع قواه والله علم الانسان ما لم يعلم

فصل في علوم الانبياء عليهم الصلاة والسلام

انا نجد هذا الصنف من البشر تغريهم حالة الهبة خارجة عن

منازع البشر واحوالهم فتغلب الوجهة الربانية فيهم على البشرية في القوى الادراكية والنزوعية من الشهوة والغضب وسائر الاحوال البدنية فتجدهم متنزهين عن الاحوال البشرية الا في الضرورات منها مقبلين على الاحوال الربانية من العبادة والذكر لله بما تقتضى معرفتهم به مخبرين عنه بما يوحي اليهم في تلك الحالة من هداية الامة على طريقة واحدة وسنن معهود منهم لا يتبدل فيهم كانه جبلة فطرهم الله عليها وقد تقدم لنا الكلام في الوحي اول الكتاب في فصل المدركين للغيب وبيّنا هنالك ان الوجود كله في عوالمه البسيطة والمركبة على ترتيب طبيعى من اعلاها واسفلها متصلة كلها اتصالا لا ينحرم وان الذوات التى فى آخر كل افق من العوالم مستعدة لان تنقلب الى الذات التى نجاورها من الاسفل والاعلا استعدادا طبيعيا كما فى العناصر الجسمانية البسيطة وكما هو فى النخل والكرم من آخر افق النبات مع الحلزون والصدف من افق الحيوان وكما فى القردة التى استجمع فيها الكيس والادراك مع الانسان صاحب الفكر والروية وهذا الاستعداد الذى فى جانبى كل افق من العوالم هو معنى الاتصال فيها (فوق) العالم البشرى عالم روحانى شهدت لنا به الآثار التى فىنا منه بما يعطينا من قوى الادراك

والارادة فذوات ذلك العالم ادراك صرف وتعقل محص
وهو عالم الملائكة (فوجب) من ذلك كله ان يكون
للفس الانسانية استعداد للانسلاخ من البشرية الى الملكية
لتصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الاوقات وفى
لمحة من اللحات ثم تراجع بشريتها وقد تلقت فى
عالم الملكية ما كلفت بتبليغه الى ابناء جنسها من البشر
وهذا هو معنى الوحي وخطاب الملائكة والانبياء كلهم
مفطورون عليه كانه جبلة لهم ويعالجون فى ذلك الانسلاخ
من الشدة والغيط ما هو معروف عنهم وعلومهم فى تلك
الحالة علم شهادة وعيان لا يلحقه الخطأ والزلل ولا يقع فيه
الغلط والوهم بل المطابقة فيه ذاتية لزوال حجاب الغيب
وحصول الشهادة الواضحة عند مفارقة هذه الحالة الى
البشرية لا يفارق علمهم الوضع استصحابا له من تلك
الحالة الاولى ولها هم عليه من الذكاء المفضى بهم اليها
يردد ذلك فيهم دائما الى ان تكمل هداية الامة التى
بعثوا لها كما فى قوله تعالى انما انا بشر مثلكم يوحى الى
انما الحكم اله واحد فاستقيوا اليه واستغفروه فانهم ذلك
وراجع ما قدمناه لك اول الكتاب فى اصناف الهدركين
للغيب يتضح لك شرحه وبيانه فقد بسطناه هنالك
بسطا شافيا والله الموفق

فصل فى ان الانسان جاهل بالذات عالم بالكسب

قد بيّنا اول هذه الفصول ان الانسان من جنس الحيوانات وان الله تعالى ميّزه عنها بالفكر الذى جعل له يوقع به افعاله على انتظام وهو العقل التمييزى او يقتصر به العلم بالآراء والمصالح والمفاسد من ابناء جنسه وهو العقل التجريبيّ او يحصل به فى تصوّر الموجودات غائبا وشاهدا على ما هى عليه وهو العقل النظرى وهذا الفكر انما يحصل له بعد كمال الحيوانية فيه ويبدأ من التمييز فهو قبل التمييز خلو من العلم بالجملة معدود من الحيوانات لاحق بمبدأه فى الكوين من النطفة والعلقة والمضغة وما حصل له بعد ذلك فهو بما جعل الله له من مدارك الحس والافئدة التى هى الفكر قال تعالى فى الامتنان علينا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة فهو فى الحالة الاولى قبل التمييز هيولا فقط لجهله بجميع المعارف ثم تستكمل صورته بالعلم الذى يكتسبه بالآتة فكمّل ذاته الانسانية فى وجودها وانظر الى قوله تعالى مبدأ الوحي على نبيه اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم اى اكسبه من العلم ما لم يكن حاصلًا له بعد ان كان علقة ومضغة فقد كشفت

لنا طبيعته وذاته ما هو عليه من الجهل الذاتى والعلم
الكسبى واشارت اليه الآية الكريمة تقرر فيه الامتنان عليه
باول مراتب وجوده وهى الانسانية وحالناه الفطرية والكسبية
فى اول التنزيل ومبدأ الوحي وكان الله عليهما حكيما

فصل فى ان تعليم العلم من جملة الصنائع

وذلك ان الحذق فى العلم واليقين فيه والاستيلاء عليه
انما هو بحصول ملكة فى الاحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف
على مسائله واستنباط فروعه من اصوله وما لم تحصل هذه
الملكة لم يكن الحذق فى ذلك الفن حاصلا وهذه الملكة
هى غير الفهم والوعى لاننا نجد فهم المسئلة الواحدة من
الفن الواحد مشتركا بين من شدا فى ذلك الفن ومن هو مبتدئ
فيه وبين العامى الذى لم يحصل علما وبين العالم التحرير
والملكة انما هى للعالم والشاى فى الفنون دون من
سواهما فدل على ان هذه الملكة غير الفهم (والملكات) كلها
جسمانية وسواء كانت فى البدن او فى الدماغ من الفكر
وغيره كالحساب والجمانيات كلها محسوسة فتفتقر الى
التعليم ولهذا كان السند فى التعليم فى كل علم او صناعة
يفتقر الى مشاهير المعلمين فيها معتبرا عند اهل كل افق
وجيل ويدل ايضا على ان تعليم العلم صناعة اختلاف

الاصطلاحات فيه فلكلّ امام من الائمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به شأن الصنائع كلها فدلّ على ان ذلك الاصطلاح ليس من العلم اذ لو كان من العلم لكان واحدا عند جميعهم لا ترى الى علم الكلام كيف تخالف في تعليمه اصطلاح المتقدمين والمتأخرين وكذا اصول الفقه وكذا العربية والفقه وكذا كل علم يحتاج (1) الى مطالعته تجد الاصطلاحات في تعليمه متخالفة فدلّ على انها صناعات في التعليم والعلم واحد في نفسه واذا تقرر ذلك (فاعلم) ان سند العلم لهذا العهد قد كاد ان ينقطع عن اهل المغرب كلهم باختلال عمرانهم وناقص الدول فيه وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها كما مرّ وذلك ان القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والاندلس واستبحر عمرانها وكان فيهما للعلوم والصنائع اسواق نافقة وبحور زاخرة ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما وما كان فيهما من الحضارة فلما خربتا انقطع التعليم عن المغرب الا قليلا كان في اول دولة الموحدين بهراكش مستفاد منهما ولم ترسخ الحضارة بهراكش لبداءة الدولة الموحدية في اولها وقرب انقراضها بمبدئها فلم تتصل احوال الحضارة فيها الا في الاقل وبعد انقراض الدولة بهراكش ارتحل الى

(1) Man. C. et D. يتوجه.

المشرق من افریقیة القاضی ابو القاسم بن زیتون لعهد
 واسط الہایة السابعة فادرک تلمیذ الامام ابن الخطیب
 واخذ عنهم ولقن تعلیمهم وحذق فی العقلیات والنقلیات
 ورجع الی تونس بعلم کثیر وتعلیم حسن وجاء علی اثره
 من المشرق ابو عبد الله ابن شعیب الذکالی کان ارتحل
 الیه من المغرب فاخذ عنہ مشیخة مصر ورجع الی تونس
 واستقر بها وكان تعلیمه مفیداً فاخذ عنہما اهل تونس واتصل
 سند تعلیمہما فی تلمیذہما جیلاً بعد جیل حتی انتهى الی
 القاضی محمد بن عبد السلام شارح ابن الحاجب وتلمیذہ
 وانتقل من تونس الی تلمسان فی (۱) ابن الامام وتلمیذہ فاند
 قرأ مع ابن عبد السلام علی مشیخة واحدة وفي مجالس باعیانہما
 وتلمیذ ابن عبد السلام بتونس وابن الامام بتلمسان لهذا
 العهد الا انہم من القلة بحيث یخشی انقطاع سندہم (م)
 ارتحل من زاوۃ فی آخر الہایة السابعة ابو علی ناصر الدین
 الہمد الی المشرق وادرک تلمیذ ابی عمرو ابن الحاجب
 واخذ عنهم ولقن تعلیمهم وقرأ مع شہاب الدین القفرافی
 فی (۲) مجالس واحدة وحذق فی العقلیات والنقلیات ورجع
 الی المغرب بعلم کثیر وتعلیم مفید ونزل بجایة واتصل
 سند تعلیمہ فی طلبتہا وربہا انتقل الی تلمسان عمران

(۱) Man. C. فراء D. فی manque.

(۲) Man. C. et D. omettent فی.

الهشد الى تليذه واوطنها وبث طريقتة فيها وتليذه لهذا
العهد ببجاية وتلمسان قليل او اقل من القليل وبقيت فاس
وسائر امارات المغرب خلوا من حسن التعليم من لدن
انقراض تعليم قرطبة والقيروان ولم يتصل سند التعليم فيهم
ففسر عليهم حصول الملكة والحدق في العلوم (وايسر)
طرق هذا الملكة قوة اللسان بالمحاورة والمناظرة في
الهسائل العلمية فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها
فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من اعمارهم في
ملازمة المجالس العلمية سكوفا لا ينطقون ولا بفاوضون
وعنايتهم بالحفظ اكثر من الحاجة ولا يحصلون في طائل
من ملكة التصرف في العلم والتعليم ثم بعد تحصيل من
ترى منهم انه قد حصل تجد ملكته قاصرة في علمه
ان فاض او ناظر او علم وما اناهم القصور الا من قبل
التعليم وانقطاع سنده والا فحفظهم ابلغ من حفظ من سواهم
لمدة عنايتهم به وظنهم انه المقصود من الملكة العلمية
وليس كذلك ومما يشهد بذلك في المغرب ان المدة
المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ستة عشر سنة
وهي بتونس خمس سنين وهذه المدة بالمدارس على المتعارف
هي اقل ما يتأتى فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من
الملكة العلمية او اليأس من تحصيلها فطال امدها بالمغرب

لهذه العصور لاجل عسرها من قلة الجودة في التعليم خاصة
لا مّا سوى ذلك واما اهل الاندلس فذهب رسم التعليم
من بينهم وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين
بها منذ مئتين من السنين ولم يبق من رسم العلم عندهم
الا فنّ العربية والآداب اقتصروا عليه وانحفظ سند تعليمها
بينهم فانحفظ بحفظه (واما) الفقه عندهم فرسم خلو واثربعد
عين (واما) العقليّات فلا اثر ولا عين وما ذاك الا لانقطاع
سند التعليم فيها بتناقص العمران وتغلب العدو على عامتها
الا قليلا بسيف البحر شغلهم بمعاشهم اكثر من شغلهم بما
بعدها والله غالب على امره (واما المشرق) فلم ينقطع سند
التعليم فيه بل اسواقه نافقة وبحوره زاهرة لاتصال العمران
الهوفر واتصال السند فيه وان كانت الامصار العظيمة التي
كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة
الا ان الله قد اдал منها بامصار اعظم من تلك وانتقل
العلم منها الى عراق العجم بخراسان وما وراء النهر من
المشرق ثم الى القاهرة وما اليها من المغرب فلم تنزل
موفورة وعمرانها متصلا وسند التعليم بها قائما (فاهل) المشرق
على الجملة ارسى في صناعة تعليم العلم بل وفي سائر
الصنائع حتى انه ليظن كثير من رحالة اهل المغرب الى
المشرق في طلب العلم ان عقولهم على الجملة اكمل من

عقول اهل المغرب وان نفوسهم الناطقة اكمل بفطرتها من نفوس اهل المغرب ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم فى حقيقة (١) الانسانية لها يرون من كيسهم فى العلوم والصنائع وليس كذلك ولا بين قطر (٢) المشرق والمغرب تفاوت بهذا الهقدار الذى تفاوت فى الحقيقة الواحدة اللهم الا (٣) الاقاليم المنحرفة مثل الاول والسابع فان الامزجة فيها منحرفة والنفوس على نسبتها كما مر وانما الذى فضل به اهل المشرق اهل المغرب فهو ما يحصل فى النفس من آثار الحضارة من العقل المزدك كما تقدم فى الصنائع (ونزبدته) الآن شرحا وتحقيقا وذلك ان الحضرة لهم آداب فى احوالهم من العاش والمسكن والبناء وامور الدين والدنيا وكذلك سائر عاداتهم ومعاملاتهم وجميع تصرفاتهم فلهم فى ذلك آداب يوقف عندها فى جميع ما يتناولونه وبتلبسون (٤) به من اخذ وترك حتى كانتا حدود لا تتعدى وهى مع ذلك صنائع يتلقاها الاخر عن الاول منهم ولا شك ان كل صناعة مترتبة فيرجع منها الى النفس اثر يكسبها عقلا مزيدا تستعد به لقبول صناعة اخرى ويتهيأ به العقل لسرعة الادراك للمعارف (ولقد) يبلغنا فى تعليم الصنائع عن اهل

(١) Man. A. et B الحقيقة.

(٢) Man. D. قطر

(٣) Man. D. ajoute آن.

(٤) Man. D. يرتكبون.

مصر غايات لا تدرك مثل أنهم يعلمون الحمر الانسيّة
والحيوانات العجم من الهاشى والطائر مفردات من الكلام
والافعال يستغرب ندورها ويعجز اهل المغرب عن فهمها فضلا
عن تعليمها وحسن الملكات فى التعليم والصنائع وسائر
الاحوال العادية تزيد الانسان ذكاء فى عقله واضاءة فى فكره
بكثرة الملكات الحاصلة للنفس اذ قدّمنا ان النفس انها تشأ
بالادراكات وما يرجع اليها من الملكات فيزدادون بذلك
كيسا لها يرجع الى النفس من الآثار العلميّة فيظنه العاقل
نعاوناً فى الحقيقة الانسانية وليس كذلك لا ترى الى
الحضر مع اهل البدو كيف يجد الحضري متحلياً بالذكاء
متمتلاً من الكيس حتى ان البدوى ليظنه انه قد فاسد فى
حقيقة انسانيته وعقله وليس كذلك وما ذاك الا لاجادته
من ملكات الصنائع والآداب فى العوائد والاحوال الحضريّة
ما لا يعرفه البدوى فلها امتلاء الحضري من الصنائع
وملكاتها وحسن تعليمها ظن من قصر عن نلك الملكات
انها الكمال فى عقله وان نفوس اهل البدو قاصرة بفطرتها
وجبلتها عن فطرتها وليس كذلك فاتا نجد فى اهل البدو
من هو فى اعلا رتبة من الفهم والكمال فى عقله وفطرنه وانها
الذى ظهر على اهل الحضر من ذلك فهو رونق الصنائع
والتعليم فان لهما آثارا ترجع الى النفس كما قدّمناه وكذا

اهل المشرق لما كانوا فى التعليم والصنائع ارسنهم رتبة واعلا قدما وكان اهل المغرب اقرب الى البداوة لها قدمناه فى الفصل قبل هذا ظن الغفلون فى بادى الراى انه لكمال الانسانية اختصوا به عن اهل المغرب وليس ذلك بصحيح فتفهده والله يزيد فى الخلق ما يشاء

فصل فى ان العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتكظم الحضارة والسبب فى ذلك ان تعليم العلم كما قلناه من جملة الصنائع وقد كنا قدّمنا ان الصنائع انما تكثر فى الامصار وعلى نسبة عمرانها فى الكثرة والقلّة والحضارة والرفى تكون نسبة الصنائع فى الجودة والكثرة لانه امر زائد على المعاش فمتى مضلت اعمال اهل العمران عن معاشهم انصرفت الى ما وراء المعاش من التصرف فى خاصية الانسان وهى العلوم والصنائع ومن تشوّف بفطرته الى العلم ممّن نشأ فى القرى والامصار غير المتهدنة فلا يجد فيها التعليم الذى هو الصنائع لفقدان الصنائع فى اهل البدو كما قدّمناه ولا بدّ له من الرحلة فى طلبه فى الامصار المستبحرة شأن الصنائع فى اهل البدو واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر الاسلام واستوت فيها الحضارة كيف زحرت فيها بحار العلوم وتفتنوا فى

اصطلاحات التعليم واصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى اربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين ولها تناقص عمرانها وابدع سكانها انطوى ذلك البساط جيلة بها عليه وفقد العلم بها والتعليم وانتقل الى غيرها من امصار الاسلام (ونحن) لهذا العهد نرى ان العلم والتعليم انما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما ان عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين فاستحكمت فيها الصنائع وتفتنت ومن جعلتها تعليم العلم (واكد) ذلك فيها وحفظه ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين في دولة الترك من ايام صلاح الدين بن ايوب وهلم جرا وذلك ان امراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق او الولاء ولما يخشى من معاطب الهلك ونكباته فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الاوقاف الهائلة يجعلون فيها شركا لولدهم ينظر عليها او نصيب فيها مع ما فيهم غالبا من الجنوح الى الخير والصلاح والتماس الاجور في المقاصد والانفعال فكثرت الاوقاف لذلك وعظمت الغلات والفوائد وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم منها وارتحل اليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت اسوار العلوم وزخرت بحارها والله يخلق ما يشاء

فصل فى اصناف العلوم الواقعة فى العبران لهذا العهد

اعلم ان العلوم التى يخوض فيها البشر ويتداولونها فى الامصار تحصيلًا وتعليلًا هى على صنفين صنف طبيعى للانسان يهتدى اليه بفكره وصنف نقلى ياخذهُ عن وضعه والاول هى العلوم الحكيمية الفلسفية وهى التى يمكن ان يقف عليها الانسان بطبيعة فكره ويهتدى بمداركه البشرية الى موضوعاتها ومسائلها وانحاء براهينها ووجوه تعليمها حتى يقفه نظره وبحثه على الصواب من الخطاء فيها من حيث هو انسان ذو فكر والثانى هو العلوم النقلية الوضعية وهى كلها مستندة الى الخبر عن الوضع الشرعى ولا مجال فيها للعقل الا فى الحاق الفروع من مسائلها بالاصول لان الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلى بمجرد وضعه فتحتاج الى الالحاق بوجه قياسى الا ان هذا القياس يتفرع عن الخبر بثبوت الحكم فى الاصل وهو نقلى فرجع هذا القياس الى النقل لتفرعه عنه (واصل) هذه العلوم النقلية كلها هى الشرعيات من الكتاب والسنة التى هى مشروعة لنا من الله ورسوله وما يتعلق بذلك من العلوم التى تهينونا للاستفادة منها ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربى الذى هو لسان الملة وبه نزل

القران واصناف هذه العلوم النقلية كثيرة لان المكلف يجب عليه ان يعلم احكام الله المفروضة عليه وعلى ابناء جنسه وهي مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص او الاجماع او باللاحاق فلا بد من النظر فى الكتاب ببيان الفاظه اولا وهذا هو علم التفسير ثم باسناد نقله وروايته الى النبى صلعم الذى جاء به من عند الله واختلاف روايات القراء فى قراءته وهذا هو علم القراءات (ثم) باسناد السنة الى صاحبها والكلام فى الرواة الناقلين لها ومعرفة احوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق باخبارهم ويعمل ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك وهذه هى علوم الحديث (ثم) لا بد فى استنباط هذه الاحكام من اصولها من وجه قانونى بفيده العلم بكيفية هذا الاستنباط وهذا هو علم اصول الفقه وبعد هذه نحصل الثمرة بمعرفة احكام الله فى افعال المكلفين وهذا هو الفقه (ثم) ان التكاليف منها بدنى ومنها قلبى وهو المختص بالامان وما يجب ان يعتقد مما لا يعتقد وهذه هى العقائد الانسانية فى الذات والصفات وامور الحشر والنعيم والعذاب والقدر والحجاج عن هذه بالادلة العقلية هو علم الكلام (ثم) النظر فى القران والحديث لا بد ان تتقدم العلوم اللسانية لانه متوقف عليها وهى اصناف فنها علم (اللغة) وعلم النحو) وعلم (البيان) وعلم (الادب) حسبما نتكلم عليها

كلها وهذه العلوم النقليّة كلها مختصّة بالملة الاسلاميّة واهلها وان كانت كل ملة على الجملة لا بدّ فيها من مثل ذلك فهي مشاركة لها في الجنس البعيد من حيث أنّها العلوم الشرعيّة (1) المنزلة من عند الله تعالى على صاحب الشريعة المبلغ لها واما على الخصوص فمباينة لجميع الملل لانها ناسخة لها وكل ما قبلها من علوم الملل فمهمجرة والنظر فيها محظور فقد نهى الشرع عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن وقال صلعم لا نصّدقوا اهل الكتاب ولا نكذبوهم وفولوا امّا بالذى انزل اليا وانزل اليكم والها والهكم واحد وراى صلعم في يد عمر رضى الله عنه ورقة من التوراة فغضب حتى نبين الغضب في وجهه ثم قال الم اتكم بها بيضاء نقيّة والله لو كان موسى حيّا ما وسعه الا اتباعي (ثم) ان هذه العلوم الشرعيّة النقليّة قد نفخت اسواقها في هذه الملة بما لا مزيد عليه وانتهت فيها مدارك الناظرين الى التي لا فوقها وهذبت الاصطلاحات ونرتبت (2) الفنون فجاءت من وراء الغاية في الحسن والتنميق وكان لكلّ فنّ رجل يرجع اليهم فيه واوضاع يستفاد منها التعليم واحتصّ المشرق من ذلك والمغرب بما هو مشهور منها حسبما نذكره الآن عند تعدد هذه الفنون وقد

(1) Man. A et B رتبت D زينت.

(2) Man. D. et D علوم الشريعة

كسدت لهذا العهد اسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه وانقطاع سند التعليم كما قدّمناه فى الفصل قبله وما ادرى ما فعل الله بالمشرق والظن به نفاق العلم فيه واتصال التعليم فى العلوم وفى سائر الصنائع الضرورية والكهاليتة لكثرة العمران فيه والحضارة ووجود الاعانة لطالب العلم بالجرية من الاوقاف التى اتسعت بها ارزاقها والله مقدر الليل والنهار

علوم القرآن من التفسير والقراءات

القران هو كلام الله المنزل على نبيه المكتوب بين دفتى المصحف وهو متواتر بين الامة الا ان الصحابة روه عن رسول الله صلعم على طرق مختلفة فى بعض الفاظه وكيفيات الحروف فى ادائها وتنوّل ذلك واشتهر الى ان استقرت منها سبع طرق معينة نوانر (1) نقلها ايضا بادائها واختصت بالانتساب الى من اشتهر بروايتها من الجسم الغفير فصارت هذه القراءات السبع اصولا للقراءة وربما زيد بعد ذلك قراءات اخر لحقت بالسبع الا انها عند ائمة القراءة لا تقوى قوتها فى النقل وهذه القراءات السبع معروفة فى كتبها وقد خالف بعض الناس فى تواتر طرقها لانها عندهم كيفيات للاداء وهو غير منضبط وليس ذلك

(1) Man. G. تنانثر.

عندهم بقادح فى تواتر القرآن واباه الاكثر وقالوا بتواترها
وقال اخرون بتواتر غير الاداء منها كالمدة والتسهيل (١) لعدم
الوقوف على كفيته بالسمع وهو الصحيح ولم يزل
القرء يتداولون هذه القراءات وروايتها الى ان كتبت العلوم
ودونت فكتبت فيها (٢) كتب من العلوم وصارت صناعة
مخصوصة وعلماء منفردا وتناقلها الناس بالمشرق والاندىلس
فى جيل بعد جيل الى ان ملك بشرق الاندىلس مجاهد
من موالى العامريين وكان معنيا بهذا الفن من بين فنون
القرآن لما اخذه به مولاة المنصور بن ابي عامر واجتهد
فى تعليمه وعرضه على من كان من ائمة القرء بحضرة
فكان سهمه فى ذلك وافر واختص مجاهد بعد ذلك
باماره دانية والجزائر الشرقية فنفت بها سوق القراءة بما كان
من ائمتها وبما كان له من العناية بسائر العلوم عموما وبالقراءة
خصوصا فظهر لعهد ابى عمرو الدانى وبلغ الغاية فيها ووقفت
عليه معرفتها وانتهت الى روايته اسانيدها وتعددت تأليفه فيها
رعول الناس عليها وعدلوا عن غيره واعتدوا من بينها كتاب
التيسير له ثم ظهر بعد ذلك فيما يليه من العصور والاجيال
ابو القاسم ابن فيرة من اهل شاطبة فعمد الى بهذيب ما
دونه ابى عمرو ونالحيصه فنظم ذلك كله فى قصيدة لقر

(١) Man. C. التسهيل

(٢) Man. C. et D. فيها

فيها اسماء القراء بحروف ابجد على ترتيب احكامه لينيسر عليه ما قصد من الاختصار وليكون اسهل للحفظ لاجل نظرها فاستوعب فيها الفن استيعابا حسنا وعنى الناس بحفظها ونلقينها للولد (١) المتعلمين وجرى العمل على ذلك في امصار المغرب والاندلس وربما اضيف الى فن القراءات فن الرسم ايضا وهى اوضاع حروف القرآن فى المصحف ورسومه الخطية لان فيه حروفا كثيرة وقع رسمها على غير المعروف من قياس الخط كزيادة الياء فى باييد (٢) وزيادة الاث في لا اذبحه ولا اوضعوا والواو فى جزاء الظالمين وحذف الالف فى مواضع دون اخرى وما رسم فيه من الناءات ممدودا والاصل فيه مربوط على شكل الهاء وغير ذلك وقد مرّ نعليل هذا الرسم المصحفى عند الكلام فى الخط فلما جاءت هذه مخالفة لاطواع الخط وقانونه احتيج الى حصرها فكتب فيها الناس ايضا عند كتبهم فى العلوم وانتهت بالمغرب الى بنى عمرو الداتى المذكور فكتب فيها كتباً من اشهرها كتاب المقنع واخذ به الناس وعولوا عليه ونظمه ابو الفاسم الشاطبى فى قصيدته الشهيرة على روى الرأ وولع الناس بحفظها (ثم) كثر الخلاف فى الرسم فى كلها وحروف اخرى ذكرها ابو داود سليمان بن

(١) Man. D. الولدان.

(٢) Man. B. C. يا بييد.

دجاج من موالى مجاهد فى كتبه وهو تلميذ أبى عمرو الدائى المشهور بحمل علومه ورواية كتبه (ثم) نقل بعده خلاف آخر فنظم الخراز من المتأخرين بالغرب ارجوزة اخرى زاد فيها على المقنع خلافا كثيرا وعزاه لناقليه واشتهرت بالغرب واقتصر الناس على حفظها وهجروا بها كتب أبى داود وأبى عمرو والشاطبى فى الرسم

واما التفسير

فاعلم ان القرآن نزل بلغة العرب وعلى اساليب بلاغتهم وكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه فى مفردانه وتراكيبه وكان ينزل جملا جملا وآيات آيات لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الوقائع ومنها ما هو فى العقائد الالهية ومنها ما هو فى احكام الجوارح ومنها ما يتقدم ومنها ما يتأخر ويكون ناسخا له وكان النبى صلعم هو المبين لذلك كها قال تعالى لتبين للناس ما نزل اليهم فكان النبى صلعم يبين المجمع ويميز الناسخ من المنسوخ ويعرفه اصحابه فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولاً عنه كما علم من قوله اذا جاء نصر الله والفتح انها نعى النبى صلعم وامثال ذلك عن الصحابة رضوان الله عليهم وتداول ذلك التابعون من بعدهم ونقل عنهم

ولم يزل ذلك متناقلا بين الصدر الاول والسلف حتى
 صارت المعارف علوما ودونت الكتب فكتب الكثير
 من ذلك ونقلت الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين
 وانتهى ذلك الى الطبرى والواقدى والثعالبى وامثالهم
 من المفسرين فكتبوا فيه ما شاء الله ان يكتبوه من الآثار ثم
 صارت علوم اللسان صناعة (1) من الكلام فى موضوعات
 اللغة واحكام العرب والبلاغة فى التراكيب فوضعت الدواوين
 فى ذلك بعد ان كانت ملكات للعرب لا يرجع فيها الى
 نقل ولا كتاب فتنوسى ذلك وصارت تستلقى من
 كتب اهل اللسان فاحتيج الى ذلك فى تفسير القرآن
 لانه بلسان العرب وعلى منهاج بلاغتهم وصار التفسير على
 صنفين تفسير نقلى مستند الى الآثار المنقولة عن السلف
 وهى معرفة الناسخ والمنسوخ واسباب النزول ومقاصد الآى
 وكل ذلك لا يعرف الا بالنقل عن الصحابة والتابعين وقد
 جمع المتقدمون فى ذلك واوعوا الا ان كتبهم ومنقولاتهم
 تشتمل على الغث والسمين والمقبول والمردود والسبب فى
 ذلك ان العرب لم يكونوا اهل كتاب ولا علم
 وانما غلب عليهم البداوة والامية فاذا تشوفوا الى معرفة
 شئ مما تشوف اليه النفوس الانسانية فى اسباب

المكونات وبدء الخليفة واسرار الوجود فانما يسئلون عنه اهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه (1) منهم وهم اهل التوراة من اليهود ومن نبع دينهم من النصارى واهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك الا ما تعرفه العامة من اهل الكتاب ومعظمهم حير الذين اخذوا بدين اليهودية فلما اسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالاحكام الشرعية التي يحتاطون لها مثل اخبار بدء الخليفة وما يرجع الى الحداث والملاحم وامثال ذلك وهؤلاء مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وامثالهم فامتلاءت النفاسير من النقولات عنهم في امثال هذه الاغراض اخبارا موقوفة عليهم وليست مما يرجع الى الاحكام فيتحرى فيها الصحة التي يجب بها العمل وتساهل المفسرون في مثل ذلك وملؤا كتب التفسير بهذه النقولات واصلها كما قلناه عن اهل التوراة الذين يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك الا انهم بعد صيتهم وعظمت اقدارهم بما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة فتلقيت بالقبول من يومئذ فلما رجع الناس الى التحقيق والتحصيل وجاء ابو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب فاختص تلك التفسير كلها وتحرى

(1) Man. D. يستقبلونه

ما هو اقرب الى الصّحة منها ووضع ذلك في كتاب
متداول بين اهل المغرب ولاندرلس حسن المنحى (ونبعه)
القرطبي في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب
اخر مشهور بالمشرق (والصنف الاخر من التفسير) وهو ما يرجع
الى اللسان من معرفة اللغة والبلاغة في تأدية المعنى بحسن
المقاصد والاساليب وهذا الصنف من التفسير قل ان ينفرد عن
الاول اذ الاول هو المقصود بالذات وأما جاء هذا بعد
ان صار اللسان وعلومه صناعات نعم يكون في بعض
التفسير غالبا (ومن) احسن ما اشتمل عليه هذا الفن من
التفسير كتاب الكشف للزمخشري من اهل خوارزم العراق
الا ان مؤلفه من اهل الاعتزال في العقائد فيأني بالحجاج
على مذاهبهم الفاسدة حيث عرض له في آي القرآن من
طرق البلاغة فصار بذلك للمحققين من اهل السنّة
انحراف عنه ونحذير الجمهور من مكائده مع اقرارهم برسوخ
قدمه فيما يتعلّق باللسان والبلاغة واذا كان الناظر فيه واقفا
على المذاهب السنيّة محسنا (١) للحجاج عنها فلا جرم انه
مأمون من غوائله فليغتني مطالعته لغرابة فنونه في اللسان
(ولقد) وصل الينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين
وهو شرف الدين الطيبي من اهل بوزيز من عراق العجم

شرح فيه كتاب الزمخشري هذا وتبتع الفاظه وتعرض
لمذاهبه في الاعتزال وادّله يزفها ويبين أن البلاغة إنما تقع
في الآية على ما يراه أهل السنة لا على مذهب المعتزلة
فاحسن في ذلك ما شاء مع امتناعه (١) في سائر فنون
البلاغة وفوق كل ذي علم عليم

علوم الحديث

وأما علوم الحديث فهي كثيرة ومتنوعة فإن منها ما
ينظر في ناسخه ومنسوخه وذلك بما ثبت في شريعتنا
من جواز النسخ ووقوعه لظفا من الله تعالى بالعباد وتخفيفا
عنهم باعتبار مصالحهم التي تكفل الله لهم بها قال تعالى
ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها
(ومعرفة) النسخ والمنسوخ وإن كان عامّا للقرآن والحديث
إلا أن الذي في القرآن منه اندرج في تفاسيره وبقي ما
كان خاصّا بالحديث راجعا إلى علومه فإذا تعارض الخبران
بالنفي والاثبات وتعذر الجمع بينهما ببعض التأويل وعلم
بقدم أحدهما تعيّن أن المتأخر ناسخ وهو من أهم علوم
الحديث وأصعبها قال الزهري أعياء الفقهاء وأعجزهم أن
يعرفوا ناسخ حديث رسول الله صلعم من منسوخه وكان
للشافعي رضي الله عنه فيه قدم راسخة (ومن) علوم

(١) Man. A. et B. امتناعه

الحديث (1) معرفة القوانين التي وضعها أئمة المحدثين لمعرفة الاسانيد والرواة واسمائهم وكيفية اخذ بعضهم عن بعض واحوالهم وطبقاتهم واختلاف اصطلاحاتهم وتحصيل ذلك ان الاجماع واقع على وجوب العمل بالخبر الثابت عن رسول الله صلعم وذلك بشرط ان يغلب على الظن

(1) Les deux manuscrits C. et D. offrent ici une rédaction toute différente. On y lit

من علوم الحديث النظر في الاسانيد ومعرفة ما يجب العمل به من الاحاديث برفوعه على السند الكامل الشروط لان العمل انما يجب بما يغلب على النظر صدقه من اخبار رسول الله صلعم فيجهد في الطريق التي تحصل ذلك الظن وهو معرفة رواة الحديث بالعدالة والوسط وانما يثبت ذلك بالنقل عن اعلام الدين بعدلهم وبراءتهم من الجرح والعفلة ويكون لنا ذلك دليلا على القبول او الترتك وكذلك مراتب هؤلاء النقلة من الصحابة والتابعين وتفاوتهم في ذلك وتمييزهم فيه واحدا واحدا وكذلك الاسانيد تتفاوت باتصالها وانقطاعها فان يكون الراوى لم يلق للراوى الذى نقل عنه وسلامها من العلل الموهدة لها وينتهي بالتفاوت الى طرفين يحكم بقبول الاعلى ورذ الاسفل ويختلف في المتوسط بحسب المخلول عن ائمة الشأن ولهم في ذلك الفاظ اصطلاحا على وضعها لهذه المراتب المرتبة مثل الصحيح والحسن والصعب والمرسل والمنقطع والمعضل والساذ والعريب وغير ذلك من الغاية المداولة بينهم وتربوا على كل واحد منها وسعوا ما فيها من الخلل لائتمة الشأن او الواقع ثم الطري كيفية اخذ الرواة بعضهم عن بعض بقاء او كتمان او مسأولة او اجارة وتفاوت رتبها وما للعلماء في ذلك من الخلل بالقبول والرد ثم اتبعوا ذلك في الفاظ تقع في متن الحديث من غريب او مشكل او توضيح او معتوق منها، وصحاف وما يناسب ذلك هذا معظم ما ينظر فيه اهل الحديث وغالبه وكانت احوال بئلة الحديث في عصر السلف من الصحابة والتابعين معروفة كل عند اهل بلده فمنهم بالبحجاز ومنهم بالصرة والكوفة من العراق ومنهم بالسنام وعصر الجميع معروفون ومشهورون في اعمارهم وكانت طريقة اهل البحجاز في اعصارهم في الاسانيد اعلا من سواهم وامتن في الصحة لاشتدادهم في شروط النقل من العدالة والوسط ونجافتهم عن قبول المجهول الحال في ذلك

صدقه فيجب على المجتهد تحقيق الطرق التي تحصل
ذلك الظن وذلك بالنظر في اسانيد الحديث بمعرفة
رواته بالعدالة والضبط والاتقان والبراءة من السهو والغفلة
بوصف عدول الامة لهم بذلك (ثم) تفاوت مراتبهم فيه ثم
كيفية رواية بعضهم عن بعض بسماع الراوى من الشيخ
او قراءته عليه او سماعه تقرأ عليه وكتابة الشيخ له او مناولته
او اجارته في الصحة والقبول منقول عنهم واعلا مراتب
المقبول عندهم الصحيح ثم الحسن وادون مراتبها الضعيف
وبشتمل على المرسل والمنقطع والمعضل والهعلل والشاذ
والغريب والمنكر فمنها ما اختلفوا في رده ومنها ما اجتمعوا
عليه وذلك شأنهم في الصحيح فمنه ما اجتمعوا على
قبوله وصحته ومنها ما اختلفوا فيه وبينهم في تفسير هذه
الالقاب اختلاف كثير (ثم) انبعوا ذلك بالكلام في الفاظ
تقع في متون الحديث من غريب او مشكل او تصحيف
او مفترق ووضعوا لهذه الفصول كلها قانونا كفيلا ببيان
نلك المراتب والالقاب وسلامة الطرق عن دخول النقص
فيها (واول) من وضع في هذا القانون من فحول
ائمة الحديث ابو عبد الله الحاكم وهو الذي هذب واطهر
محاسنه وتواليفه فيه مشهورة (ثم) كتب ائمتهم فيه من بعده
واشهر كتاب للمتأخرين فيه كتاب ابى عمرو بن الصلاح

كان في أوائل الهاية السابعة وتلاه محيي الدين النووي
 بمثل ذلك والفن شريف في معزاه لأنه معرفة ما يحفظ به
 السنن المنقولة عن صاحب الشريعة حتى يتعين قبولها او
 ردّها (واعلم) ان رواية السنّة من الصحابة والتابعين معروفون
 في امصار الاسلام منهم بالحجاز وبالكوفة والبصرة ثم بالشام ومصر
 والجميع معروفون ومشهورون في اعصارهم وكانت طريقة اهل
 الحجاز في الاسانيد اعلا من سواهم وامتن في الصحة لاشتدادهم
 في شروط النقل من العدالة والضبط بتجافهم عن قبول المستورين
 المجهولة احوالهم وسيد الطريقة الحجازية بعد السلف الامام
 مالك عالم المدينة ثم اصحابه مثل الامام ابى عبد الله
 محمد ابن ادريس الشافعي رضى الله عنه وابن وهب وابن
 بكير والقنبي ومحمد بن الحسن ومن بعدهم الامام احمد بن
 حنبل في اخرين من امثالهم (وكان) علم الشريعة في
 مبداء الامر نقلا صرفا لا نظرا ولا راي ولا تعمقا في القياس
 وشمولها السلف وتحروا الصحيح حتى اكملوها (وكتب)
 مالك رحمه الله كتاب الموطأ على طريقة الحجازين اودعه
 اصول الاحكام من الصحيح المتفق عليه ورّبه على ابواب
 الفقه (ثم) غنى الحفاظ بمعرفة طرق الاحاديث واسانيدها
 المختلفة الحجازية والعراقية وغيرها وربما يقع اسناد الحديث
 من طرق متعددة وعن رواية مختلفين وقد يتحد في بعض

الاحاديث ويتعَدَّد ويتكرَّر الحديث في ابواب الفقه باختلاف المعاني التي اشتمل عليها (وجاء) محمد بن اسهيل البخاري امام المحدثين في عصره فوسع نطاق الرواية وخرج احاديث السنة على ابوابها في مسنده الصحيح وجمع طرق الحجازيين والعراقيين والشاميين واعتمد منها ما اجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه وكرر الاحاديث يسوقها في كل باب بمعنى ذلك الباب الذي تضمنه الحديث فتكررت لذلك احاديثه في الابواب باختلاف معانيها كما اشرنا اليه فاشتمل كتابه على سبعة آلاف حديث ومايتين تكررت منها ثلاثة آلاف وفرق الطرق والاسانيد عليها مختلفة في كل باب (ثم) جاء الامام مسلم ابن الحجاج القشيري رحمه الله فالف مسنده الصحيح انبع فيه البخاري في نقل المجمع على صحته وحذف المتكرر منها وجمع الطرق والاسانيد فبّره على ابواب الفقه وتراجمه ومع ذلك فلم يستوعب الصحيح كله واستدرك الناس عليهما بما اغفلا عن شروطهما (ثم) كتب ابو داود السجستاني وابو عيسى الترمذي وابو عبد الرحمن النسوي في السنن باوسع من الصحيح وقصدوا ما توفرت فيه شروط العمل اما من الرتبة العالية في الاسناد وهو الصحيح كما هو معروف واما من الذي دونه كالحسن وغيره ليكون ذلك اماما للسنة والعمل

بها وهذه هي المسانيد المعتمدة (1) في الهلة وهي امهات كتب الحديث في السنة (2) (ولحق) بهذه الخمسة مسانيد اخرى كهسند ابى داود الطيالسى والبزار وعبد بن حميد والدارمى وابو يعلى الهوصلى والامام احمد قاصدين فيها المسندات عن الصحابة من غير ان يكون محتجا بها هكذا قال ابن الصلاح وفي الرواية عن الامام احمد انه كان يقول لابنه عبد الله فى كتابه المسند وهو يشمل على احد وثلاثين الف حديث وعن جماعة من اصحابه انهم قالوا قرأ علينا المسند وقال هذا كتاب انتقيته من سبعماية الف وخمسين الف حديث فما اختلف فيه المسلمون من الاحاديث النبوية ولم يجدوه فيه فليس بحجة فهذا يدل على ان جميع ما فى مسنده يصح الاحتجاج به عكس ما قاله ابن الصلاح نقلته من مناقب الامام احمد لابن الجوزى (وقد) انقطع

(1) Man. C. et D. المشهور

(2) Les man. C. et D. offrent ce qui suit. فانها وان تعددت فترجع الى ملة فى الاعاب وعرفة هذه الشروط والامطلاحات كلها هى علم الحديث وربها تفرد عنها الناسخ والمنسوخ وجعل فتا برأسه وكذا الغريب واللباس فيه ترايف مشهورة ثم المؤتلى والمختلف وفد الف الناس فى علوم الحديث واكثروا ومن فحول علمه انه واقتنهم ابو عبد الله الحاكم ونوالفه فيه مشهورة وهو الذى جذبه واظهر محاسنه واشهر كتاب المتأخرين فيه كتاب عهرو بن الصلاح كان لعبد اوانل الماية السابعة وثلاثة معيتى الدين النوتى بهل ذلك والفن شريف فى معزاه لانه معرفة ما يحفظ به السنن المشقولة عن صاحب الشريعة.

لهذا العهد تخريج شئ من الاحاديث واستدراكها على المتقدمين اذ العادة تشهد بان هؤلاء الائمة على تعددهم وتلاحق عصورهم وكفايتهم واجتهادهم لم يكونوا ليغفلوا شئاً من السنة او يتركوه حتى يعثر عليه المتأخر هذا بعيد عنهم وانما تنصرف العناية لهذا العهد الى تصحيح الامتات المكتوبة وضبطها بالرواية (1) واسنادها الى مؤلفيها لتتصل الاسانيد محكمة من مبدئها الى منتهاها ولم يزدوا في ذلك على العناية باكثر من هذه الامتات الخمسة الا في الاقل (فاما) صحيح البخاري وهو اعلاها رتبة فاستصعب الناس شرحه واستغلقوا (2) منحاء (3) من اجل ما يحتاج اليه من معرفة الطرق المتعددة ورجالها من اهل الحجاز والشام والعراق ومعرفة احوالهم واختلاف الناس فيهم وكذلك يحتاج الى امعان النظر في التفقه في التراجم (4) لانه يترجم الترجمة ويورد فيها الحديث بسند او طريق ثم يترجم اخرى ويورد فيها ذلك الحديث بعينه لما تضمنه من المعنى الذى ترجم به الباب وكذلك في ترجمة وترجمة الى ان يتكرر الحديث في ابواب متفرقة بحسب معانيه واختلافها ومن النظر في تراجمه بيان

عن مصنفها والنظر في اسانيدها الى مؤلفيها وعرض ذلك على ما (1) Man. C. et D. تنقري في علوم الحديث من الشروط والاحكام.

(2) Man. D. استغلقوا.

(3) Man. C. et D. نتخله.

(4) Man. D. التفقه وتراجمه. Man. A. et B. النفقة. Man. C. تراجمه.

المناسبة بين الترجمة والأحاديث التي في ضمنها فقد وقع له كثير من تراجمه خفاء المناسبة بينها وبين الأحاديث التي في ضمنها وطال كلام الناس في بيانها كما وقع في كتاب الفتن في الباب الذي ترجم فيه بقوله باب تخريب البيت ذو السويقتين من الحبشة ثم قال في الباب قال الله تعالى واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمانا ولم يرد على ذلك شأ وخفى على الناس وجه المناسبة بين هذه الترجمة وما في الباب فنههم من قال كان المصنف رحمه الله يكتب التراجم في المسودة ثم يكتب الأحاديث في كل ترجمة بحسب ما تيسر له وتوقي قبل أن يستوفي حشو التراجم فروى الكتاب كذلك وسمعت من أصحاب القاضي ابن بكار قاضي غرناطة واستشهد في واقعة طريف سنة إحدى وأربعين وسبعماية وكان قائما على صحيح البخاري أنه أراد بالترجمة تفسير الآية بأن ذلك مشروع لا مقدر لأن الاشكال إنما جاء من تفسير جعلنا بقدرنا وإذا كان بمعنى شرعا لم يكن لبس في تخريب ذي السويقتين أيها سمعت ذلك من شيخنا أبي البركات البلغيتي عنه وكان من أجلّة تلميذه ومن شرح الكتاب ولم يستوف هذا كله فيه فلم يوف حق الشرح كابن بطال وابن المهلب وابن التين ونحوهم ولقد سعت كثيرا من شيوخنا رحمهم

الله يقولون شرح كتاب البخاري دين على الامة يعنون ان
 احدا من علماء الامة لم يوف ما وجب له من الشرح
 بذلك الاعتبار (واما) صحيح مسلم فكثرت عناية علماء
 المغرب فيه واكتبوا عليه واجمعوا على تفضيله على كتاب
 البخاري قال ابن الصلاح انما تفضل (1) على كتاب البخاري
 بما وقع فيه من تجريده عما مزج به البخاري كتابه من
 غير الصحيح مما لم يكتبه على شرطه واكثر ما وقع له ذلك
 في التراجم واملا الامام المازري من فقهاء المالكية عليه
 شرحا وسماه المعلم بفوائد المسلم واشتمل على عيون من
 علم الحديث وميتين من الفقه ثم اكمله القاضي عياض
 من بعده وتممه وسماه اكمال المعلم وتلاهما محيي الدين
 النووي بشرح استوفى ما في الكتابين وزاد عليهما وجاء
 شرحا وافيا واما كتب السنن الاخرى الثلاثة وفيها معظم
 مأخذ الفقهاء فاكثر شرحها في كتب الفقه الا ما يختص
 بعلم الحديث فكتب الناس عليها واستوفوا من ذلك
 ما يحتاج اليه من علوم الحديث وموضوعاتها والمسانيد التي
 اشتملت على الاحاديث المعمول بها من السنة (واعلم) ان
 الاحاديث قد تميزت مراتبها لهذا العهد بين صحيح
 وحسن وضعيف ومعلول وغيرها ميزها ائمة الحديث

(1) Man. A. et B. يفضل.

وجها بذته وعرفوها ولم يبق طريق في تصحيح ما لم يصح
من قبل ولقد كان الأئمة في الحديث يعرفون الأحاديث
بطرقها واسانيدها بحيث لو روى حديث بغير سنده وطريقه
تقطنوا الى انه قد قلب عن وضعه ولقد وقع مثل ذلك
للإمام محمد بن اسماعيل البخاري حين ورد على بغداد
وقصد المحدثون اسحانه فسألوه عن احاديث قلبوا اسانيدها
فقال لا اعرف هذه ولكن حدثني فلان ثم اتى بجميع
تلك الاحاديث على الوضع الصحيح ورد كل متن الى
سنده فاقروا له بالامامة (واعلم) ايضا أن الأئمة المجتهدين
تفاوتوا في الاكثار من هذه البضاعة (1) والاقلال فابو حنيفة
رحمه الله يقال انه اتى بالغت روايته الى سبعة عشر حديثا
او نحوها الى خمسين ومالك رحمه الله اتى صرح عنده ما
في كتاب الموطا وغايتها ثلثمائة حديث او نحوها واحمد
بن حنبل رحمه الله في مسنده ثلاثون (2) الف حديث والكل
على ما اداهم اليه اجتهادهم في ذلك وقد يقول بعض
المتصبيين المتعسفين ان منهم من كان قليل البضاعة في
الحديث ولهذا قلت روايته ولا سبيل الى هذا المعتقد في
كبار الأئمة لان الشريعة اتى تؤخذ من الكتاب والسنة ومن
كان قليل البضاعة من الحديث فيتعين عليه طلبه وروايته

(1) Man. D. الصناعة.

(2) Man. C. et D. اربعون.

والجدّ والتشهير فى ذلك لياخذ الدين عن اصول صحيحة
ويبتلى الاحكام عن صاحبها المبلغ لها عن الله وانما اقل
منهم من اقل الرواية لاجل المطاعين التى تعترضه فيها
والعلل التى يغمص فى طرقها سببا والجرح مقدّم عند
الاكثر فيؤديه الاجتهاد الى ترك الاخذ بما يعرض مثل
ذلك فيه من الاحاديث وطرق الاسانيد ويكثر ذلك فتقل
روايته لضعف الطرق هذا مع ان اهل الحجاز اكثر رواية
للحديث من اهل العراق لان المدينة دار الهجرة ومأوى
الصحابة ومن انتقل منهم الى العراق كان شغلهم بالجهاد
اكثر والامام ابو حنيفة انما قلت روايته لما شدد فى شروط
الرواية والتحمل فاستصعب وضعف الحديث اذا عارضه
العقل القطعى فاستصعبت روايته فقل حديثه الا انه ترك
روايته الحديث متعمدا فحاشاه من ذلك ويدلّك على انه
من كبار المجتهدين فى علم الحديث اعتناء مذهبه بينهم
والتعويل عليه واعتباره ردا وقبولا واما غيره من المحدّثين وهم
الجمهور فتوسّعوا فى الشروط وكثر حديثهم والكل عن اجتهاد
وقد توسّع اصحابه من بعده فى الشروط وكثرت روايتهم
وروى الطحاوى فاكثر وكتب مسنده وهو جليل القدر
الا انه لا يعدل الصحيحين لان الشروط التى اعتمدها البخارى
ومسلم فى كتابيهما مجمع عليهما بين الامة كما قالوه

وشروط إلتحاوتى غير متفق عليها كالرواية عن المستور الحال
وغيره فلذا قدم الصحيحان بل وكتب السنن المعروفة
عليه لتأخر شرطه عن شروطهم ومن أجل هذا قيل فى
الصحيحين بالاجماع على قبولهما من جهة الاجماع على
صحة ما فيهما على الشروط المتفق عليها فلا تأخذت رتبة
فى ذلك فالقوم أحق الناس بالظن الجليل بهم والتماس
المخارج الصحيحة لهم (ثم) من علوم الحديث تصريف
هذا القانون فى الكلام على الأحاديث واحدا واحدا فى
أربابها وتراجمها فى تفاسير هذه المسانيد كما فعله الحافظ
أبو عمر بن عبد البر وأبو محمد بن حزم والفاضل عياض
ومحمى الدين الزواوى وأبن العطار بعدهما وكثير من أئمة
المغاربة والهاشوقه وإن كان فى كلامهم على ملكة
الأحاديث غير ذلك من فقه متونها ولغتها وأربابها إلا أن
كلامهم فى أسانيدنا بصاعة الحديث أوعب وأكثر هذه
أصناف علوم الحديث المتداولة بين أئمة الأعصار لهذا
العهد والد الهادى الى الحق والمعين على

APPENDICE.

Pages 363 et suiv.

Au lieu des six chapitres que j'ai donnés, d'après les manuscrits A. et B., les deux exemplaires C. et D. offrent seulement ce qui suit :

فصل فى ان العلوم والتعليم طبيعى فى العمران البشرى

وذلك ان الانسان قد شاركته جميع الحيوانات فى حيوانيته من الحس والحركة والغذاء والكن وغير ذلك وانما تميز عنها بالفكر الذى يهتدى به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بابناء جنسه والاجتماع المهيء لذلك وقبول ما جاءت به الانبياء عن الله تعالى والعمل به واتباع صلاح اخرائه فهو مفكر فى ذلك كله دائما لا يفتر عن الفكر فيه طرفة بل اختلاج الفكر اسرع من لمح البصر وعن هذا الفكر تنشأ العلوم وما قدمناه من الصنائع ثم لاجل هذا الفكر وما جبل عليه الانسان بل الحيوان من تحصيل ما يستدعيه الطباع فيكون الفكر راجيا فى تحصيل ما ليس عنده من الادراكات فيرجع الى من سبقه بعلم او زاد عليه بمعرفة او ادراك (1) او اخذه ممن تقدمه من الانبياء الذين

(1) ادراك. Man D.

يبلغونه لمن يلقاه فيلقن ذلك عنهم ويحرص على اخذه
وعلمه ثم ان فكره ونظره يتوجه الى واحد من الحقائق
وينظر ما يعرض له لذاته واحدا بعد اخر ويتمرن على ذلك
حتى يصير الحاق العوارض بتلك الحقيقة ملكة له
فيكون علمه حينئذ بها يعرض لتلك الحقيقة علما مخصوصا
وتنشوق نفوس اهل الجيل الناشئ الى تحصيل ذلك
فيفزعون الى اهل معرفته ويحجى التعليم من هذا فقد تبين
بذلك ان العلم والتعليم طبيعيتي في البشر والله اعلم

